مطالعات في الرواية الفارسية المعاصرة

د. ابراهيم الدسوقي شتا

مُطالعات
في
الرواية الفارسية المعاصرة

الاخراج الفنى	تصميم الغلاف
عفاف توفيق	فتحى أحمد

مطالعات
في
الرواية الفارسية المعاصرة

دكتور
إبراهيم الدسوقي شتا
أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب
جامعة القاهرة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

إهـــداء

الى امـــى :

اعترافـــا بالفضل

وامتنانا لدروس قل أن توجد فى الكتب

ابراهيم الدسوقى شتا

تصدير

فى هذا القرن خطت الرواية الفارسية خطوات واسعة فى طريق التطور ولست أريد بهذا التصدير المبسط أن أتعرض للرواية الفارسية : تاريخها وميادينها وأهم أعلامها ، فمن أجل ذلك أعد الآن كتابا موسعا عن الفن القصصى الفارسى عموما من ١٨٦٥ الى ١٩٧٥ .

خلال اعدادى لهذا الكتاب ، جذب انتباهى بعض الروايات رأيت أنها تعد معالم على الطريق وأنها تصور القفزات الفنية الواسعة من ناحية المعالجة ، كما أنها تقدم صورة واضحة للشعب الايرانى الشقيق فى صراعاته المختلفة السياسية والاجتماعية ، وتدل على نمو الشخصية القومية لايران ، وفوق ذلك كله تعد دليلا على التطويع الذى خضعت له اللغة الفارسية منذ مطلع هذا القرن حتى صارت صالحة للتعبير عن كافة الموضوعات .

هذه الروايات السبع التى أعرضها هنا جزء من كل ، فهناك بعض الروايات قرأت عنها كثيرا الا أننى لم أعثر عليها مثل رواية « عيناها » لبزرج علوى « وربيع العمر » لمحمد مسعود ، وطبعات هذه الروايات لا تجدد وليس للاقبال الجماهيرى دخل فى هذا الأمر .

ومن نافلة القول أن الروايـة هي « ديوان الشعوب » ومن ثم أردت هنا أن أعرض التطور الاجتماعي للشعب الايراني وصـورا من حياته اليومية ومعتقداته وتقاليده وعاداته ، وكان الكتـاب أوراقـا مبعثرة كتبت في فترات متقطعة من العمر أردت أن أجمعها خاصـة ولم يقدم من الأدب المعاصر الى اللغة العربية الا ما قدمه كاتب هذه السطور من ترجمة لأربع عشرة قصـة قصيرة لصادق هدايت تحت عنوان « قصص من الأدب الفارسي المعاصر » (هيئة الكتاب ١٩٧٥) ورواية البومة العمياء لنفس الكاتب (هيئة الكتاب ١٩٧٦) ومن ثم خلا الكتاب الذي بين أيدينا من ذكر لهدايت بالرغم من أنه رائد الفن القصصي في ايران بلا منازع .

هذا الكتاب سياحة مكانية وزمانية داخل ايران ، أرجو أن يزداد منها القارىء العربي معرفة بشعب شقيق وعريق تربطنا به أقوى أواصر الود ، وهو أيضا دعوة الى السادة الزمـلاء أساتذة اللغة الفارسـية وآدابهـا في الجامعات المصريـة لعل رواية من الروايات المعروضـة تصادف هوى في نفس أحدهم فيقدم على تقديم نصـها الكامل الى العربية ، والله الموفق .

دكتور

ابراهيم الدسوقي شتا

استاذ اللغات الشرقية ـ كلية آداب القاهرة

١ ــ الورود التى تنبت فى جهنم

محمد مسعود دهاتى

ولد محمد مسعود دهاتى من أسرة متواضعة فى مدينة اقليمية صغيرة ، وفى بواكير عشريناته وصل الى العاصمة طهران واشتغل مدرسا فى مدرسة ابتدائية ، ونشر عمله الأول « مسرات الليل » بالاسم المستعار دهاتى فى مجلة الشفق الأحمر ، وقد اثارت الرواية بلهجتها الحادة ضجة جذبت اليه أحد الوزراء فأرسله فى بعثة الى اوربا وظل فترة صامتا ومنذ سنة ١٩٤١ اصدر جريدته الأسبوعية « رجل اليوم » وهى مجلة سليطة لا تتوقف عند حد وبلته بعدد من الأعداء الأقوياء ظلوا يترصدونه حتى اغتيل سنة ١٩٤٧ ولايزال قاتله مجهولا .

ورواية « الورود التى تنبت فى جهنم » جزء من ثلاثية اتم منها جزءين فقط ، والجزء الثانى وهو « ربيع العمر » على طول ما بحثت عنه لم استطع العثور عليه والجزء الأول لا تجدد طبعاته . والعرض الذى اقدمه الى القراء هو من الطبعة الأولى « ١٩٤٢ تهران » .

هذه رواية من أشد روايات النقد السياسي والاجتماعي وضوحا وأظهرها نغمة . كتبها محمد مسعود وأردفها بالجزء الثاني ، وكان ينوى اتمامها بالجزء الثالث لولا أن يدا خفيــة أثيمــة امتدت اليه فاغتالته ، ومضى الكاتب دون أن تتم الرواية .

جهنم ــ فى رأى الكاتب ــ هى ايران . وهى لم تتحول الى جهنم فى مطلع هــذا القرن أى الزمــن الذى تجرى فيه أحــداث الرواية فحسب ، بل انها كما يعبر الكاتب على لســان بطله ــ ولعله الكاتب نفسه ــ طوال تاريخها الطويل ليست الا جهنم نزلت الى الأرض . ان هنــاك حلقتين متصلتين فى تاريخ ايران طوال عصورها ، انها تنقسم الى عصــور من الفوضى تعقبها عصور من الديكتاتورية فعصور من الفوضى وهلم جرا . وبطل الرواية شاب درس فى أوربا وتزوج وترك زوجته وعــاد الى وطنه يبحث عن عمل حتى يرســل فى طلب زوجتــه ويخدم وطنه بهذا العلم الذى أفنى فيه شــبابه فى الخــارج .

ومقدمة الرواية عبــارة عن خطابات متبادلة بين البطل وأحــد أصدقائه ، ان الصــديق يسأل عن أحوال صديقه الذى نعلم فيما بعد أن اســمه « محمود » ، ولكن محمودا صامت ، وزوجتــه وطفلها ينتظران رده دون جدوى ، وتأكل منهما الأيام يوما بعد يوم فيذوى جمالها ويزحف اليأس المظلم القاتل على نفسها يوما بعد يوم ، ويزورها صديقه هــذا فلا يسمع منها الا نحيبا ، ولا يرى فى نظرات والديها الا سخطا ، وبعد طول انتظار يكتب لها زوجهــا خطابا قصيرا نعلم منه معها أنه لايزال بلا عمــل وأنه يحــارب لسبب لا يدريه ، وأن الشرطة تطارده وأبواب العمل تسد فى وجهــه وأنه متهم بتهمــة الانتماء الى مذهب تحاربه الدولة وهو منه براء وتنتحر الزوجة لكن بعد أن تترك عدة خطابات من زوجها (لا نعلم كيف وصلتها ولا أين

ولا متى) وهـذه الخطابات التى وقعت فى يد الكاتب (بطريـق لا ندريه أيضا) هى التى تكون بقية الرواية • والملاحظ أن صيغة الخطابات هى الصيغة التى تغلب على الرواية الفارسـية المعاصرة ، ربما لأنها توحى بأكبر قدر من الواقعية ، وفى صيغة المتكلم ما يمنح الكاتب فرصـة كبيرة للتعبير عن ذات نفسه ، أو الشطح الفلسفى واستعراض الثقافة وهى آفة لا تخلو منها رواية فارسية واحدة •

فى الفصل الأول من الرواية أو من الخطابات نجد وصفا من أبلغ ما يمكن لايران فى العشرينات من هـذا القرن حيث سقطت فى أيدى العسكريين لتصمت بعدها ـ لله يعلم الى متى • ان ايران جهنم يحكمها شيطان • ويلعب المؤلف على أسطورة الضحاك [1] القديمـة ويحملها رموزا حديثة • ان الشيطان الذى يحكم خائف من الشباب مثل الضحاك القديم الأسطورى تنبت كل يوم حية فى كل كتف من كتفيـه لا تهدأ الا اذا أكلت نخـاع شـاب ، وان لم تأكل سببت للطاغيـة عذابا ما بعده عذاب ، انه يصف فى هـذه الفقرة البليغة ، الحياة فى ايران فى ذلك العصر أبلغ وصف : « شيوخنا لا دين لهم ، وشرطينا لص ، وقضاتنا قتـلة ، نوابنا لم ننتخبهم ولم نرهم طول عمرنا ، وهم أعدى أعدائنا ، مثقفونا أس الجهل والفساد ، ومحاكمنا مركز الظلم والشقاء ، كلنا نعلم هـذا ، ونتحدث بهـذا الى بعضنا بعضا حين نخلو الى أنفسنا ، لكننا نحترم شيوخنا ، ونخـاف من الشرطة ، ونقدم الالتماس الى القاضى ، ونستشفع النواب ، وننتظر من الحكومة الشفقة والمساعدة ، ونلجـأ الى المحـاكم لرفع الظلم

واحترامنا لشيوخنا ، وخوفنا من الشرطة ، ورفعنا الأمور الى القاضى ، واستشفاعنا بالنواب ، وتظلمنا للمحاكم كله رياء وكذب ،

---

(1) الضحاك بطل أسطورى قديم .. احتل ايران وسـام أهلهـا صنوفا من العذاب .. ثم تخلصت منه بثورة قادها كاوه الحداد وافريدون •

أما دعاء الشيوخ ، وحراسة الشرطة وعدالة القاضى ودفاع النائب فى المجلس فكلها أكذب من الكذب نفسه ، ان الكذب هو حطب جهنم التى نحيا فيها ، الكذب هو المواد الخام لمصنع الألم والعذاب هذا الكذب هو النتاج الذى لا تنتهى لمزرعة المصائب والآلام هذه ، الكذب هو البذور المباركة الخصبة الدائمة التى زرعت فى مواطن البلاء هذا .

ومع ذلك ففى وسط جهنم ترتفع دقات الطبول كل يوم ، ترقص عليها فتيات عاريات النهود يجمعهن موظفو الشيطان ليرقصن تحت أنظارهم الشهوانية فى احتفالات تسمى بالقومية بينما آباؤهن فى السجون ، وأمهاتهن يرزحن تحت عبء الحياة التى تقضى عليهن يوما بعد يوم ، هذا الجزء لا يخفى رمزه بل هو أشبه بالرمز الذى يضخم الحقيقة فيظهرها أقوى مما هى ، وهكذا تدور الأيام طاغية يسلم لطاغية آخر وظلم يشكى منه لظلم ، ولا حس ولا صوت ، فان جهنم لا تقبل الشكوى .

ثم ندخل فى الجزء المهم من الرواية وهو يتناول طفولة شاب ايرانى وصباه فى أوائل هذا القرن وتحت وطأة هذه الظروف ، ان هذا الجزء هو الترجمة العملية لهذا النقد القاسي الذى قدمه فى البداية . ان طفولة الشاب قاسية بالرغم من نشأته فى أسرة من الممكن أن توفر له ضرورات الحياة ، فهو طفل وحيد فى أسرة متوسطة لديها خادمة تسمى سكينة ستلعب دورا هاما فى حياة الطفل فيما بعد ، والأم لا ترى الا نادبة أو باكية ، لعل ذلك من نتاج الظلم الذى قاسته المرأة فى مجتمع يسيطر عليه رجال جهلة . والطفل يسكن فى الحى الذى يحيط بضريح الامام عبد العظيم حيث جبانة طهران ويختلط الموتى بالأحياء ويمتزج الموت بالحياة بحيث تصير روائح الموتى ومناظر جثثهم من الحياة اليومية ولا تختلف كثيرا عن بقية

جزئيات حيـاة الأحياء ، فى هـذا الجو المـأساوى الحزين تمضى طفولة البطل وهناك فى اللاوعى عنده تثبت صورة لا تفارقه (وهى تتكرر كثيرا فى عدد من الروايات الفارسية المعاصرة) وهى صـورة احتفالات المؤمنين من الشيعة بالعاشر من محرم وبمصرع الحسين عليه السلام فى كربلاء حيث تمثل صور تمثل مصرع سيد الشهداء مع زهرة شـباب آل البيت فى كربـلاء ، ويضرب المحتفلون أنفسـهم بالأسلحة ، خفيفها وثقيلها تكفيرا عن خذلانهم للحسين ، واستحضارا لدمائه الذكية ومن مات فهو فى عرف الفقهاء الشيعة شـهيد ، ويندمج الممثلون فى أدوارهم فتسيل الدماء أنهارا ، ويقتل بعضهم فتتلقفهم أيدى الناس مكبرة مهللة فتلقى بهم بملابسهم فى حفر أعدت خصيصا لهذا الغرض ، وبالرغم مما فى الصـورة من بشاعة لا يقرها الاسلام السمح الا أن الطفل كان ينتظر بفارغ الصبر يوم أن يكبر ويسمح له بأن يشترك فى هـذه الاحتفالات ، ويسمح له بأن يحمل السيف يسيل به دمه عله يمسح الخطايا المفتعلة التى ارتكبها هؤلاء التعساء فى حياتهم التعسة .

من نفس هذه المقابر كان طريق الطفل الى المدرسـة ، وكانت تسلية الطريق مشاهدة الموتى ، أجل الموتى ، ليس الموتى القادمين من المدينة فحسب ، بل الموتى القادمون من أطراف ايران أيضـا ليدفنوا بجوار الامام علهم يحشرون معه يوم القيامة وقد وصلت جثثهم الى كنف الامام وقد لحقها التحلل ففاحت روائحها وتساقطت أطرافهـا وتمزقت أكفانها ، من شكل الأظافر أو الشعر أو الأجزاء الظـاهرة من جثث هؤلاتى الموتى كان الأطفال يتناقشون حول جنس المتوفى أو سنه ، وهكذا يمضون الطريق الى المدرسـة .

ويصل الطفل مع زملائه الى المدرسـة ، حيث مناهج التعليم العقيمة ، فقد ألغيت أشـعار سعدى وحافظ التى تدعو الى الحب ،

وحلت محلها ـ بدعوى التطور ـ أسماء أنهار أمريكا الجنوبية أو أسماء أنواع من الطعام لم يكن يحلم الأطفال حتى بأن يروها يوما من الأيام ، وفى المدرسة مدرسون غلاظ شداد لا ينجو من نظراتهم الشبقة طفل ذو وجه صبوح ، وينقضى اليوم الدراسى بخيره وشره ليعود الأطفال من نفس الطريق ، ولكن المقابر فى ذلك الوقت غاصة بالناس ، الحواة الذين يلعبون بالحيات حيث تهرب منهم وتختار الحياة بين الموتى ، والدراويش والوعاظ الشعبيون الذين يعرضون مناظر ساذجة تمثل مشاهد آل البيت ويجمعون الصدقات ، أو يفتون بأسلوب فج لا مواربة فيه فى قضايا الزنا والطلاق وبمدلولات جنسية كانت تثير فى عقول الأطفال الغضة العديد من الأسئلة .

ومن بين هؤلاء الأطفال اصطفى بطلنا رفيقا ، وكان فقدانه لهذا الصديق أول صدمة يتلقاها . كان « أحمد » وسيما ذكيا وصموتا ومؤدبا ونظيفا وكان فوق هذا يشارك بطلنا الرغبة أو الأمل فى أن يشترك فى احتفالات المحرم ، وها هما يلتقيان بأحد الصناع فى سوق النحاسين فيتفقان على كل شىء : على أن يصنع لهما السيف والقيود ، وعلى أن يتلقى منهما الثمن أقساطا ، وها هما يبيعان كتبهما القديمة ويسلمان الصانع كل ما يصل الى أيديهما من نقود بطريق مشروع أو غير مشروع ، وهل هناك طريق غير مشروع فى سبيل هذه الغاية العظيمة والهدف السامى ؟ لكن بمجرد أن يقترب الموسم يسقط أحمد مريضا ، بدأ الأمر عاديا ، تغيب أحمد يوما عن المدرسة فذهب صاحبنا لزيارته فوجده يعانى من ارتفاع طفيف فى درجة الحرارة ، الا أن هذه الوعكة اشتدت حتى انقلبت الى حمى ، وها هو صاحبنا يذهب لزيارته فلا يكاد يعرفه المريض ، وذات صباح كان محمود ذاهبا الى صديقه المحتضر ، وعندما اقترب من المنزل سمع صراخا يعرف دلالته جيدا ، مات رفيق الصبا ولأول مرة يفهم الطفل معنى

الموت ، كانت المرة الأولى التى يرى فيها ميتا بعد أن عرفه وعــاش معه وهو حى ، ولم يطق ، خرج من منزل صاحبه الى الخــلاء ، فى نفس المكان الذى كان يجلس فيه مع صديقه يستذكران ويخططان لاحتفالات عاشوراء ، ومن بعيد كان يسمع الجلبة والصراخ ، كمــا كان يسمع غناء يأتى من بعيد ، ولكن ما كان يرن فى أذنه هو الأغنية التى كان يغنيها دائما مع رفيقه :

طائر القلق محلق فى الفضاء فى قدمه جلاجل

ذهبنــــا الى منزلــه فوجـــدنا ماتمـــه

ثم ندخل فى مرحلة أخرى من حيــاة البطــل ، لقد بدأ يحس بتغييرات فى كل أنحاء جسده ، بدأ يهتم بالجنس الآخر ، بدأ يميز بين الوجه الحسن والوجه القبيح ، وتركزت كل رغباته غير المفهومة حول جارة من جيرانهم ، انها كبيرة فى السن ومتزوجة ، لكنه لم يكن يرى غيرها وسكينة خادمتهم ، وفى النهايــة عندما لا يقنع بخيــال الجارة يقنع بسكينة ، انها ليست جميلة لكنها على كل حال فى متناول اليد ، وهو لا يراها كما هى عليه بالفعل ، لكنه يراها بعين خياله ، يراها بطلة من بطــلات القصص الرومانسى الفارسى ، يراها شيرين ويرى نفسه خسرو ، ويراها ليلى ويرى نفسه المجنون ، ويراها زليخا ويرى نفسه يوسف ، ويجدها المؤلف فرصــة ليتفلسف ، لو كان لكل النساء قبح سكينة لانمحى من العــالم ثلثا ما حاق من شــقاء على الأقل ، ويمط المؤلف فى هــذه الفكرة فيأتى بالأمثلة من كتب التاريخ حتى لنكاد ننسى الرواية والبطل والأحداث ، وهذه النقيصة تكاد تكون موجودة فى كل الروايات الفارســية ، ان المؤلف يستطرد ويستعرض ويبسط بساط الفضـــل والثقافــة ويدير الأحــاديث الفلسفية العميقة على ألسنة أبطال حظهم من الثقافة ضئيل أو معدوم ، ميراث فكرى سقط الى الروائى الفارسى من الشعر الفارسى الكلاسى،

حيث كان الشاعر يصر على أن يظهر لممدوحه مدى ما حصله من فنون الثقافة .

ثم يعود بنا الكاتب بعد يأس الى بطلنا ، فاذا بنا معه فى لحظاته المختلسة مع سكينة عندما يخرج والده الى العمل وتخرج والدته فى زيارتها المعتادة الى المقابر ، كانت فى السابعة عشرة فكانت تضمه اليها كما تضم الأم ولدها وتتركه يتحسسها ، وفى هذا العالم المختلس نسى الصبى مأساة طفولته ونسى صديقه تماما ، ولم يعد من ذكرى أحمد ما يؤرقه الا الصانع فى سوق النحاسين الذى ذهب اليه بعد وفاة صديقه يسترد ما دفعا معا فادعى الرجل أنه وهبها جميعا صدقة على روح أحمد ، وهو متأكد أنه لم يفعل .

لم ينم من الصبى جسده فحسب ، بل انه ليحس باستقلاله الفكرى ، لقد بدأ ينظر بعين الزراية الى معتقدات أمه والى أفكار أبيه ، وبينما كان يحاجى أمه كان لايزال خائفا من أبيه ، حتى انمحى ذلك الخوف ذات ليلة ، كانت الحرب العالمية الأولى قد أعلنت ، وأخذ أبوه يشرح لأمه بلهجة العالم الواثق كيف أن غليوم أعلن الحرب شفقة بالمسلمين ، وكيف أنه يضمر اسلامه وسوف يعلنه بعد انتصاره النهائى ، وينكر الصبى ما سمع ، لقد قرأ أن الملوك والسلاطين يعلنون الحروب ويشنونها لمنافعهم الشخصية ، ويندفع الصبى الذى من المفروض أنه مراهق فيلقى خطبة عصماء عن الثورة الفرنسية والجمهورية ، ويهز الوالد رأسه ويصمت ، ثم ينقل أحاديث ولده العجيبة الى أحد أصدقائه ، ويطلب الصديق لقاء الصبى الأعجوبة ويلتقى الصبى بالمقابل الفكرى لسكينة .

لقد كان الرجل من أبطال الحركة الدستورية فى ايران ، وأبوه نفسه يقص عليه أنه كان من رسل الأحرار يوم أن ضرب المجلس

النيابى بالقنابل ، يلتقى الصبى بالشخصية الوحيدة الشريفة البيضاء فى حياته وفى روايتنا هــذه ، ويقف مبهوتا ، مبهوتا من نظافة المنزل ومن الكتب التى تملأ أرجاءه ومن نظافة الشاى الذى قدم له ثم من بشاشة الرجل ولطف حديثه ، ويتهيب الصبى قليلا ، ولا تلبث هيبته أن تزول ، ويشرح له الرجل أسـباب الحرب ، وتتقلب الرواية الى درس فى فلسفة التاريخ فى جزء من أشــد أجزائها املالا ، وفى النهاية يتنبأ الرجل للصبى بمستقبل مرموق ، ويهديه بعض الكتب ، وينصرف الى حال سبيله •

مع هذه الكتب ينسى الصبى حياته الحاضرة ، وينسى سكينة وعالمها ، ان هى الا شىء أرضى يباعد بينه وبين العالم السماوى الراقى الذى فتحه مرشــده الروحى أمام أنظــاره المتعطشة الى كل ما هو طاهر وجميل ، وهكذا أخذ الصبى يقضى سحابة نهاره وجزءا من ليله مع أمهــات الكتب التى بعثت النهضــة الايرانيــة فى أواخر القرن المــاضى : حاجى بابا الأصفهانى ، سياحتنامه مع ابراهيم بك ، ومع أمثال هــذه الكتب تفتحت عينا الصبى على ما فى بلده من فقر وجهل ومرض ، كانت أول كتب غير دراسية تقع فى يده ، وعن طريقها فهم الى أى مدى فاسدة هى ومزيفة ومضللة كتب الدراسة •

ولكن لم يقدر للصبى أن يعيش فى هذا العالم النظيف أطول فترة ممكنة ، لقد فتح عينيه لينظر حوله ، فهاله ما رأى ، كان أول ما رأى سكينة المسكينة ، ان البنت قد تغيرت ، تنفرد بنفسها كثيرا وتبكى ، اختفت البسمة من عينيها ومن وجهها ، وينتهز الفتى فرصة خلو المنزل الا منه ومنها ويفكر فى اصــلاح ما يرى أنه أفســده ، لاشك أنه طاغية صغير أن يترك الفتاة مدلهة فى حبه دون أن يعيد البسمة الى شفتيها ، كان قد فكر وحزم أمره أنه ســوف يتزوج الفتــاة وأنه سوف يستقل بحيــاته ان عــارض أبواه ، لكن البنت

ويا لعجبه تنتهره حين يقترب منها ، يريد أن يتحسس صـــدرها فتنأى به خائفـــة ، ماذا بها ؟ لقد كانت تغريه دائمـــا بأن يتحسس هـــذا الصدر ، انه يحدثها فلا تجيب الا بالبكاء ، يعدها بالزواج فتجيب : ليتنى أتزوج القبر ، وحين يبكى لبكائهـــا تأخذه بين أحضـــانها لكن الفتى يحس كما لو أن الفتاة قد سمنت قليلا وارتفع بطنها .

ويحار الصبى ، لكن حيرته لا تدوم طويلا ، فها هو ذات ليلة يكتشف السر دون أن يقصـــد ، سمع حوارا بين والديه بينما كان بين النوم واليقظة ، ان سكينة حامل وممن ؟ من « شريف الذاكرين » رن الاسم فى أذن الصبى وتمنى لو أن أذنه كذبت عليـــه ، شريف الذاكرين ؟ ذلك الواعظ الذى كان يدخل المنزل ليقرأ سير آل البيت ومناقبهم والتى كانت أمه تراه تمثالا من التقوى والورع ؟ كانت أنفاسه معجزة وكان ريقه دواء ، مستحيل ، ويسمع أمه تحـــاول أن تستنكر النبأ الا أن والده يؤكد لها ربما لا يحتمل الشـــك ، لقد شكت له زوجة « شريف الذاكرين » ، وأنها قادته الى منزل مشبوه أطل من فرجة منه فرأى سكينة فى أحضان شريف ، ما الحل اذن ؟ لا حل الا أن يأتى شريف الذاكرين ويتزوج سكينة ، ولكن والده يرى أن تنفيذ هـــذا الحل من الصعوبة بمكان ، لقد كانت سكينة على علاقة بحسن البقال قبل شريف الذاكرين ، وبين شريف والبقال عداء مستحكم من أجل سكينة ، وبالأمس هدد البقال سكينة بأنها ان تزوجت من غريمـــه سوف يقتلها ويقتله ، وفجع الصبى أشـــد الفجيعة مما سمعه ، لم تكن ليلى ولا شـــيرين ولا زليخا ولم يكن وحده ، بل لم يكن له من نصيب منها الا الفتات ، ومع من ؟ شريف الذاكرين دون سواه ، ألهذا كانت سكينة تخرج كثيرا بدعوى زيارة الأئمـــة والصـــلاة ؟ ألهذا كانت تصوم كثيرا ؟ وانزاحت غمة أخرى من أمام عين الصبى .

ولم يطل الأمر كثيرا ، ذات يوم بينما كان عند الفجر بين النوم

واليقظة ، سمع ضجة وصخبا ، فى الفناء كان هنـاك جسد سكينة الممزق الدامى تغطيه طراحة بيضاء ، قتلها حسن البقـال وبحث عن شريف الذاكرين ليقتله فلم يجده فأسرع الى المسجد وتحصـن حيث لا يناله قانون فى ذلك الزمان ، وفى اليوم التالى شاع أن شريف هو الآخر أسرع الى ضريح الامام فتحصن ، ضم المسجد القاتلين وقتلت الضحية وسقط الصبى مريضا .

لم يكن يسمع فى مرضـه وهو فى هذيان الحمى الا صـوت رفيق طفولته ، يراه فى هذيانه بوجهه الجميل يغنى :

طائر اللقلق محلق فى الفضاء فى قدمه جلاجل

ذهبنـا الى منزلـه فوجـدنا مأتمـه

وأفاق الصبى جسدا مهدما ليصـاب بصـدمته الكبرى التى قضت على عالم طفولته ، لقد بدأت القوات الروسية وقوات القوزاق فى الزحف على طهران لحمايـة محمد شاه قاجار من الأحـرار الذين كانوا يطالبون بالدستور والحـكم النيابى ، ان الروس على مرمى البصر من العاصمة ويوم يصلون ، سوف تسيل الدماء أنهارا ، وها هو والده يغادرهم هاربا بعد أن غادرتهم سكينة ، وها هو يبقى مع أمه وحيدا ، ودموعها لا تنفك تسيل على وجهها ، وها هو المنزل يتحول الى قبر مثل القبور العديدة التى تحيط به ، وذات يوم كان يسـير فى الشارع على غير هدى فرأى جمعا من الناس يتجهون الى مكان ما ، فسار معهم ، كان النـاس يحيطون بفصيلة من جنود القوزاق تسير شاكية السـلاح حول رجل عارى الرأس حافى القدمين مكبل اليدين ، وسرعان ما عرف فيه مرشـده القديم ، وسارت الفصيلة حتى وصلت الى المخفر ، كان الناس يسبون المتهم ، وكان يسـمع ألفاظا من قبيل الخائن والمجرم والعميل ، مستحيل ؟ لكن مرشـده الروحى كان يواجه كل شىء بابتسامة ، يا للغوغاء ، أليس فى سبيلهم

كان الرجل يكافح ؟ وعلى أبواب المخفر وقف قائدهم يسب الرجل ، والرجل صامت وفى النهاية عندما طفح به الكيل رد عليه قائلا :

« ماذا تعنى من هذه الكلمات ؟ افعل ما تستطيع ، وتأكد أنك ما دمت تحمل هــذه الأسلحة فلن يحاسبك أحد ، فليس هنا أحد أصلا يستطيع أن يسائلك فيما بعد ، لم ير أحد حتى الآن أحــدا حسب حسابا للموتى أو خجل من الثاوين فى قبورهم أو خاف منهم ، هؤلاء جميعا موتى ، وهنا مقبرة ، ليس هنا فحسب بل فى أنحــاء وطننــا كله ، مقبرة مشــؤومة لا ينبغى أن يعيش فيهــا الا البوم والضباع ، والآن وأنت فى وسط هذه المقبرة وبين هؤلاء الموتى ، قل كل ما بدالك وافعل كل ما تريد ، اخلع عنهم ملابسهم ، وقل لهم اننى أكسوكم ، ثم اضربهم بالسوط » •

ولم يطق القائد صبرا ، فأمر الفرقــة أن تطلق الرصــاص ، وانطلقت الرصاصات فى قلب الرجل ورأسه ، ودوى أزيزها فى رأس الصبى وأغمى عليه •

لم يكن فى اغمائه يرى الا وجه صــديقه ، ولم يكن يســمع الا صوته يترنم بالأغنية التى كانا يترنمان بها معا :

طائر اللقلاق محلق فى الفضاء فى قدمه جلاجل
ذهبنــا الى منزلــه فوجــدنا مأتمــه

هنا تنتهى الرواية ، ومن أسف أننى لم أعثر على جزئها الثانى ، ولم يعش المؤلف ليكتب جزءها الثالث ، الا أن الكثيرين من بعده كتبوه فى أعمال أخرى •

٢ ــ زيبــا

محمــد حجــازى

ولد محمد حجازى معتمد الدولة سـنة ١٨٩٠ ودرس العلوم السياسية فى باريس ، وارتبط منذ عودته من البعثة بالحياة الادارية تماما ، فراس « هيئة تربية الأفكار » التى اسسها رضا شاه للتوجيه الجماعى لعقل الأمة الايرانية ، كما راس الاذاعة الايرانيـة فترة من الزمن ، ثم شغل مقعدا فى مجلس الشيوخ حتى وفاته ١٩٧٤ .

وهو كاتب تقليدى يميل أسلوبه الى الأخذ بالمدرسة القديمة مع ميل الى الرومانسية الفرنسية المنوهة فى عصـور مرضها مع مزجها ببعض ملامح الشعر الفارسى الكلاسيكى . ولا عمل له يذكر الا هـذه الرواية التى اقدمها ، والتى تتناول الفساد فى ايران من وجهة نظر كاتب عاش فى خضـمه حتى النخاع ، وتعد فى هـذا المجال من أهم ما كتب فى الفارسية المعاصرة بالرغم من تعدد مساوئها الفنية .

كنت قـد عزمت بعد أن قرأت نصف هـذه الرواية الطويلة (٥٣٧ صفحة) أن أكتب لها عنوانا جامعا هو « الفساد الادارى فى

ايران » ولكنى بعد أن أتممتها وجدت أن هـذا العنوان ليس جامعا ، فليس الفساد الذى حاول المؤلف أن يجعل منه الاطار الذى يحيط بروايته فسادا اداريا فحسب ، بل هو فساد سياسى وفساد خلقى وفساد نفسى وفساد ادارى وفساد اجتماعى بحيث يجد القارىء نفسه تائها وحائرا فى تشخيص هـذا الفساد . هل نشأ الفساد السياسى عن الفساد الادارى ؟ أم نشأ عن الفساد الأخلاقى ؟ أم أن كليهما نشأ عن الفساد النفسى ؟ هل أصل الفساد أخلاقى أم ادارى أم نفسى ؟ وذلك لأن الرواية واسعة حافلة بالشخوص والأحداث ألقى فيهـا المؤلف بكل ثقله وتجارب حياته فهى آخر رواية كتبها بعد عدد من الروايات كان أغلب أحداثها يدور فى حجرات النوم ، وكان الكاتب مطعونا فى وطنيته فربمـا أراد بهذه الوثيقـة الطويلة الهامة أن يتتبع أخطبوط الفساد فى ايران ، أو ينفى عن نفسه صفة السلبية التى لصقت به فترة من الزمن أو صفـة الولاء القصر التى لايزال معاصروه حتى بعد وفاته يعيرونه بها ، هـذا وان كان الكاتب لم يستطع أن يتخلص أثناء معالجته لهذا الموضـوع الجاد من الرومانسية الفانتازية التى لونت كل أعماله فجعل منبع الفساد امرأة بغيا تلعب من وراء الستار برجل دين فاسـد سقط فى حبائلها فتحركه كما تريد وتجعل منه أداة لتنفيذ ما تبغى . وهو مندفع أول الأمر بتأثير حبه لها ، ثم مندفع بحكم العادة ، ثم مندفع بتأثير طموحه الذى لا يحد والذى أذكت تلك المرأة أواره ، ثم بحكم جبنه المتأصـل أو مصيره الأسود الذى كان يلقى به نحو الهاوية ، ولست أشك أن الكاتب وهو الذى تلقى دروسه فى فرنسا وأجاد الفرنسية اجـادة تامة قد قرأ ستندال ، بل أؤكد أنه قرأ رواية ستندال « الأحمر والأسود » خاصـة فهناك تشابه عجيب حتى فى أدق التفاصيل بين شخصية بطل روايته وشخصية « جوليان » فى « الأحمر والأسود » .

ولاشك أن قارىء الكتاب سوف يفاجأ بنهاية الرواية كما فوجئت

عند قراءتها لأول مرة ، ذلك أن الراوى وهو بطل الرواية يخبرنا (فى حين أنه يخبر أيضا المدعى العام فالرواية كلها خطاب من متهم سياسى الى المدعى العام) يعلمنا هـذا البطل ـ الشيخ حسين فى بدايتها وحسين خان فى وسطها وحسين قياس الدولة فى نهايتها ـ آنه لم يقل الا قليـلا من كثير ، وأن كل ما قاله ليس الا مقدمة ، ولذلك شـك النقاد أن المؤلف فى سبيله الى تقديم جزء تال للرواية ، لكن المؤلف لم يقدم هذا الجزء ولعله أشفق من أن يتناول فيه أشخاصا لازالوا أحياء أو فى السلطة أو لعله رأى من الخير أن يعيش شيخوخته آمنا فى مجلس الشيوخ ، وأنه ليس من الحكمة أن ينقد عهدا كان واحدا من كبـار عمده وظل مخلصا له حتى النفس الأخير .

يقص البطـل فى البداية طفولته فى قرية « مزينـان » من قرى سبزوار حيث كان يعيش مع والده ووالدته وابنة عمه اليتيمة المسماة عليه « زينب » والطفل يخشى والده الا أنه يراه ينحنى ليقبل يد شيخ الجامع فيقرر أن يكون شيخا ، وبهذه الرغبة يصر اصرارا طفوليا على التعليم فلا يجد والده بدا من موافقتـه على هـذه الرغبـة ، وينسى الطفل عالمـه الطفولى وحكايات والدته عن الجن والشياطين وينغمس بكل حماسـه فى التعليم ، فلا يكتفى بأن يتم تعليمـه الدينى فى القرية وفى سبزوار بل يرحل الى العاصـمة طهران فى طلب العلم بالرغم من الحاح والده عليه بالعودة لادارة أرضـه وزراعتها وللزواج من ابنة عمه فيرسل خطابا مطولا الى والده فى فضـائل العلم والى ابنة عمه فى فضائل الصبر ثم يفتح عينيه على زحام المدينة الكبيرة « فمن السهل جدا فيها ألا ينتبه الانسان الى الآخرين » وفى مدة أسبوع واحد كان قد طاف بكل مدارس طهران واختـار أوسعها وأفخمهـا وبعد لأى استطاع أن يجد حجرة داخل المدرسـة ، ومن المدرسة يتعرف الى تاجر من سبزوار جاء بولده للعلم ، وعن طريق هذا الولد الذى كان

تحت رعاية الشيخ حسين تعرف الشيخ بزيبا التى حددت مصير حياته .

لأن الشيخ حسين كان مشهورا بزهده وتقواه ، أوصاه التاجر خيرا بولده ، وسرعان ما اكتشف الشيخ أن الشاب كثير التغيب عن المدرسة ، وأنه كثيرا ما يغير زيه الدينى بالزى الأوربى ، وأنه يعود من غيابه ورائحة العطر تفوح منه ، كان هذا الشاب على علاقة بزيبا التى زارت الشيخ فى صومعته ذات يوم فقلبت كل مفاهيمه عن الحياة ، كان نادرا ما يفكر فى حياته أو فى فقره المدقع أو فى سحنته الكئيبة ، فدفعته الى أن يقارن نفسه بالشاب المبتسم الأنيق وولدت فى نفسه شعورا بالحسد فنقل كل مخازيه الى والده فقرر أن يحمله معه الى سبزوار ، وعند الوداع يلتقى الشيخ بنفس المرأة أو على حد تعبيره « بنفس العطر » وهى تستحلف الشيخ أن يحول بين حبيبها والسفر وتبكى وتستعطف الا أن بكاءها لا يقابل الا بالسخرية من الحاضرين ، ويسافر الشاب بعد أن تكون بذرة الحسد قد صارت شجرة فى نفس الشيخ الذى عرفنا الكثير عن مضاء عزيمته وطموحه الذى لا يحد ، وتوصله الى ما يريد بكل الوسائل وحسده وحقده ومركبات النقص التى تملأ نفسه ، لقد نسى خطيبته القروية تماما ، وأين هى من تلك المرأة ؟ ان قريته مزينان لم تشم هذا العطر أبدا .

ويتصل حبل المودة بين الشيخ والمرأة فقد أرسلت اليه خادمتها ، انها تريد أن تشكره على تأثره ببكائها وتهدئته لخاطرها ولأن الشيخ لا يريد أن يجلس مع امرأة محرمة فاذا به من أول جلسة يعقد عليها عقد متعة ليحل له الجلوس فحسب ولأن الشيخ كان متحفظا ولأن زيبا أعجبت بقوته وفحولته ولأن المؤلف أيضا كان متعجلا اذا بالشيخ ينهار عند أول كأس ولا يفيق الا فى الصباح وهو فى أحضان زيبا وحين يلوم نفسه لا تجد المرأة من وسيلة الا أن تحمله حملا الى

الفراش ، وعلى هـذا المنوال تمضى أيام وليال وينتهز الشيخ فرصة ما فيسرع عائدا الى مدرسته ولكنه لا يستطيع أن يقضى فيها سحابة نهاره ، أى عالم هـذا ؟ وفى المساء يعود الى محبوبته فقد أحس بأن كل ما فى المدرسة غريب عليه ، ومنذ تلك الليلة نودع الطالب الدينى الشيخ حسين لنبدأ مع حسين جديد ، دون أمل فى أن يكون واعظـا كبيرا يصلى الناس خلفه •

تبدأ حياة الشيخ حسين الادارية بأن زيبـا تدبر له عملا فى وزارة ما تفهم فى آخر الرواية أنها وزارة الداخليـة ، وعن طريق واحد من عشاقها العديدين يطلق عليـه المؤلف هـذا اللقب الساخر « غامض الدولة » وتقدمه الى حسين على أنه ابن عمهـا • ويمضى حسين الى الوزارة ، لكنه يقف فى أروقتها خائفا ، انه خائف من الحـركة ومن الحديث ومن النـاس الذين يراهم رائحين وغادين يحملون الملفـات السميكة فى أيديهم ، خائف من العربات التى تقف على باب الوزارة ويقف الناس صامتين كأنهم فى انتظار صاعقة أو مخلوق نورانى يملأ العالم نورا ولا تسفر العربة فى النهاية الا عن مخلوق كبقية خلق الله من دم ولحم ويلبس قلنسوة وله شارب ويعود الى زيبا كالطفل التائه الذى عاد الى حضن أمه فتخبره أنها أعدت كل شىء وليس عليه الا أن يذهب فى اليوم التـالى الى الوزير ويذهب حسـين ويحسبه الوزير صحفيا فيقدم له المظروف المعتاد ثم يعرف حقيقته ويطرده من الوزارة ويعود خائبا الى زيبا يود أن يحزم ملابسه ويعود الى قريته ويطلب منها أن تصحبه ، فتسخر منه وتذكره بعجزه فى الابتعاد عنهـا ليلة واحدة فيرضخ ، وتعد زيبـا كل شىء ويبدأ لقاؤنا بميرزا حسينخان بدلا من الشيخ حسين ، لقد أصبح موظفا خطيرا يحسب له ألف حساب •

ان ميرزا حسين خان موزع بين أمرين لم يكن له بأحدهما سابق معرفة : انه الآن رئيس قلم الاحصـاء ولا يعلم عن الاحصاء شيئا

الا أنه من حصا يحصو حصوا • وهو خائف ومشفق من عمله الذى لا يعرف عنه شيئا ، وخائف ومشفق أيضا من منافسيه الذين لا يعرفهم، وهو مشفق من الأكاذيب التى يطلقها من عينه وهو أنه متعلم فى أوربا وأنه خير من يصلح لهذا العمل ، وهو تائه ينظر نظر المغشى عليه من الموت الى الأشباح التى تملأ حجرته وتقيسه طولا وعرضا : كأنها تريد أن تخلع عنه ملابسه لترى ما تحتها ، وهو ينظر بعين زائغة الى الخطوط الحمراء والزرقاء التى أتاه بها أحد مرؤوسيه لمراجعتها ، يرى فى هذه الخطوط أيامه السوداء المضطربة ، لكن الأمر لا يلبث أن يسير كما تسير الأمور فى هذا الجزء من العالم ، يجتمع حوله المتنافسون والدساسون والنمامون والمنافقون يثنون عليه ويعيبون على سلفه الذى كان من صفاته كذا وكذا وكيت وكيت ، وهو ينظر بعينيه فيصطفى واحدا منهم لمح فى عينيه الاخلاص ولمح أيضا ما هو أهم وهو المعرفة ببواطن العمل ، يصطفى « برويز خان » وهو لا يعلم أنه اختار منافسا خطيرا له فى قلب زيبا أو فى شهواتها التى لا تنتهى ، وأنه فى الميدان الآخر الذى دخله أيضا دون سابق تجربة لم يعد الفرد الصمد ، بل أصبح آلة تسيرها زيبا فى سبيل حبها لبرويز الذى تطور من رغبة حتى صار حبا عارما قاتلا سيطر على مصائر كل أبطال الرواية حتى زيبا نفسها ، لقد كان برويز هو المقابل الشريف الطاهر لكل أبطال الرواية الجاهلة الملوثة العمياء •

كان برويز يشرح أفكاره فى العمل لحسين خان ، وكان حسين خان يرددها بدوره فى الاجتماعات واللجان وأمام ذوى الأمر والنهى ، وكان فى نفس الوقت يسلب دون قصد منه كل ما فى حياة حسين خان •• كان يسلب زيبا ، ولأن زيبا مدحته أمام حسين خان يتحرك حقده القديم فيقصيه عن العمل ، لكنه يكتشف أن رئيسه الذى عينه ليس ابن عم زيبا بل عشيقها ، كما أن غامض الدولة هذا يعلم أنه ليس ابن خالة زيبا كما ادعت له ، وفى نفس الليلة يتشاجر مع زيبا،

انها تريد ان تتزوجه بعقد نـكاح دائم لا متعـة وهو يتهرب ، وهى ساخطه عليه لانه بدأ يتشاجر مع غامض الدولة على المكشـوف ، ثم تطرده ، وحين يريد أن ينصرف تبكى وتنتهى الليلة بما تنتهى به كل الليـالى •

يستمر حسين خان فى العمل ؛ شهران مرا وهو لم يتقاض مرتبه بعد ، وما يحدث كل يوم يهدد أمره بالافتضـاح ، انه يريد أن يهرب من الهوة التى ألقى بنفسـه فيهـا فمرة يأتى خبير أوربى الى مكتب الوزير فيستدعيه للترجمة ومرة يدعى الى اجتمـاع لرؤساء الادارات فى الوزارة لمناقشة سياستها لكن الله يسـلم ويمضى الاجتمـاع دون كلمة جدية واحدة ويحمـد الله على السـلامة ، ان من مصلحتهم أن يستمر الاجتماع فهو زيادة فى أجورهم ، وهو من شدة خوفه ينسى زيبا ويستعين ببرويز ثانية ، ويفيض برويز فى الحديث عن الفساد وعن جهل رؤسـاء الادارات حتى بات حسـين خان يظن أنه المقصـود • ويذهب حسين باقتراحات برويز الى غامض الدولة لكن غامض الدولة يلومه « انه لم يصبح حصرما فكيف يريد أن يكون زبيبا » •

وفى مكتب الوزارة يسـأله عن زيبـا ، ويتحداه حسـين خان فلا يملك غامض الدولة الا أن يحدثـه عن أصـل زيبـا ، انها بغى أصفهانية ، وهى أصلح لشيخ مثله ، ان تنازل عنها حسين للوزير ، فسوف يزوجه بنت أحد رؤساء الادارات ، ويضم الاحصاء للحسابات ويكون هو الرئيس الكلى لادارة المحاسـبات وبرويز رئيس الاحصاء كل هذا فى سبيل أن يتخلى عن زيبا ؟ يا بلاش •

استطاع حسين خان بهذه الوسيلة أن يؤمن مستقبله أو هـكذا ظن ، لقد وعد الوزير أن يتنازل عنها ، لكنه يعلم رغبتها فى برويز ، اذن فليقرب منها برويز فيستفيد منه فى العمل ويكيد للوزير الذى حرمه منها هـذا بالرغم من أن الوزير نفذ كل ما وعده به ، زوجه من بنت « محرر الديوان » لكن حسين خان رأى الفتاة العذراء غير المجربة

كأسوأ ما يرى انسان أنثاه ، لقد كان يطمع بأن تحمل اليه الجواهر لكنها لم تحمل اليه شيئا مما كان يطمع فيه ، فكان أن هرب منهـا منذ أول ليلة الى أحضـان زيبـا . لكن زيبـا ما كانت لتصفو له ، انها لم تعد تريده ، ولم تعد تريد غامض الدولة الشيخ الذى لا نفع فيه ، ان حسين فى رأيها قروى انتهازى تستطيع كما عينته بغمزة من عينها أن تقصيه بغمزة أخرى ، انها لم تعد تريد سـوى برويز ، انها تلاحقه وتغريه بأنها تستطيع أن توصله كما أوصلت حسين خان مثله الأعلى ، ان حسين خان يعلم فلا يثور على زيبـا بل يثور على برويز يقول : « كان أول ما أحسست به أن أضرب برويز لكمتين على رأسه وأقول له : أيها الأحمق الذى لا عقل له وهل يهرب انسان من حظه ؟ اذن بأية وسيلة تريد أن تصعد سلم الترقى ولا ظهر لك ولا مال ؟ لمـاذا ترد اليد التى امتدت اليك من عالم الغيب بدلا من أن تقبلها » ؟ ان زيبـا تريد من حسين خان المقابل : عليه أن يحمـل برويز اليهـا حملا ، وحسين خان فى صراع مع نفسه تهيب به رجولته التى ديست فى شوارع طهران أن يتخلص من اسار زيبـا ، لكن أنى له هـذا ؟ لقد أصبح لا يطيق النظر فى وجه زوجته تلك التى داس فى سـبيل الزواج منها على كل حذره فارتشى علنا ، لم يبق له الا زيبـا ، انهـا حقيقة نار لكنها لا تحرق لأنه يحبها ، انه يذهب اليها فيجدها فى أحضان غامض الدولة فيتشاجران ويسقطان معا فى حوض المـاء .

ولا يسفر غامض الدولة عن رغبته فى الانتقام فى اليوم التالى ، انه يخبر حسين خان أن الوزارة فى سبيلها الى السقوط ، وأن عليهما أن يتعاونا معا ، لكنه يريد أن يلعب بنفس اللعبة « برويز » فى حين أن زيبـا قد استولت عليه على أنهـا أرملة غنيـة تمد يد المساعـدة له ولأسرته ، وهى تخدع ميرزا حسـين خان وتلعب معه لعبة التائبـة وتستنزف نقوده لتسلمها الى برويز ، وحسين لا يجد بدا من الارتشاء لكى يساعد زيبـا على التوبة ، ويعود بغنائمه الى زيبـا فتتلقاها منه

وهى تذرف دموع التوبة ، وحسين خان يستمرىء المنصب ، انه يفكر فى وسيلة يستند عليها ، فيشير عليه بعضهم أن ينضم الى حزب من الأحزاب العديدة ليحتمى به ، وها هو حائر أمام احد الذين يسيطرون على الأحزاب قاطبة ويحركونها بأيديهم ، اننا نسمع من هذا الوسيط فلسفة الأحزاب فى ايران « ولعله كان رأى حجازى أيضا الذى هلل فيما بعد لالغاء الأحزاب » : « ليس المقصود من الاعتدال أن يسير الناس الهوينى مثل الشيوخ الذين يستندون على عصيهم ، وليس المقصود من الديموقراطية أو الثورة أن يكونوا كالشعلة المحرقة ، ان المعتدلين والديموقراطيين اسمان لفرقتين مختلفتى المصالح ، وما أكثر المعتدلين الذين هم أكثر اندفاعا من الثوريين ، وما أكثر الديموقراطيين الذين يتحولون عند اللزوم الى معتدلين ، والمعتدلين الذين يسمون أنفسهم ديموقراطيين ، ان معظم المجاهدين والثوريين معتدلون ، ومئات من الأعيان قد صاروا ديموقراطيين لحفظ مصالحهم والوصول الى مناصب عالية » •

استكمل حسين خان اذن كل شروط اللعبة ، لقد بدأ بمعاونة غامض الدولة • ينهب ما شاء له النهب ، ويرتشى كلما سنحت الفرصة، ويغير جلده كلما شاءت الظروف : « وتعلمت ضحكة مصطنعة من اختلاطى بالأعيان ، كنت أغطى بهذه الضحكة كلامهم الفارغ أو أحاديثى التى لا طعم لها ، وحينما لا أعرف ما أقول أضحك ، وأحيانا وأنا أنصت الى من هم أكبر منى أرد بهذه الضحكة اذا ضحكوا ولو كان الأمر لا يتعلق بى » وسرعان ما أضاف حسين خان الى ميزاته العديدة حبه للقمار وذلك خشية أن يقال عنه انه قروى يخاف على نقوده وربما واتاه الحظ وحصل على المبلغ الذى يؤمن حياته مع زيبا بعيدا عن تقلبات الزمن •

ان حسين خان لا يخاف الا من غامض الدولة وهو يستعين عليه

بميرزا باقر خان أحد رؤساء احدى الجمعيات السرية فى ايران ولا أدرى ما هى الفئة التى لم يسىء اليها المؤلف فى روايته هـذه ، ولماذا اختار اسم ميرزا باقر بالذات وربما كان يريد أن يسىء الى ذكرى باقر خان العظيم أحد قواد تبريز فى الحركة الدستورية ، لقد قدم صورة ميرزا باقر كأحد زعماء عصابة المافيا ، انه يأخذ من الخصوم ليحميهم من بعض ، ويهدد بالقتل لأدنى سبب وآتفهه وها هو حسين خان يصف نفسه فى تلك الفترة قائلا : « لم يكن دائى واحدا أو اثنين بل كان كثيرا : حب الرياسة وبلاء السياسة والتعلق بالمال والجاه وحب النفس والانخداع بمخالطة الأغنياء وقلق الحب والشهوة وجنون القمار ، كل هذه الأشياء تجمعت حولى ككلاب حول جيفة ، وكل منها أخذت من وجودى جزءا ، أخذت تلعق فيه على حدة • أما الخوف من الله وسائر الملكات الطيبة فقد أصبحت كالأقرباء الذين يرون طفلهم غريقا فى اليم وهم على الشاطىء لا يملكون الا الصياح والعويل » •

وكل ما يتمناه حسين خان أن تسقط الوزارة حتى يستطيع أن يطلق امرأته دون أن يتعرض للأذى •

وبينما كان مشغولا فى هذه الأمور كانت زيبا قد أعدت كل أمورها للزواج من برويز • ويعلم حسين خان عن طريق امرأة محجبة أخبرته بكل شيء بالتفصيل « وهـذا الأمر الشبيه بشخصية الدلالة يتكرر كثيرا فى الرواية » ويواجه زيبا فلا تنكر بل تتحداه قائلة : « أنا التى جعلتك رجلا ، لقد أعطيتك مفتاح الأمور ولو أعطيتنى عشرة أضعاف ما أعطيت لما وفيت جمائلى » ان حسين خان يعد زيبا بألا يقف فى طريقها لكنه يخبر برويز بل يود أن يرسله فى مهمة الى الجنوب ، الا أن التقرير يكتب وبدلا من أن يوقع غامض الدولة على ايفاد برويز ينتقم من حسين خان بأن يوفد موظفا آخر • ويصر برويز على اتمام الزواج ، فلا يجد حسين خان بدا من أن يدبر جلسة

أفيونية مع زيبا ويرسل في طلب برويز ليرى بعيني رأسه ما حاول أن يلمح له به أو يصرح فلا يصدق •

ينتهي حسين خان من برويز الذى أفاق من سذاجته فاقدا لكل شيء ، مهددا بقتل زيبا وحسين وغامض الدولة « وكل هـذا العالم القذر الذى يعيش فيه » ، وغامض الدولة يلمح لحسين خان بالفصل وزيبا مريضة في فراشها لا تطيق رؤية أحد وبرويز يقرر في خطة عصماء أنه سوف يرحل الى تبريز ويستهن البقالة « فهى أشرف ألف مرة من العمل الحكومى » ان حسين خان يسخر من امتهان برويز للبقالة لكن زيبا ترد عليه قائلة : « أليس البقال بأفضل من الخادم ؟ ويرد عليها : أليس من سوء الجزاء في الدنيا أن يرتبط بك شخص مثل برويز ؟ وترد : أجل من الظلم أن يكون زوجى برويز ، أن زوجى يجب أن يكون أنت ، لن أتركك أبدا ، ينبغى أن أنتقم منك ، ينبغى أن أدفعك الى سرقة مائة ألف تومان أنفقها في محلات لاله زار ، وبعد عمر من اللصوصية والخيانة تكون محتاجا لعشائك ، سوف أوصلك الى مناصب عالية ، وأمهد أمامك أسباب السرقة ، وأجر عليك من الوبال ما يجعلك تندم على أعمالك في اليوم ألف مرة » ولا يجيب حسين خان الا بقوله : « كونى معى وافعلى ما شئت » •

ويستمر الأمر على هـذا المنوال شهرين ، وتسقط الوزارة . ويسقط معها حسين ، وتفر زيبا مع أحد زعماء قبائل اللور الى همدان ، ويفر حسين الى قريته مزينان ليجد والده قد مات وأمه جنت وزينب هربت الى حيث لا يعلم أحد ، فلا يجد بدا من العودة الى طهران مع أمه وزينب التى قابلتهم في الطريق وهى تحترف التسول وفوق ذلك حامل ، انه يعود ليجد زيبا وزوجته تقيمان في نفس المنزل ، وحين يسأل : هل بقى شيء من النقود التى تركها ؟ ترد زيبا : لا يا عزيزى انا ننفق من أتعاب الليالى التى أقضيها بلا نوم ، لا تخجل • وينتهى القسم الأول من الرواية •

نحن فى القسم الثانى مع حسين فلا هو ميرزا ، ولم يعد حتى شيخا ، انه يقيم مع هذا العدد من النسوة ، لكنه لم يعد حسين الساذج الذى قدم الى طهران لأول مرة ، انه لا يفكر الا فى نفسه وزيبا لا تفكر الا فى استغلاله لسرقة أموال عشيقها الأخير سالار مهيب لرستانى ، لقد ضاقت بقسوته وبخله وادعت أنها زوجة حسين خان « قياس الدولة » ولا ندرى من أى جب أخرجت هذا اللقب ، وأنها سوف تعود الى طهران فتطلق لكى تتزوجه ويودعها باكيا خاصة بعد أن تعففت عن جوهرة صغيرة أراد أن يهديها لها .

ويذهب حسين الى الوزارة ، ويقدم نفسه الى خلفه على أنه حسين قياس الدولة الذى كان غائبا عن طهران لادارة أملاكه ، لكن حسين يطرد من الوزارة شر طردة ، ويعود فيلتقى بميرزا باقر ، ويخبره ميرزا باقر بأيسر الطرق للحصول على اللقب وهو أن يدعى أنه مجاهد « أى عضو فى احدى الجمعيات السرية » ، وأن يدبر مبلغا من المال ليشترى به اللقب ، ولا يلبث أن ينفذ ما يريد ، ويحق لنا من الآن أن نسميه « حسين خان قياس الدولة » .

عرف حسين قياس الدولة أن الطريق أمام المجاهدين مفروش بالورود ، فلا مندوحة اذن من الانضمام الى احدى هذه الجمعيات العديدة التى تملأ طهران والتى تسيطر على الحكومات مهما كان اتجاهها . ويقوده ميرزا باقر مغمض العينين الى حيث يجتمع المجاهدون، ويصاب حسين خان بالرعب عندما يلمس سلاحا لأول مرة ، الا أن المعلومات التى ينقلها اليه ميرزا باقر تقوى من عزيمته ، ان منافسه فى الوزارة يعد قائمة بالاتهامات التى سوف توجه اليه عندما يقدم الى المحاكمة .

ويزج بنا المؤلف فى أوساط الجمعيات السرية ، ونفهم لأول مرة أن الرواية تدور زمن الانقلاب الدستورى ، حيث كان جنود القوزاق

يدقون شوارع طهران حماية للشاه القاجارى من الدستوريين • ولست أجد كاتبا ايرانيـا معاصرا شوه صورة المجاهدين كما فعل حجازى ، وكان بينهم وبينه ثأر ، انهم جميعا غلاظ شـداد يتحدثون الفارسـية بلهجة آدرية ، « ولعل هـذا بالفعل كان الجزاء الذى تستحقه تبريز ودورها العظيم فى الحركة الدستورية من المؤلف » وكلهم لا يتورعون عن أى شىء فى سبيل مطامحهم الشخصـية ، وكلهم يفرضون الاتاوات على الأغنياء بدعوى أنهم من أعداء الدستور ، وكلهم يخدعون السذج فيسرقون أموالهم وأعراضهم « أهكذا كانت بالفعل صـورة هؤلاء الذين تصـدوا لقوات روسيا القيصرية فى شوارع طهران وضربوا أروع نماذج التضحية والفداء ؟ ! »

وينفرط هذا الجزء من يد المؤلف ، ويريد أن يصور لنا كيف أراد حسين خان بمعونة المجاهدين أن يسرق الملف الذى يعد فيه أبو القاسم خان اتهاماته ، فيخترع أحداثا وهمية لا تحدث الا فى القصص الشعبى من مطاردات الى دخول المنازل تنكرا الى قصص حب وهميـة بين حسين خان وزوجة أبى القاسم هـذا ، الى لقاءات مفتعلة بين زيبـا وزوجـة أبى القاسـم خان ، الى مغامرات للمجاهـدين لا تقل عن مغامرات قطاع الطرق وعصابات المـافيا « وسمك عيار » ، الى طمع المجاهدين وميرزا باقر فى زيبـا واشتراكه فى المؤامرة التى تعد لسرقة أموال اللورى ويستطرد الكاتب وينسى أحيانا ما يتحدث عنه ويخلط بين الأسماء والأحداث حتى ليفكر القارىء بأن يترك الرواية وشأنها ويريح رأسه •

ولا يكفى الكاتب الطين الذى ألقاه على رؤوس المجاهدين فنراه يتناول الصحافـة الدسـتورية بشىء من الهجوم ويروى لنا كيف أن جماعـة ميرزا باقر فكرت فى اصـدار صحيفـة وتلتقى برجـل دين « آخوند » اسمه قديم السادات الذى يصوره فى صـورة شيطانية

قاصدا بالطبع أن يلقى ببعض طينه على الجناح الآخر القوى فى الحركة الدستورية وهو الجناح الدينى ، فقديم السادات يخدع شابا متهورا ويسلب نقوده ويتزوج أمه ، وحسين خان يستغل الصحيفة فى سلب الأموال من الناس لكى يحارب الخونـــة وأعداء الدستور ، ويعقد ميرزا خان اجتماعا فى منزله يدعو اليه الوطنيين ويقف خطيبا ، كمـــا يقف قديم السادات خطيبا ، وكذلك ميرزا باقر خطيبا وكلهم يتحدثون عن الاســـلام الذى ضاع والوطن الذى هو فى خطر والدور العظيم الذى سوف تلعبه المجلة المرتقبة فى اصـــلاح كل هذه الأوضـــاع ، وتنهال التبرعات .

خلال كل هذه الأحداث لم ينس ميرزا باقر رغبته فى زيبـــا : وها هو ميرزا حسين يرى نفسه محاطا بالأعداء من كل جانب : ميرزا باقر وأبو القاسم خان الذى يعد ملف الاتهامات الذى لم يستطع ميرزا حسين الحصـــول عليه قط ، رجل البوليس نايب رمضـــان الذى كلفه باسترداد الملف فأصبح سيفا مسلطا على عنقه ، زوجته التى لم يستطع طلاقها ، أمه المجنونة ، زينب المدمرة تماما ، وفوق ذلك كله زيبـــا . وبخطـــة نفذها أوقع بين باقر وميرزا أبى القاســـم وكان هـــذا يوم عاشـــوراء ، ولا ينسى الكـــاتب أن يصف لنا الاحتفـــالات فى عـــدة صفحات .

وتثنى زيبـــا على تدبير ميرزا حسين لكنه مع ذلك خائف من انتقام ميرزا باقر ، انه يفكر فلا يجد وسيلة الا الانتحار ، لكن المجاهد الكبير يخشى من اطـــلاق الرصـــاص على نفسه ، فيتجه تفكيره الى الأفيون ، ويلتقى عند بائع الأفيون بالصحفى الثورى قديم السادات وهو يشترى حصته اليومية . ويجتمعان ويقص قديم السادات عليـــه أسلوب استغلاله للشاب « مصطفى خان » الذى سوف تدار الجريدة من منزله وسوف يوقع كل ما يشتم منه الخطر . أما الهدف فهو اقصاء

وزير الداخلية وعلى ميرزا حسين أن يدفع وفى جواهر سالار المرتفبة وأموال والدة مصطفى خان التى يخطط قديم السادات للزواج منهـا خير العوض ٠

وطرأ تطور خطير آخر على ميرزا حسين ، انه لم يعد يحب زينا ، انها أمامه كالقدر المحتوم ، انها وسيلته الى استعادة نفوذه ، ان حبه الحقيقى أصبح لزوجته مريم ، ان وفاءها يعذبه ، أما زينب فقد أتت بطفل الى الدنيا لا يعرف له أبا وهو يتمنى لها الموت ، الا أنه يضطر للعقد عليها ، ولكن كيف يرى وجه السعادة ؟ باقر وأبو القاسم اتفقا عليه ، والمحكمة ترسل له الاخطار تلو الاخطـار وزينـا تخبر حامل الاخطار أنه فى خراسان وسيعود بعد عشرين يوما ، اذن أمامه عشرون يوما فقط ٠

وصدر العدد الأول من الجريدة ، لكن الضحية كان مصطفى ، لقد جاء اليه استدعاء من وزارة الداخليـة : اما أن يثبت ما كتب واما أن يسجن ٠ ويتجمع المجـاهدون حول مجلس أفيون ، وتدور مناقشات سياسية جديرة بالفعل بمجلس أفيون ، وتثور أم مصطفى ، ولكن ولدها يثور عليها فهى لا تفهم شيئا ولابد لشعلة الحرية أن تخرج أول ما تخرج من منزله ، ويتفق المجاهدون على مهاجمة وزير الداخلية نفسه ، وفى ابنته المتفرنجة ، وتنتشر المقالات انتشار النار فى الهشيم ، وتؤلف الأغـانى الشعبية حول ابنة وزير الداخلية التى يفيض بهـا الكيل فتنتحر ٠ وبانتحار الفتاة يبدأ كل مجاهد فى تنفيذ ما اعتزم عليه حسين خان يكون جمعيـة من المجاهدين لحمايته من أنصـار باقر ، قديم السادات يحرك الأطماع فى قلب أم مصطفى ويتزوجها ، انها وهى المتزوجة مكرهة كما تدعى تضـع رقية لزوجهـا ليلة زفافه ، الا أن الرقية ترسل به الى سقر ، ذلك لأنها كانت مخلوطة بسم الفئران دون أن تدرى ٠

وتفتح وفاة قديم السادات أمام ميرزا حسين الخائف أبواب المجد ، اختفت كل العيوب الشيطانية لقديم السادات وحلت محلها محاسن الانسان المجاهد الذى ضحى بروحه فى سبيل مبادئه السياسية . انه يعلن أن قديم السادات ضحى بنفسه فى سبيل الأمة والدستور وأنه مات مسموما على يد أعدائه ، ان الذى قتل قديم السادات هو وزير الداخلية ، ويخطب ميرزا حسين والجثة فى الداخل تكاد تتعفن ويخطب والجنازة تسير ، وقد أحس أن فى حلقه مائة لسان كلما تعب لسان قام آخر ، وها هو مصطفى المسكين يجمع عددا من الشباب ويقسم فى الجنازة على الانتقام لقديم السادات وترتفع الهتافات « عاش قياس الدولة » ويعلن أمام الناس أنه سوف يقدم استجوابا لرئيس الوزراء ، ويقضى الليل مع جماعته فى التخطيط للانقلاب المنتظر .

ان حسين ميرزا قياس الدولة ليكاد يجن ، فالناس يقدمون له الأموال جزافا لانفاقها فى سبيل الحرية ، وأعداؤه يختفون الواحد بعد الآخر أمام هذا الاقبال العظيم ، ومعظم أعضاء جمعية باقر ميرزا يزون فيه الوطنى العظيم وينضمون اليه ، وبابه يدق بليل ليدخل مندوبو السفراء والعظماء يقدمون اليه الأموال ويخطبون وده وهو يلتقى برئيس الوزراء « لم يصف المؤلف ذلك بالتفصيل بل أرجأه الى الجزء التالى الذى لم يصدر » وبنواب الأمة . ويكون حسين خان حزب الأمة ، ويعد اللقاءات فى الميادين العامة ، ويتحلق حوله العاطلون، هل فكر حسين خان اذن أن يتخلص من زيبا ؟ أبدا ، كان يدرك أن الناس سوف ينفضون من حوله فجأة كما حدث أن اجتمعوا حوله فجأة ، ثم ان مجوهرات سالار مهيب لاتزال تداعب آماله .

صار ميرزا حسين خان نافد الصبر من حديثه الينا « أو الى المدعى العام » لقد صار بالفعل نافذ الأمر تتخاطفه الوزارات وكيلا

لها ، الا أنه كان يؤثر البعد عنها جميعا مكتفيا بنفوذه السرى على كل الوزارات ، لقد صار ميرزا حسين خان قياس الدولة مشغولا لا يعود الى المنزل الا فى المساء ، أما زيبا فكانت لاتزال مشغولة بأمر مجوهراتها ، وفى جزء طويل لا داعى له يخبرنا كيف فشلت فى الظفر بالجواهر ، وكيف أن رجال سالار حملوا مريم « زوجة حسين » معهم الى ديارهم ورحلوا • وهكذا تجن زيبا ، وتهتف باسم حبيبها ، ولا يجد حسين الذى كان يأمل فى حياة طيبة مع زوجته بدا من احتراف السياسة •

وبالرغم من هذا النجاح لم يكن ميرزا حسين سعيدا ، لقد اختفى أعداؤه ، وحصل على ملف اتهاماته وأحرقه بيده ، الا أنه ليس سعيدا ، ليس سعيدا لأنه سقط فى غل السياسة وأسرها ، انه يقول ولعله يعبر عن حجازى لا ميرزا حسين : « ذلك الذى جربته بنفسى أن السياسة تمنع عن الانسان التمتع بالعلم والفن والاحساس بالجمال ، انها تحد من أفق التفكير وسعة النظر ، وتذرو مع الرياح كل أمل فى الصداقة والطيبة والعدل وهى أصول الحياة ، وتملأ الدنيا بأسرها بالمكر والخداع ، وطاهر القلب حين يعمل بالسياسة يفسد قلبه ويضطرب ، ولكن ماذا كان ينبغى أن أفعل ، لقد كان قدرى أن أرتبط بالسياسة عمرى ، ولا أرى وجه السعادة » •

***

هذه هى رواية ميرزا حسين خان الذى اختار لها مؤلفها عنوان « زيبا » جريا على عادته فى اختيار أسماء النساء عناوين لأعماله واذا سألنا أنفسنا : لخدمة أى من الأهداف ولماذا صور محمد حجازى وثبة الشعب الايرانى هذا التصوير المزرى ؟ لا ندرى ، ان أغلب الأمم يبحث كتابها عن النقاط القليلة الضوء فى تاريخهم ويصورونها على أتم وجه ، اللهم الا اذا بليت بمن تكون له مصلحة

فى جر فترة ما الى زوايا النسيان حينذاك تكون الأعمال التى تشبه زيبـا حجازى ذات نفع لهم ، هناك حكام يحبون دائما ايهام شعوبهم أن التاريخ يبدأ بهم وأن كل ما قبلهم عبث وخواء ، ان التاريخ الحقيقى لفترة الدستور فى ايران حافل بالمثل العليا للتضحية والفداء ، وهو عصر نهضـة حقيقية فى الأدب والشعر والصحافة والخطابة ، وقـدم نماذج من الرجال أروع من أية صـورة تصورها رواية حتى وان كان هدفها المدح ، ولم يكن الهدف الذى قصـد اليه حجازى من تصوير فترة الحركة الدستورية فى ايران هذا التصوير المزرى .

انا مهما جاهـدنا لنجد فى الرواية شخصـية واحـدة تستحق الاحترام لا تجد ، وكأن الكاتب عمد الى تقديم كل ما هو مشوه وغليظ ونابى ، وكل شخصـيات الرواية باستثناء حسين خان وزيبـا ولدت كما هى لم نشهد لها أى نوع من التطور خـلال هـذه السـنوات الطويلة التى تعبر عنها الرواية ، والشخصيات التى يحاول أن يقدمها مثلا للطهر والاخلاص يقدمها فى الوقت نفسه مثلا للسذاجة والحمق « برويز ومصطفى » .

وبعض الحوادث لا تقل حـالة عن الشخصـيات ، منهـا تلك المطاردات التى تدور بالجملة فى شـوارع طهران والشخصيات التى تظهر لتؤدى مشهدا واحدا ثم تختفى كشخصـيات ألف ليلة وليلة ، وما يدور وراء الجدران والبراقع أسوأ مما يمكن أن يصدقه عقل ، وكثير من الأحداث فى الرواية لم يخدم خط سيرها ، بل أسـاء الى وحدتها اساءة بالغة وجعل الرواية فى هـذا الحجم مع أن المفروض أنها تكتب من الذاكرة ومن سجين للمدعى العام ، فكيف للراوى بهذه الذاكرة الحديـدية التى لا تزال تتذكر الحوار الطويـل والخطب العصـماء ودروس الفلسفـة والحضـارة المنقولة نقـلا من الكتب والمراجـع ؟

ولا يقل عن ذلك اساءة الى بناء الرواية تلك اللغة الفخمة الجزلة التى كتبت فيها . فلغــة الذى تعلم فى المدارس الدينيــة هى هى لغة السوقى والوزير والمرأة التى لم تخرج من منزلها والطهرانى والريفى والخراسانى والذى ينتسب الى عشائر اللور ، وهلم جرا .

ومع ذلك تبقى القيمة الحقيقية للرواية فى أنها قدمت جانبا كبيرا من الحياة الادارية فى ايران كما قدمت صورة عامة للحالة السياسية فى ايران فى الربع الأول من القرن الحــالى على لسان انسان عاش فى خضمها وخبرها عن قرب وان خانته الأمانة فى كثير من المواضــع وهــذه رؤيته الفنية على كل حــال ، وتبقى بعض الصفحات القليلة الخالدة التى يصف فيها الحياة داخل الادارات الحــكومية ، والتى يصف فيها كيف تتجمع مظاهرة وكيف تنفض .

ولقد حاول المؤلف فى بناء الرواية أن يستفيد من مدارس الرواية الحديثة ولكنه لم يكن موفقا فى صنعة التركيز النفسى ، وحــاول أن يثير بعض الرموز عن طريق صنعة الأحــلام ، الا أنها كانت مصطنعة واضحة الاصـطناع وهو فى روايته الابن المخلص للمدرسة الرومانسية الفرنسية ، كل أبطاله مهمــا كانت طموحاتهم يتعذبون من الحب ، وكلهم يسقطون صرعى ومرضى عند أول مشــكلة تصادفهم ، وكل شيوخه فاسقون ، وكل نسائه مستعدات للخيانة بشرط ألا يكتشف أمرهن وهــذا التعميم فى سمات الشخصية يصدق على كل أبطاله .

أكان من الممكن بالفعل أن يقدم المؤلف جزءا ثانيا ؟ أشك فى ذلك ، بهذه الروح التى شرح بها العهد الدستورى على عظمته لايمكن أن يشرح العهد التالى والا انطبق عليه المثل الفــارسى « أكل الملح وكسر المملحة » ، ولم يكن كسر المملحة فى ذلك العهد بالذى تؤمن عواقبــه .

٣ ــ دار المجانين

سيد محمد على جمالزاده

ولد سيد محمد على جمالزاده فى أواخر القرن الماضى ، وكان والده سيد جمال الدين الأصفهانى واحدا من أبطال الحركة الدستورية ، ومات مسموما فى السجن وبدا جمالزاده كفاحه السياسى منذ مستهل شبابه حيث اشترك مع القوميين الايرانيين فى برلين اثناء الحرب الأولى وبعدها ، كما اشترك فى اصدار الجريدة القومية « كاوه » فى برلين ، وارتبط بالمانيا معظم حياته ، ولم يعد الى ايران الا لماما وزائرا . وكان آخر منصب شغله هو رئيس منظمة العمل الدولية وأستاذ الأدب الفارسى فى جامعة جنيف ، ولايزال يعيش فى جنيف يمد المجلات الأدبية الايرانية بمقالاته الأدبية ودراساته العديدة .

فجر محمد على جمالزاده ثورة فى كتابة القصة باصداره مجموعة « كان يا ما كان » سنة ١٩٢١ فاستعمل الصياغة الأوربية واللغة العامية الفارسية ، واضطرته الضجة التى احدثتها الى الصمت عشرين عاما . ولما عاد الى الكتابة كان مزيجا من الروائى القصاص والدارس الأدبى ، وكان يود لو يمد جسرا بين ماضى ايران الأدبى وحاضرها .

ومنذ عاود الكتابة اصدر عددا من الروايات هى : دار

المجانين ١٩٤٢ ، وقلتنسن دبوان ١٩٤٦ وصحراء القيامة ١٩٤٧ وكتاب مجرى الماء ١٩٤٨ ، وكل شيء عن منال ١٩٥٦ ، وعددا من المجموعات القصصية القصيرة : سيرة العم حسين ١٩٤٢ والمر والحلو ١٩٥٦ ، والقديم والجديد ١٩٥٩ ولا اله الا الله ١٩٦٠ .

وله دراسات عديدة يضيق المجال عن ذكرها ، وفى رواياته واعماله القصصية كما سنرى يخلط بين الروائى والدارس ، وبين النثر والشعر ، وبالرغم من انه عاش طيلة حياته بعيدا عن ايران فان لغته سلسة سهلة حافلة بالمصطلحات العامية . وهو ايضا واضع قاموس رائد للمصطلحات الشعبيه الايرانيــة .

***

كيف يستطيع الانسان الحياة فى مجتمع هذا شأنه ؟ من فساد ادارى الى ضغط سـياسى الى ارهاب فكرى ؟ يجيب المؤلف على هذا السؤال فى هذه الرواية . حقيقة أن المؤلف لم يذكر كلمــة واحدة من هذه الكلمات ، لكنه مع ذلك أشار اليها فى ثنايا روايته مما لا يترك مجالا للشك ، لقد جعل العالم دارا كبيرة للمجانين تضم بين جدرانها مجانين من كل صنف : مجانين الاضطهاد ومجــانين الحساسية المفرطة ، ومجانين الخيال العقيم الذى يصطدم بالواقع المر ومجــانين الثقافة . ولولا أن للرواية بطلا جامعا يقص الرواية على لسانه لا نفرط عقدها ، ولقلنا انها مجموعة من الصــور المتحركة التى لا يجمعها الا هذا البطل الذى يربط بين مصــائر أبطـالها . ومــع ذلك فان هــذا البطــل الذى يمسك بكل خيوط الرواية ، والذى يتحدث بلسان المؤلف هو الذى أبعد الروايــة عن الجو التقليدى ، فهو يتحــدث فيستفيض فى الحديث ، ويحلل فيشطح فى التحليــل . وقد جعــل جمالزاده معظم أبطاله مثقفين فصار فى حل من أن يذكر على ألسنتهم مدارس التحليل النفسى المختلفة والفلسفات والأشــعار الصــوفية الفارسية المتنوعة ، وأصاب أبطاله غير المثقفين بالخرس ، فلم ينطقوا بحرف واحد طوال الرواية ، وانما ظلوا مجــال تحليل وتعليق من جانب الأبطال المثقفين طوال الرواية .

وبالرغم من ذلك فان الروايـة جديرة بالتقديم وذلك لروحهـا المرحة الفكهـة التى لا تخفى على القارىء بالرغم من جوهـا القاتم الشديد السواد الذى يشد الدمعة من العيون . فقد برع جمالزاده فى أن يقدم سخرية سـوداء يحس الانسان من خلال ضحكاته بما يشبه وخز الابر ، وهى جديرة بالتقديم لأنها تقدم جمالزاده الذى عاش طوال حياته فى شد وجذب بين الروائى والدارس فلا يحس الانسان فى روايته بروح الروائى الصرف أو الدارس الصرف ، ويرى بعضهم أن جمالزاده انما فعل ذلك لأنه كان يريد أن يقدم الأدب الفارسى القديم فى صورة عصرية ناسين أن جمالزاده عاش معظم حياته فى بيئة أدب ألمـانى ، وأن توماس مان وهيرمان هسه كانا يقيمان كل رواياتهما على دراسات أو ما يشبه الدراسـات ، ولكتابات جمالزاده هـذه الحسنة وهى أنه يعيد الى الأذهان ذكرى أدباء الفرس العظـام حافظ والمولوى وسعدى .

وبالرغم من أن جمالزاده عاش كل حياته خارج ايران الا أنه فى كتاباته يمثل الشخصـية الايرانية خير تمثيـل فهو مرح فكه ساخر تساعده لغة شديدة الغنى بالمصطلحات الساخرة والتعبيرات الأدبيـة الرائعة فاستطاع من خلال استعمالها أن يوفق بين القـديم والجديد فبينما نلتقى مع بيت لسعدى أو حافظ نعود فنلتقى بتعبير مأخوذ من لغة العوام نقف أمامه طويلا ، ثم نضطر فى النهاية الى استعمال قاموسه الذى خصصه للمصطلحات العامية .

هناك ميزة أخرى لجمالزاده وهى أن ايران التى يصفها ليست ايران كما هى موجودة حاليا بل هى ايران بواكير القرن العشرين عندما تركهـا ، ولذلك فهو فى رأى : كاتب يعيش وراء عصره ، كمـا أن جمالزاده يتميز بميزة أخرى قليلا ما نصادفها فى غيره من الأدباء وهى أنه من ذلك الصنف من الكتـاب الذى يستطيع أن يرفع الحـائط

الوهمى بينه وبين القارىء ، فاذا به يحس أنه يجلس الى أحد يقص عليه فى سهولة ويسر ، فى مقهى أو فى منتدى أو عن طريق خطابات متبادلة .

***

هناك مقدمة للرواية وهذه المقدمة من خصائص الرواية الفارسية المعاصرة ، ربما لأن الكاتب يريد أن يوحى بجو من الواقعيـــة على أساس أن الكتاب الفرس فهموا الواقعية على أنها الشىء الذى وقـــع أو حدث بالفعل . فاذا الكاتب فى زيارة لطهران يجلس فى سوق صناع الصفيح مع أحد أصدقاء والده ، وتأتى امرأة عجوز تعرض بعض الكتب للبيع (ومعظم مكتبات طهران القديمة تقع فى هـــذا السوق) وحين يشترى منها الكاتب بعض الكتب ولا تجد نقودا صغيرة تعطيه بقية حسابه تعطيه بعض الأوراق ، وتمر السنون ويفتح الكاتب هذه الأوراق فاذا بها مكتوبة بخط اليد فيقرأها ولا يريد أن يحرم الآخرين من هذا الكنز وتبدأ الرواية .

تبدأ فى الجزء الأول من دار المجــانين الذى يقصــه البطل على لسانه ، ويريد المؤلف فى البداية أن يزج بنا فى تيار الحيــاة الواســع بعيدا عن دار المجانين لنجد أن لكل انسان فى هـــذه الحياة اهتمامات تصل الى درجة الجنون تنبع من تلك الاهتمامات الصغيرة التى تنشأ فى قلب الانسان ، ثم تطغى على ما ســواها وتســلمه بالفعل الى دار المجانين بينما ينعم سواه باهتماماته التى يراها البعض شيئا طبيعيا للغــاية .

فى هذا القسم نصادف نمــاذج عديدة من شخصيات الحيــاة الايرانية فى ذلك العصر .

والراوى واسمه محمود يقص حياته منذ الطفولة حيث ماتت أمه

عند وضعه ، ونشأ فى كنف والد يجمع كل المتناقضات فهو على حد تعبير ولده « متدين عاص وفاسق عابد » أنه يبكى فى الصــلاة خشوعا. ثم يجلس الى شرابه حتى الفجر ، أنه مثــال الرجــل الشرقى الذى يستطيع ببساطة وتنسيق أن يحيــا حياتين ، فى النهــاية يفلس الوالد وينتحر ويترك محمودا وحيدا فى الحيــاة الا من عم كان على طرف النقيض .

ان العم صــورة من الصــور الأدبية التى صادفتنا طويلا منذ أصبح هناك أدب وكتابة ، انه نموذج من نماذج البخل عند الجاحظ ، لم يكن « الا آلة دقيقــة لجمع المــال » وهو فى نفس الوقت مراء لا يترك فرصة تمر الا ذم فيها البخل والبخــلاء . ويمرض العم ويذهب البطل طالب الطب لعيادته ، فيجده لا يريد أن يستدعى طبيبا . ويثور الفتى ، وتطول المناقشــة بينه وبين عمه ، مناقشة جاحظية بين فضائل البخل وفضــائل السخاء ، ان الشاب فى واد والعم فى واد آخر ، ذاك يحتج بالشعر وهــذا يحتج بالحياة ، ان كل ما كتبه الكتــاب والشــعراء فى مدح الكرم محض هراء ، ان سينكا كتب كتابا فى مدح الفقر وهو يجلس الى منضــدة من ذهب ، المهم أن المناقشة تنتهى بأن ترجو بلقيس ابنة الرجل ابن عمها أن ينهى المناقشة رحمــة بالرجل المريض .

تأتى الزيارة بنتيجتين متناقضتين : الأولى احتقاره لعمه واحتقار عمه له فى نفس الوقت ، والثانية وقوعه فى حب بنت عمه من النظرة الأولى ، انه لم يسمع الا صــوتها ، ولم ير منها الا عينيها الا أن ذلك كان فيه الكفاية للشاب المتعطش للحب ، ويظل ساهرا طوال الليل ينمق أبياتا من الشعر ، ويصحو من نومه المتقطع فيذهب الى ميرزا عبد الحميد وهو القائم بأعمال عمه ، وزوجته هى التى أرضعته وهو طفل بعد وفــاة أمه وولده « رحيم » صديقه ومن نفس سنه وزميله فى الدراســة .

وبلقائنا برحيم نلتقى بأول المجانين الحقيقيين فى الروايـة • ان رحيم لا هم له فى الدنيا الا شىء واحد يشغل عليه فكره ليل نهـار وهو الأرقام ، ان غرامه بالعدد يقطع السبل أمام أى غرام آخر ، انه خليفة فضل الله الحروفى الذى عاش فى القرن الثامن الذى كان يرى فى الأعداد أسرارا ، وهو خليفة محمود النقطوى فى القرن التاسع الذى كتب رسائل عديدة فى أسرار الأرقام ، وهو لا يفتأ يحدث محمودا عن أسرار الأعداد بتخريجات تكاد تخرجه عن طوره •ان محمودا يرى أنه فى سبيله الى الجنون ان لم يكن قد جن بالفعل ، الا أن رحيم لا يرى شيئا من ذلك ، ان غرامه بالعدد « واحـد » غرام خالد يستطيع فى سبيله أن يضحى بكل غرام • كان محمود يهرب من رحيم الا أنه كان مضطرا لزيـارة أسرته لأنه كان يجد عندها السلوى ، ولا يكاد يخبر صديقه بسره حتى يلجـأ صاحبنا الى الأعـداد ، ان اسـم محمود بالأعداد مشؤوم واسم بلقيس هو الآخر مشؤوم ، اذن فلن يتم الأمر، ولا يجد محمود بدا من أن يلجـأ الى أم صـديقه ليهرب من رحيم وأعداده التى أنهت الموضوع دون أن يخطو فيه قدما •

يقدم لنا شخصية أم هـذا الصديق « سمينة مفرطة فى السمنة الى ما شاء الله أبرز صفاتهـا الكلام الكثير والسمع القليل ، واذا أضفت الى ذلك عبادة الأوهـام والخرافات فسوف تصل الى سحنة شاه باجى بلا زيارة أو نقصـان » وتسوق السيدة خطبة عصـماء فى فضائل المحبوبة لا تزيد محمودا الا ولعا تردفها بخطبة أخرى فى فضائله هو لتصـل فى النهاية انه ان وجد اثنان جديران ببعضهما بعضا فى الدنيا فهما محمود وبلقيس ولكن ما أن يعود الى المنزل حتى يعلم الخبر السىء : لقد شفى عمه ولم يعد هنـاك مبرر للزيارة وبعد أن يبل من مرضـه يعلم أنه سقط فى غيبوبة ثلاثة أيام وأن محبوبة القلب هى التى كانت تمرضـه • لقد عرف محمود أن ابنة عمه تحبه ولكن ماذا عن العم الذى يود زواجها لآخر ؟

تصف لنا شاه باجي هـذا الخطيب بكل نقيصـه ، ان « نور جشم نعيم التجار » وهـذا أسمه لا ميزة فيه الا أنه وارث والده . وهو لا أهل له ولا حسب ولا نسب ، وهو فى حاجة الى برذعة وليس الى امرأة . وهو جدير ببغايا « چاله سيلابى » حى الدعارة فى طهران وليس ببلقيس ، وهو جلف لو لعقت من قفاه سبعة كلاب لشبعت ، وقد خاف عليه والده من البغايا فأرسله الى باريس للدراسـة ، ولما انقطعت أخباره ذهب لزيارته ، وبينما هما يسيران معا فى شـوارع باريس لفت نظر الرجل مبنى كبير فسأل ابنه عنه فعجز عن الجواب فلما سأل الشرطى المكلف بالحراسـة علم أنه مبنى مدرسة التجارة الذى من المفروض أن ولده يتعلم فيه من سـنوات ، فجره من قفاه وعاد به الى طهران . ولا يجد محمود بدا من ارسال خطاب الى ابنـة عمه ، ولكنه كان القشة التى قصمت ظهر البعير فقد سقط فى يد عمه ليحول بينه وبين محبوبته الى الأبد .

ويخرج محمود فيقيم عند أحد أصدقائه عشرة أيام ثم يذهب الى رحيم فيجد جنون الأرقام قد تمكن منه ، انه يصرخ طالبا النجـدة لأن رقم الاثنين يهاجمه ويغطى جدران حجرته بأبيات من الشـعر الفارسى تمدح الواحـد وتذم الاثنين ، ليس الواحد الذى يمدحـه العارفون بل الواحد الرقم الذى يرى أنه منشأ العالم وأن كل ما فى العالم من شرور تابع من رقم الاثنين ، ولا تلبث علامات الجنون الى أن تظهر على رحيم بوضوح فتجحظ عيناه ويتقوس فمه ويرتعد ويسرع الى والدته ، لكنها لا تريد أن تحضر الطبيب الى ولدها .

ان الأطباء فى رأيها رسل عزرائيل ، ان برحيم مسا من الجن ، وليلة الجمعـة ان شاء الله يأتى العارفون بالأمور فيخرجون الجنى من جسد ولدها ، ولن يدخل الطبيب البيت الا على جثتها ، لقد أطفأ ولدها سيجارته فى صـدر أحد أطفال الجن . ويسرع محمود الى والد صديقه فى منزل عمه فيشكو الرجل من أن العم لا يترك له لحظة

يتنفس ، وحين يدخل محمود حجرته يجد بلقيس قد كتبت الحرفين الأولين من اسميهما على الجدران فيعتريه الحزن ويسرع الى صديقه الذى استضافه ، أجل ان الحل عنده ، فهو طبيب فى الأمراض العصبية وليحمله لعيادة رحيم •

حين يذهب الى صديقه يجده يعانى جنونا من نوع آخر ، انه يشعل موقد الكيروسين فى حجرته رغم شدة حرارة الجو ، فهذا الصوت يذكره بصوت الموج الذى يعشقه تماما وهو لا يملك من المال ما يمكنه من الحياة الى جوار الشاطىء ، والطبيب يعترف ببساطة أن ذلك نوع من الجنون : « وفى هذا العالم يوجد عند كل انسان نوع من الجنون ، فليس فى مقدور كل انسان أن يحيا كما يهوى ، وليس فى مقدور أى انسان أو معظم الناس على الأقل أن يسيطر على رغبته المجنونة فى أى شىء ، ان العثور بشىء ما يبدأ فى الانسان دون أن يحس ويأتى الوقت الذى يرى نفسه فيه منقادا اليه ، لا يرى حوله أحدا ولا ما يسميه الناس بالتقاليد العقلية ، أن يفعل ما يراه موافقا لميله دون أن يهتم بأن يعتبره الناس مجنونا ، انه يبدأ باللامبالاة • والجنون مثل العقل هبة من هبات الله ، وفى نفس الوقت الذى يعبر فيه الانسان دائرة العقل ويضع قدمه فى وادى الجنون ، يفقد الارادة ، ويتحرر من قيود الخوف والتدبير والتردد والاستدلال والأوهام التى تكبل أيدينا وأقدامنا ــ نحن العقلاء وتصيبنا بالعجز الكلى » •

يذهب الطبيب وهذا شأنه لعيادة رحيم ، ويحدثه عن الأرقام ويتسلل الى دائرة اهتمامه ، ان رحيم يصاب بنوبة الجنون فى حضور الطبيب ، ويشخصه الطبيب بأنه جنون الاضطهاد ، ويقيد رحيم بالأغلال ويساق الى دار المجانين •

هكذا ينتهى الجزء الأول من الرواية بهذه السخرية المرة ، ان

الطبيب الذى ساق رحيم الى الدار لا يقل عنه جنونا • تسرع أم رحيم الى الدار ضاربة كل من تلقاه ، ويبتسم الجميع ، ليس من المستبعد اذن أن يكون مجنونا وله مثل هـذه الأم ، وتمنع من زيارته ولا يكون هنـاك الا محمود يأخذ على عاتقه هـذه المهمـة ، لكى يقترب من المجانين ويقترب من مصيره فى الوقت نفسه •

انتهى اذن هذا الجزء من الرواية ، وقد علمنا أن من هم خارج أسـوار دار المجانين ليسوا بأقل جنونا ممن هم فى داخلها • فهم عبدة المـال وعبدة الشهوة وعبدة الأوهـام والخرافات ، والذين تمزقهم متناقضات الحياة فلا يجدون بدا من أن تشرد عقولهم هنا وهنـاك فيفكرون فى ألف موضـوع ويحبون دون سبب ، ويبغضون أيضـا دون سبب ، وفى النهاية نفاجأ بأن واحدا فقط هو الذى سيق الى الدار لأنه مال الى شىء لم يتعارف عليه الناس ولأنه لم يحتفظ بهذا الميل لنفسـه ، وتبلغ السخرية قمتهـا حين يكون الطبيب هو الآخر مجنونا ، ومن أمثال هـذا الطبيب سنلتقى فيما بعد بالكثير ، الا أنهم يفلحون فى اقامة هـذه الموازنة المطلوبة بين داخلهم وخارجهم •

صدرت هذه الرواية لأول مرة فى ايران سنة ١٩٤٢ ، وهى أول رواية لجمالزاده بعد فترة الصمت ولكنى أشك فى أنهـا كتبت قبل نشرها بفترة طويلة ، ولم تكن الظروف تسمح بنشرها الا فى هـذا التاريخ ، وقبلها كتب هدايت البومة العمياء فتحدث عن ايران كمقبرة للأفكار ، ولم تنشر الرواية الا سـنة ١٩٤٢ مع أن الثابت أنه كتبها فى الثلاثينات وطبعها فى عدد صغير جدا من النسخ فى بومباى ، أيكون جمالزاده قد هدف الى الحديث عن ايران كدار كبيرة للمجـانين فى تلك السنوات التى كان من المستحيل للبومة العمياء أو دار المجانين أن يطبعا فى ايران ؟

***

عن طريق عيادة رحيم يتعرف الراوى الى عدد آخر من المجانين :
الأول شاب من اهل سبزوار اسمه روح الله • كان روح الله يشتغل حلاجا ، ومنذ عدة شهور جاء الى طهران ماشيا وقوسه فى يده ، واستمر يتسكع فى شوارع العاصمة ، وكلما صادف سحابة فى السماء ظنها قطعة قطن وطفق يحلجها • ولما استمر على هذه الحال دون طعام أودعوه دار المجانين ، لم يكن لروح الله فى مقره الأخير من شاغل الا حلج السحب ، ثم يقعى فى ركن يصلح قوسه ، ويترنم بأغنية شعبية • لم يسفر المؤلف عن السبب فى سر جنون روح الله ، الا أنه لا يخفى على أذهاننا ، أن روح الله عامل مسكين يعتمد فى كسب رزقه على عمل يده ، ولعل الصناعة صادفت سبزوار فكسد عمله ، فقدم الى طهران ، الا أن الأمر لم يكن أفضل • وفى النهاية أدرك أنه يعيش فى عصر غير عصره ففقد عقله •

أما المجنون الثانى الذى يتعرف اليه الراوى فكان من كبار الملاك ، اجتاح سيل عرم أملاكه فقضى عليها وقضى على أسرته ، ونجا هو بمعجزة ففقد عقله • انه يجلس طوال اليوم القرفصاء يمسك بدفاتره ويحاسب عماله العديدين القائمين على ضياعه ، وكل من يمر به يظنه من هؤلاء العمال فيخاطبه من طرف أنفه ، ويسبه مذكرا اياه بماضيه أيام كان جائعا عاريا وكيف انتشله من الفقر والجوع وأعطاه عملا وقوتا ودارا وعقارا فى احدى قراه ، ومن ثم أطلق عليه القائمون بأمر الدار لقب « أرباب » وهو اللقب الذى يخاطب به العمال والفلاحون فى ايران أصحاب العمل أو كبار الملاك •

والشخصية الثالثة التى نلتقى بها مع محمود فى المستشفى كانت ذات أثر كبير عليه ، انها ليست من أهم شخصيات الرواية فحسب ، بل من أهم شخصيات الأدب الفارسى الحقيقية ، وهذه التورية الصارخة لا تخفى على انسان قرأ لهذا الأديب ، والراوى ولنقل ان المؤلف يرمز

اليه باسم هو أقرب الى التصريح ، ومن يكون هدايتمليخان الا الأديب العظيم الراحل صـــادق هدايت « ١٩٠٣ ــ ١٩٥١ » • يلتقى الراوى به فى دار المجانين ، شابا فى الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره من أسرة كبيرة ، لكنه أصيب بالجنون من كثرة قراءاته والأبحاث التى قام بها ، وهو لا يغادر فراشـــه ويسمى فى دار المجانين « مسيو » ويصف الراوى الشخصية بصفات تنطبق جسديا على هدايت العظيم ، أما أقواله ومعتقداته فهى فقرات من مؤلفات هدايت ينقلها جمالزاده كما هى ويضعها بين الأقواس ، بل ويطلق عليه اسم أشهر أعمـــاله « بوف كور أى البومة العمياء » (انظر الترجمة العربية لها لكاتب هذه السطورة هيئة الكتاب ١٩٧٦) •

لقد تعلم هدايتمليخان فى أوربا ، لكنـــه عشق هنـــاك نموذجا مما تعرض له الثيـــاب وأحضره معه من أوربا « من أحداث قصـــة الأراجوز لهدايت » (انظر قصص من الأدب الفارسى المعـــاصر تأليف صادق هدايت ترجمة كاتب هذه السطور هيئة الكتـــاب ١٩٧٥) • وبعد أن فقد أهله الأمل فيه أودعوه دار المجانين ، ولكنه ذات يوم رأى مجنونا يخرج أمعاءه ويعبث بها « أحداث قصة ثلاث قطرات من الدم » ، فخرج من المستشفى ، ولكى يعالجه أهله خطبوا له فتـــاة من أسرة محترمة ، ويزف اليها ثم يطلقها ، وبعدها يجد فتاة تشبهها فيحملها الى منزله ويقتلها ، ويدفنها فى جبانة الشاه عبد العظيم ويجد زهرية رازية أثناء الحفر عليها صورة الفتاة « أحداث رواية البومة العمياء » فتزداد حالته سوءا ويعود الى دار المجانين •

كل هذه الأحداث التى سمعها الراوى عن مسيو تثير رغبته فى التعرف اليه ، فيتقرب اليه • وبعد فترة تتوطد العلاقة بينهما ، ان مسيو حسن الحديث ، لكنه يخرج عن طوره ان ذكر انسان كلمـــة واحدة عن مدرســـة الأدب القديم ، ان كل أقوال مسيو فى الرواية

منقولة من أعمال هدايت . ومسيو مصاب بجنون من نوع خاص هو جنون « خدمة المجتمع » ، انه يكتب ولكنه لا يريد لأحد أن يقرأ ما يكتب ، انه يكتب لخياله « قصة البومة العمياء » . وهو يسلم محمود بعض أعماله ليقرأها فى المنزل ، فهو نفسه لا صبر له على قراءاتها ويأخذها محمود ويقرأها « كلها مقتطفات من أعمال هدايت ».

استمر محمود فى قراءة هذه الأوراق طيلة أسبوعين نسى الدنيا خلالها ، وحين انتهى كتب خطابا الى بلقيس سلمه الى شاه باجى ثم أسرع الى المستشفى ، لم يستطع أن يخرج رحيم عن هذيانه ، فأسرع الى مسيو ، وحاول أن يناقشه حول لغته وافتقارها الى قواعد النحو ، الا أن مسيو يسخر من كل قاعدة ، ان القرآن نزل قبل أن تنزل قواعد النحو وعظماء الأدب الفارسى لم يكن لهم شأن بكل هذه التقعرات التى تسمى « النحو » .

ويعود محمود الى المنزل فيجد صديقه الطبيب فى سبيله الى الرحيل ، انه لم يعد يطيق الابتعاد عن البحر ، انه سوف يغيب ثلاثة شهور دفع ايجارها مقدما . ويبقى محمود وحيدا مع مكتبة الطبيب وكلها فى الأمراض العصبية ، فيبدأ القراءة ، ويوما بعد يوم تشده حياة المجانين ، انه معجب بتجردهم وغيبوبتهم عن كل ما فى العالم ، وماذا فى العالم ؟ حبه اليائس لبلقيس أم عناد أبيها الذى يريد أن يبيعها بيع السائمة ؟ ، ان محمودا مأخوذ بجماع نفسه الى عالم الجنون ، ان الدنيا لم تعد فى نظره الا دارا كبيرة للمجانين وأعقل من فيها هم الذين داخل الأسوار بالفعل .

ويذهب محمود لزيارة مسيو ، فلم يعد يستريح فى الحديث الى أحد الا اليه . ويحدثه عن الكتاب ، فاذا بمسيو يعلم كل شىء عن الكتاب وعن مؤلفه ، انه يعجب أشد العجب كيف أن محمودا لايزال

يشك فى أن العقل عقال بالفعل ؟ وأن السعادة كل السعادة فى الجنون ، ان مسيو يحاول أن يقنع محمودا بأن السعادة فى الجنون والعقل هباء ، أليست السعادة هى أن يتعلق قلب المرء بوهم يسرع فى أثره ؟

لقد سبق المجانين العقلاء فى هذا المجال بمراحل ، هذا عن الدنيا فما بالك بسعادة الآخرة أليس أكثر أهل الجنة البله ؟ وألم يعد المسيح البلهاء بملكوت السماء ، وأليس المجانين هم الذين يمنعون الناس لأنه لا خير هناك الا وهو ممزوج بشر ؟ أليس الايمان هو أن يسلم الانسان نفسه لله وهو مغمض العينين ؟ وهل كان العباقرة والمصلحون من المجانين ؟ لا جدال ، أليست العبقرية على كل حال ضربا من الجنون ؟ ألم يقل ديدرو « ما أقرب الجنون الى العبقرية » ؟ دعنا من الغرب ، ألم يقل الصوفى سهل التسترى « الدنيا دار المرضى والناس فيها مجانين » ؟ وفى النهاية يغرى مسيو محمودا بأنه من الخير له أن يجن ، ولم يكن يعلم أن الفكرة تداعب محمودا منذ زمن •

كانت هذه المناقشات تدفع محمودا الى التفكير فى أحواله ليل نهار ، حتى شاه باجى التى أفقدتها المصائب شحمها ولحمها كانت تنظر الى عينيه فتلمح فيهما بريقا غريبا ، انها تمنيه الأمانى لكنه بات يرى وجوده وعدمه فى الدنيا سواء ، ويفكر فى أحواله فلا يجد فرجة واحدة من أمل ، ويستعيد مصائب حياته ، انه بات يخاف من كل شىء، لم يعد يصلح لعمل لأنه يخاف القانون « أتكون هذه البداية الحقيقية للجنون ، انه لا يأمل فى شىء فماذا لو تظاهر بالجنون ؟ لن يكتشف أحد الأمر ، لقد كان أبوه مصابا بنوع من الصرع ، وهناك أنواع من الجنون قرأ عنها مناسبة له تماما ، ليست من النوع الخطر الذى قد يؤدى الى عواقب لا تحمد عقباها •

بدأ محمود فى التظاهر بالجنون ، لقد أصبح الآن محمود

الغزنوى فاتح الهند ، وعلم الخادم بهرام أن يطيعه ويجهز أسباب الرحلة الى الهند والا أمر به فألقى تحت أقدام الفيلة ، وهو يقوم ببعض الألاعيب ، انه يوصى الباعة بأن يأتوا ببعض البضائع الى المنزل فاذا أحضروها سخر منهم وأنكر طلبه لأى شيء ، وهو يكتب خطابا لمدير دار المجانين يوصيه شرا بمسيو ، وخطابا الى ميرزا عبد الحميد يوصيه فيه بشر الأمور بعمه وبنعيم التجار . وفى النهاية يذهب الى البوليس ، ومنه الى دار المجانين .

نال محمود ما تمنى ؛ فى اليوم الأول لم يخرج من حجرته بل انشغل بمشاهدة رفيقه المفلس السعيد ، وهو نوروز خان ، انه شديد السرور يتصور أنه يعيش فى جنة الخلد ، كل رجل عنده فى عظمة سليمان ، وكل امرأة فى جمال بلقيس ، وهو يجلس بالساعات فى حديقة المستشفى يتحدث الى الطيور والقطط ، وقد اقتنى بصلة يرى فيها أعظم جوهرة من جواهر العالم ويرى أن الطبق الصفيح الذى يقدم له فيه الطعام هو كأس جمشيد التى يرى الناظر فيها كل مناظر العالم ، وهو يتحدث عن نفسه كأنه فى قوة رستم وفى غنى قارون . الخلاصة أن نوروز خان كان يرى أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان .

***

لنر اذن كيف التقى محمود برفاقه المجانين مجنونا مثلهم بعد أن كان يلتقى بهم كزائر أو رفيق ، انه يقضى أوقاته تحت شجرة الرمان فى الحديقة محدقا فى السماء ، لكن شتان بين مجنون بالفعل ومجنون بالهواية ، ان المجانين أنفسهم لا يصدقون ، انه يشكر الله أن تجرد من كل شيء وفرغ لنفسه ، الا أن أشد ما يؤرقه أن يكتشف تصنعه فيطرد من الفردوس الذى وصل اليه بعد لأى . ويلتقى به رحيم أسوأ ما يكون اللقاء ، انه لم يدخل الدار الا ليكون جاسوسا للرقم

« اثنين » اللعين . أما روح الله حـلاج السحاب فقد هجر أغنيتـه المرحة . وأخذ حزن عميق يسكن أعماق عينيه وأخذ يزمزم بأغنيـة تتحدث عن الغربة والخيبة والفشل وحين التقى بأرباب قام فيه صارخا أكثر من ذى قبل ، ان الجميع يتلقاه ، وكأنما فطن الى اللعبة التى لعبهـا .

ويفكر محمود فى مسيو ، هو الوحيد الذى سيقوده الى عالم الجنون ، ان محمودا لايزال فى فن الجنون من صغار « الأبدال » بينما مسيو من الأقطاب الأوتاد ، لكنه يخشى من لقاء مسيو فيرجىء اللقاء ، ويزيد من نوبات الاغماء التى يتعسفها تعسفا . وقليلا قليلا يحس أنه ثبت أقدامه فى دار المجانين ولم يعد يخشى أن يشك أحد فيه ، أما مسيو فليس عليه الا أن يبتعد عنه ، انه الوحيد الذى يعلم سره ، لكن مسيو لا يتركه للراحـة التى شملته ولداخله الذى بدأ يفتش فيه ، ولمذكراته التى بدأ يكتبها ، انه يوقظـه من النوم ذات ليلة ساخرا من سمنته ومن صحته التى تقدمت على جو الدار ، ويوصيه بأن يكف عن التظـاهر بالجنون فتلك هى اللعبة التى لعباها سويا ، الا أن محمودا يحـاول أن يبتعد عنه ، يـدعى كل ما ينفر مسـيو ، ولا سيما أنه يكتب شعرا زاخرا بالصنعة البديعية . وفى النهـاية يهجم على مسيو ممسكا به من مكان حساس ، تكون النتيجـة أن ينقل الى قسم المجانين الخطرين .

ثم نواصل قراءتنا لمذكرات محمود التى صارت أساس الرواية ، وهى الآن بلا تاريخ « لأنه فقد احساسه بالزمن تماما » انه يسخر من فكرة الأيـام ، ولم يعد يعرفها الا بيوم الجمعـة الذى تزورهم فيه شاه باجى ، فتنظر طويلا فى عينيه وتتعجب من وجوده فى المكان وهو أكثر عقلا من أى عاقل ، فلا يجيب الا ببعض التصرفات التى تحدث

من المجانين بالفعل ، ثم تدمع عيناه حين يرى أى حزن يسببه لها بتصرفاته هذه .

ويبدأ الضيق يتسرب الى محمود فلا يجد بدا من مصادقة مسيو ثانية ، ويخبر مسيو محمودا أن كبير الأطباء فى سبيله الى فقدان عقله بالفعل ، ان الطبيب أخبر مسيو أنه أصبح يضيق بالحديث الى الناس العاديين ، فاذا تعجب محمود قال له مسيو : ان التثاؤب يعدى فما بالك بالجنون ؟ . والأيام تمضي بمحمود ، لم يعد فى الدار ما يثير اهتمامه اللهم الا المناقشات التى يدخل فيها مع مسيو ، ان محمودا يقضى ليلة العيد فى الدعاء فاذا بمسيو يسفه ما يفعل ، ان الله قدر الأمور فى سابق علمه ، فماذا يفيد الدعاء ، ثم ان دعاء الناس متناقض فكيف يتم أن يستجاب دعاء الخير لأحد بينما قد يكون فيه شر لآخر . ومع ذلك ينشغل محمود بالدعاء وبمشاركة « المفلس السعيد » سروره ، ان المعرض الدولى فى أمريكا أرسل فى طلب جواهره ، ولكنه لا يجد وسيلة النقل التى تكفى كل هذه الجواهر وحين يرى محمود الدار تضاء بالشموع يحس بحزن حقيقى ، انه يحس كما لو أنه قد مات وأوقدت هذه الشموع على جثته .

يأتيه مسيو كى يريه مفاجأته ، وخلف شجرة يقفان ويشاهدان جنون مدير الدار وهو جنون من نوع خاص ، ان المدير يتخيل كما لو أن نساء العالم أصبحن محبوبات له ، انه يأتى بزجاجته وكأسين كل ليلة ويجلس تحت الشجرة ، ويخاطب محبوبات الخيال بأرق الألفاظ ويساقيهن ، وينتقل من واحدة الى أخرى « وكأنه ورث حريم السلطان كما يقول مسيو » ان مسيو شامت ، لكن محمودا حزين حزنا شديدا يردد بيتا من الشعر يجرى مجرى الأمثال :

كل ما يفسد يداوى بالملح يا ويلتا ان فسد الملح

ولم يعد عند محمود بعدها ما يخطه فى يومياته ، ثم يضيق فيلقى

بأوراقه كلها فوق الدولاب ، ولا ندرى بعدها من أين أتى الكاتب بما أكمل به الرواية ؟ لقد آن الأوان لأن يغادر محمود الدار ، لقد توفى السم فجـأة وفرغت له بلقيس وكل ثروتها ، وها هى ترسـل اليه تتعجله الخروج ، ولكن متى كان دخول الحمام كالخروج منه ؟

انه يود لو خرج بحريته ولو تسلل من الدار خارجا كما تسلل اليها داخلا ، لكنه ولأول مرة يكتشف أن للدار بابا ضخما وحارسـا فظا وسورا عاليا لو ألقى بنفسه من فوقه لدق عنقه لا محالة ، وينظر فلا يجد فى الطريق الا سكيرا يشكو هموم قلبه بأبيات من الشعر ، فاذا ما بدأ يساعده ، انتابته نوبة قىء تركه بعدها وفرغ لحاله ويذهب الى مسيو يقص عليه الأمر فيسخر الأخير منه ، انه تظاهر بالزهد حتى اذا وصلت الى خياشيمه رائحة الشواء لم يستطع صبرا الى الصباح ، كان ينبغى أن يصبر قليلا فلا يفاجىء المدير هكذا برغبته فى الخروج فاذا واصل محمود الشـكوى ، سخر منه مسيو قائـلا « ان العاقل الحقيقى لا يلقى نفسه أبدا بين المجانين » • ويفاجأ محمود بأن مسيو صلب كتابا على الجدار ، فاذا أبدى عجبه أخبره مسيو أنه تعب كثيرا من الكتاب فلم يجد بدا من عقابه هكذا •

***

تبدأ مرحلة جديدة من حياة محمود فى دار المجانين ، وكأنمـا السعادة التى كانت قد تيسرت له خارج الدار كانت مصحوبة بحوادث داخل الدار زادت من رعبه ومن شقائه ، انه قبل أن يذهب الى المدير فى الصباح يرى بعينيه « المفلس السعيد » وهو يجود بالروح ، لقد ظل يناجى الطيور طوال الليل حتى الفجر فى البرد فأصيب بنزلة برد قضت عليه • ويدخل محمود حجرة المدير ثانية ، ويحدثه المدير كما ينبغى لمدير أن يحدث مريضـا ، ويخرج محمود عن طوره انه يرجو الطبيب أن يختبره فى ما لا يجتمع فى بشر قط ، يخبره أنه ينظم الشعر

ويكتب القصة والمقال يطلب منه أن يسمعه قصائد عويصة عن ظهر قلب ، يطلب منه أنه مستعد لأن يعد له الشهور والأيام والأعوام ، أن يحلل له جسد انسان الى غير ذلك من الأشياء التى تثبت لنا لا للطبيب فحسب أن محمودا قد جن بالفعل . ويصرفه الطبيب بحجة الاستعداد لدفن « المفلس السعيد » ويستشيط محمود غضبا فيمضى الى كل من فى الدار من العقلاء الى الممرضين والبستانى والطباخ يسألهم ويستحلفهم بكل عزيز وغال : هل هو مجنون بالفعل فلا يسمع الا مصمصة الشفاه وعبارات من قبيل « حاشا الله » و « استغفر الله » و « من يقول هذا » فلا يجد بدا أن يسرع الى المدير ثانية .

ويواجهه المدير بكل عجرفة وعنجهية ، انه لا ينظر اليه ويسب من فى الدار أولئك الذين يتركون مجنونا يفسد عليه خلوته . ولا يصدق محمود ولا يتحمل ولا يتخيل أن هذا المدير الذى رأى من جنونه ما رأى يعامله هذه المعاملة ، فيواجه المدير بما يعرفه عنه ، فيثور ويسب ويلعن ويستنجد بكل من فى الدار ليبعدوا هذا المجنون عنه .

يبدأ محمود يشك فى أنه مجنون بالفعل ، ويتذكر الكلمات التى نقلها اليه مسيو عن الطبيب أن الجنون لا أصل وله ولا فرع ، ويخاطب نفسه قائلا : يا غافل القلب قد تكون مجنونا بالفعل وأنت لا تدرى ، لكن المجنون الحقيقى لا يدرى أنه مجنون ؟ لم يبق أمامه اذن الا أن يسير فى الطرقات وهو يدق على صدره ، انه يستطيع أن يصبر قليلا ، لكن بلقيس تتعجله بعد أن تحلق حولها الذئاب عندما رأوها وحيدة وذات ثروة ، لم يبق له اذن الا أن يهدد بالانتحار ، فيأمر المدير بنقله الى قسم المجانين الخطرين .

ويرى محمود نفسه فى حجرة هى أشبه بالسجن لا يربطها بالعالم

الخارجي الا كوة صغيرة ، النهار لا يصــل اليها ، أما الليــالى فحدث عنها ولا حرج ، كانت تسليته الوحيدة أن يسمع أصــوات الحمائم وهديلها على السقف المواجه ، فى اليوم التالى عندما تزوره شاه باجى شاتمة فى زبانيته الجدد يقسم لها بكل مرتخص وغال أنه ليس مجنونا ويطلب منها أوراقا وقلمــا ، فتحضرها وتدخلها له بعد أن ترشــو الحارس ، وتنصرف لكن بعد أن تطلب منه الصبر حتى تجد مخرجا .وبعد أن يطلب منها ألا تخبر بلقيس بشىء عن سر شقائه • ويأتى اليه مسيو ليحدثه من خــلال الكوة ، انه شامت به غير حزين عليه ، ولاشك أن الاقامة الجديدة سوف لا تجعله يفكر بالمرة فى خيانــة العالم الذى انتمى اليه ، ويهدد محمود بالانتحــار : الا أن مسيو عندما يفرغ مصباحك لن تحتاج الى الانتحار •

يقضى محمود أياما ثقيلة فى السجن ، يشــغل نفســه بقراءة التذكارات الشعرية والنثرية التى كتبهــا من سكنوا الحجرة قبله ويستعرض خلالها جمالزاده محفوظه من شعر الشــكوى الفارسى ويفكر فى أن يرفع عريضة الى المســئولين ، لكن من يصــدق ؟ ان عليه أن يكتب أحداث حياته كلها ، وفى هذه الحالة من الذى سوف يقرأها عليه اذن وأن يلخصها ، ومسيو يأتى اليه بين الآن والآخر الى الكوة فيحدثه عن مشروعاته ثم يختفى فجأة ولا يعوده بعدها • ويعلم أنه انتحر ، « كانت هــذه هى بالفعل نهاية صــادق هدايت وبعد ثمان سنوات من صدور الرواية » وفقد محمود الأمل تماما ، وكان قبلها قد فقد الأمل فى بلقيس التى رآها الجميع وحيدة ثرية فالتفوا حولها وكل منهم يدعى حقا فى تركة المرحوم •

وفى النهاية يلتقى محمود بمذكراتــه ليبثها أن والد صــديقه رحيم قد مات وأن أمه قد انقطعت عنه ، أجل لم يعد له من أمل الا أن ينقل الى قسم المجانين الهادئين ولم يعد يثق فى شىء اســمه الحرية انه « يخاف أن تكون الحرية أيضا ومثل كثير من الأشياء الأخرى

ناتجة عن فكر الانسان الخرب الذى يفكر فى المستحيل » • وتنتهى الروايـة •

***

ولا أدرى بعد أن قدمت الروايـة هل نسميها رواية أم نسميها دراسة ؟ هي رواية لأن فيها شخصيات وفيها أحداث ، وهي دراسـة أيضا لأن فيها مناقشات حينا جادة وحينا هازلة وفيها منقول كثير من الأدب الفـارسى الـكلاسى ، لكن فيهـا الى جـانب ذلك التتبـع للتطور الداخلى لدى الشخصيات ونموها ، وفيها أيضا شخصـية مسيو وهى ليست الا دراسة لأدب صادق هدايت • ولننظر الى بطل الرواية ، انه بطل رواية انسانى بكل ما تعنيه الكلمـة ، الا أن تتبع الراوى أو الكاتب لحياتـه يوحى الينا بأنه أراد أن يقدم شخصـية نموذجية لانسان فى سبيله فعلا الى الجنون ، لقد نشأ فى أحضـان أب يجمع كل المتناقضات ، ولمـا انتقل الى عمه اذا بهوة المتناقضات تتسع • ان البطل وهو يقنع نفسه بادعاء الجنون ينظر الى أحواله المـادية المتدهورة ، أجل اننا أمام رواية دراسـية ، رواية اذا نظرنا الى شخصية محمود ، ودراسة اذا نظرنا الى شخصية مسيو •

ويثور سؤال آخر : هـل الرواية ساخرة فكاهيـة كما يحلو لمؤرخى الأدب الفارسى وصفها ؟ الواقع أننا اذا تركنا حوار جمالزاده الساخر وبعض المواقف المضحكة المتناثرة هنا وهنـاك نجد أنفسنا أمام رواية ترجيدية من الطراز الأول ، بل أن بعض المواقف الضاحكة هى التى تثير الدموع وراء ضحكاتنا • أليس مما يثير الحزن أن نجد شابا واسـع الثقافة يفضـل الجنون ويقيم فى دار المجانين بدلا من أن يخرج الى الحياة الواسعة ينتفع بعلمه وينفع به ؟ وأليس مما يثير الحزن طبيب الأمراض العصبية الذى يترك مرضاه ليسرع اثر هوس أو مرض ألم به ؟ وذلك الطبيب الآخر الذى أوكل اليه علاج المجانين

وهو فى الحقيقة أكثر جنونا منهم ؟ وذلك العامل المسكين ألا يثير فينا حلجه للسحاب شيئا من الحزن ؟

ثم : ألا يدور هذا السؤال فى أذهاننا : ما هى الأسباب الحقيقية وراء مرض هؤلاء ؟ لابد أن سببا ما وراء انصراف رحيم الى الأعداد، أليس من الممكن أن يكون ذلك قد ألم به من انشغال والده عنه الى العناية بحساب مخدومه ؟ وانصراف المدير الى مغازلة معشوقات خياليات دليل بلا شك على فقدانه لجانب الحب الحقيقى فى حياته وما أعمق سخرية جمالزاده حين جعل مدير المستشفى مجنونا فالراعى من طينة الرعية ، وما أشدها من لحظة حزن حين نردد مع الراوى بيت الشعر الذى ردده فى هذا المجال :

كل ما يفسد يداوى بالملح يا ويلتا ان فسد الملح

وفضلا عن ذلك نلاحظ روحا عامة من آثار الضغط الفكرى وجو الاختناق الروحى الذى ساد ايران فى تلك الفترة وما بعدها ، ان جمالزاده الذى ربى فى بيت زعيم لم يترك قضايا أمته على البعد، بل أن اقامته الدائمة فى الخارج من المواقف التى تثير أسئلة عديدة ورفضه الساخر أكثر من مرة لمنصب الوزارة حين عرض عليه ، الا أن الكاتب بالرغم من ذلك هادىء النبرة لا نحس عنده تلك الحدة التى نحسها عند غيره من الكتاب الايرانيين ، ولعل ذلك من تجاربه الطويلة وتبنيه فى فترة مبكرة من حياته لفكرة الاصلاح المرحلى التى بشر بها فى كتابات عديدة •

ولاشك أن قراءات الكاتب فى الآداب الأوروبية قد ظهر أثره واضحا فى هذا العمل ، وقد ذكر رواية الأبله لديستيوفسكى فى ثنايا روايته فلا جدال أنه اطلع عليها ، وواضح تأثيرها فى شخصية محمود ، وأبله ديستيوفسكى لا يحس الانسان بجنونه المطبق الا حينما يبلغ به الاضطهاد مداه •

أما العمل الآخر الذى لا أشك أن الكاتب قد اطلع عليه وان لم يذكر ذلك فى روايته فهو قصة « العنبر رقم ٦ » لأنطون تشيكوف ، فاریاب ليس الا موسى اليهودى الذى أتت النار على دكانه فجن ، والرجل المغرم بالنياشين ليس الا « المفلس السعيد » بشحمه ولحمه، والعلاقة بين مسيو ومحمود تذكرنا بالعلاقة بين أندريه أندريتش وبافيل بافيلوفتش ، وأندريه جن بالفعل فى رأى المجتمع عندما شهد لبافيل المريض نزيل العنبر أنه أوسع ثقافة من كل من قابلوه فى حياته والجو العام لدار المجانين يذكرنا بالجو العام لعنبر رقم ٦ لأنطون تشيكوف .

وفى النهاية تبقى لجمالزاده روحه المستفيضة ذات الجانب الصوفى وسخريته الشرقية البحتة ، وربطه بين الآداب القديمة والحديثة وروح الراوى الذى يرفع الكلفة بينه وبين القارىء ، كل ذلك يجعلنا بالفعل نحس بالروح الايرانية فى الرواية ، هذا الى جوار المصطلحات والتعبيرات الشعبية التى يوردها لا فى الحوار فحسب بل وفى الوصف أيضا .

٤ ــ التنجستانى

صـادق جـوبك

ولد صادق جوبك فى بوشهر فى الجنوب الايرانى سـنة ١٩١٦ وبعد اتمام مراحل تعليمه الأولى فى شيراز ، رحل الى طهران حيث اتم دراســته فى الكلية الأمريكية ، وكان معلوما أنه كان تحت رعـاية صادق هدايت فى بداية حياته الأدبية ، وهو كاتب قصـة قصيرة من الطراز الأول ، ظهر فى المحيط الأدبى بمجموعتيه : مسرح العرائس ١٩٤٥ والقرد الذى مات صاحبه ١٩٥٠ . وبعض قصصه القصير ترجم الى اللغات الأوربيــة ، يعد جـوبك الآن طليعة الكتــاب الايرانيين . له ايضــا :

اليوم الأول فى القبر والصــدقه الأخـيرة وهما مجموعتـان من القصص ، وله من الروايات غير التنجستانى حجر الصبر وقد أثارت ضجة عند اصــدارها لغرابة لغتها وموضوعها ويعد جوبك ممن تأثروا بالأدب الأمريكى الروائى المعاصر ، خاصــة اعمال وليم فوكنر وجون شتاينبك وفى تمجيده لبطولة الانسان وهو الميدان الأول للرواية التى بين أيدينا يذكرنا بروائع همينجواى التى يدق فيها كثيرا على هــذا الموضــوع .

لعل القارىء مل حياة طهران وأبطال طهران وقادة طهران واهتماماتهم، ولعله ضاق ذرعا من نساء طهران وألاعيبهن وكيدهن ، ولعله قد تاق مثلى الى الحياة فى ظلال قرية نائية من قرى الجنوب الايرانى ، والى لقاء أناس من لحم ودم ذوى اهتمامات عادية وأفكار عادية وحيـاة عادية لا تشوبها حمى مرض الرياسـة ولا ألاعيب دهاقين السياسة ، اذا كان الأمر كذلك بالفعل ، فانى أقدم له هـذه الرواية من روايات المدرسة الحديثة فى ايران رواية « التنجستانى » أى الشخص الذى يعيش أو ينتسب الى منطقة تنجستان من ولايات الجنوب الايرانى ، تلك الولاية النائية التى لعبت دورا كبيرا فى الحركة الوطنية الايرانية خاصة فى القتـال الذى شنه أهلها ببنادقهم القديمة ضـد الانجليز فى الحرب الأولى .

هذه رواية شكل وليست رواية مضمون . ان أحداث الرواية بالرغم من حجم الرواية (٣٢٠ صفحة) قليلة جدا من الممكن أن نلخصها فى صفحة أو صفحتين ونستريح ، الا أن المؤلف جعل من هـذه الحادثة أساسا لكتابة رواية محبوكة الأطراف ، مالئا اياها بالرموز ، محـللا ما وراء الحادثة وما بعدها موحيا بأكثر مما تعنيه الحادثة ، كل هـذا دون أن يقدم لنا مقدمة ، ودون أن يسوق الخطب ودروس الفلسفة على ألسنة الأبطال أو أبيات الشعر ، وبعد أن تنتهى من قراءة الرواية لا نملك الا أن نفـكر : الى ماذا يرمز بطلها ؟ والى ماذا نرمز بقيـة الأبطـال ؟

ان الرواية كلها قائمة على حدث حدث بالفعل ، أصبح من التراث الشعبى فى الجنوب الايرانى ، قصـها كاتب آخر فى قصـة قصـيرة لا تزيد صفحاتها على العشرة ، شاب بسيط نصب عليه بعض أهـل المدينة وسلبوا أمواله ، ولـما فشـل فى استردادها منهم بالحسـنى والقانون قتلهم جميعا . اننا أمام جريمة وأمام مطـاردات بوليسية ،

وأمام مجرم هارب يمسك علينا أنفاسـنا ، ونحن نتابعه فى طريـق هروبه ، الا أننا رغم ذلك لسنا بصدد قصة بوليسية تقليدية ، ولسنا أمام جريمة عادية نهز رؤوسنا بعد قراءتها مرددين القول الذى يلى « الجريمة لا تفيد » بل نحس أن بعض ما يسمى جرائم تطهيرا للمجتمع واعلاء لشأن الانسان الذى كرمه الله وخلقه على صورته ونفخ فيه من روحـه .

ثم اننا لا نملك أنفسنا من أن نعيد قراءة هـذه الرواية أكثر من مرة ، مرة لنتتبع صورها الانسانية العظيمـة ونماذجها البشريـة التى تخرج الينا من بين السطور ، ومرة لكى ندقق فى ألفاظها الموحية الغريبة التى أحس الكاتب بغرابتها فأثبتها فى كشاف فى آخر الرواية ، ومرة لكى نعايش البطل فى سخطه وغضبه ثم فى شفائه لغليل نفسـه ثم وهو مطـارد من الشرطة تحيط به قلوب الناس وتتلقفه أذرعهم الحانية بحب وعطف ، ومرة أخرى لكى نستمتع بهـذا الحوار العظيم الطبيعى الذى أجراه المؤلف على لسان أبطاله ، وكأنه سجله من أفواههم مباشرة فيدخل قلوبنا مباشرة عاريا من الوشى عاريا من التقعر والفلسفة كاشفا رغم قصره عن بعض جوانب الشخصـية وتطوراتها وماضيها ومكوناتها . كل هـذا دون أن يتدخل الكاتب بشخصه فكأنه امتزج بموضوع روايته وشخوصها حتى بات واحدا منهم .

***

فى افتتاحية الرواية نجد أنفسنا فى يوم شديد القيظ من أيـام رمضان الكريم ، نحس من خـلال الأشجار الساكنة والطيور الصامتة والطريق الخـالى بهذه الحرارة وهـذا السكون ولا نجد بدا من أن نلجأ مع « محمد » بطل الرواية الى ظل شجرة ، ها هو محمد يجلس تحت شجرة قد التصـق قميصه بجسـده ، فيخلعه ويعصره وينشره بجواره ويجلس بصدره الغزير الشعر غارقا فى أفكاره ، وعن طريق

المونولوج الداخلى المستخدم بنجاح تام نعرف الكثير عن محمد وعن الشجرة فى صور متداعية لا تأخذ صورة الاعترافات كما تعودنا فى الروايات السابقة ، ان الشجرة تقع فى ميناء « بوشهر » احد موانىء الجنوب الايرانى ، ومحمد ليس من أهل الميناء وانما هو من أهالى قرية « دواس » التى تبعد عن المدينة بحوالى سبعة كيلو مترات وهو صاحب دكان لبيع الأرز فى المدينة . وهو يقطع هذا الطريق على قدميه فى طريقه ذهابا الى دكانه وايابا الى قريته ، ولكنه لأمر ما عاد مبكرا عن ذى قبل .

ان ثور احدى أرامل القرية قد انطلق هائجا ، ولا يستطيع أحد الامساك به ، بل انه جرح غلاما حاول ذلك . وها هو ذا بين النخيل يعيث فسادا فى القرية ، وها هو ذا محمد فى جلسته يفكر فى هذا الأمر ، انه يود لو يسرع الى القرية لكن الحرارة الشديدة لا تساعده، انه ينتقل فى وحدته هذه من موضوع الى آخر ، من الثور الهائج ، الى الشجرة المباركة التى يجلس تحتها والتى نعلم ذلك من كثرة الخرق المعلقة عليها والأساطير التى نسجت حولها ، انها مسكونة بالجن . وهو نفسه شاهد مرة عرسا للجن فيها ، لكنه لا يخاف ، انه ينذر بينه وبين نفسه لو استرد نقوده التى سلبت منه ، تلك التى جمعها بكده وسعيه ، لو تم الأمر واستردها ، « دستة » من الشمع لهذه الشجرة .

ومن هنا نعلم أن محمدا قد وقع عليه ظلم ما ، ولكن أى ظلم ؟ وممن ؟ لا ندرى ، وها هو ذا ينهض من جلسته ولا يلبث أن يصل . الى سبزآباد ، حيث يقع المبنى الذى يسكن فيه الانجليز ، ينظر الى الراية التى ترفرف فوق المبنى ويتعجب ، بعد سنوات من الكفاح لازال الأمر كما هو ، لو قام قائده « رئيس على » من قبره ماذا يقول ؟ ثم يتذكر أيام كان هو نفسه يعمل مع الانجليز حدادا ، كم

كانت أياما رغم سوئها سعيدة ، كان خفيفا كريح الشمال لا أهـل ولا ولد ولا هموم ولا أعباء ، ثم يفرغ من أحلامه ويواصـل طريقه ويقف أمام دكان حميه « حاجى محمد » فيجد انجليزين يبتاعان وينظر اليهما شذرا ، ونفهم من حواره مع خاله أن محمدا ساخط على حميه وهو خاله أيضا . كيف يتعامـل مع الانجليز ونقودهم كلهـا ملوثة بالخمر ولا بركة فيها ، وأيضا فى شهر رمضان ، انه ساخط عليهم ، فكل شىء لهم ، وهو فخور لأنه عندما قام « رئيس على » لقتالهم اشترك معه وقتل ببندقيته الكثيرين منهم ، ويذكره خاله بالنقود التى اكتسبها منهم ، فينكأ عند محمد جرحـا لا يندمل ، ويلقى الضـوء على جانب آخر من جوانب الظلم الذى وقع على محمد ، لقد كسب منهم ألفى « تومان » أعطاهما لامام الجمعة فقرأ عليهما دعاء التحليل وأخذ لنفسه ثلاثمائة ، أما البقية فقد تكاتف بعض الناس على خداعه وأخذوها بحجة استثمارها ، وأنكروها تماما .

وها نحن مع محمد على مشارف قريتـه ببيوتها المصنوعة من سـعف النخيل والحصر ، ويتوقف عند مقبرة القريـة حيث يستوقفه نشيج امرأة تبكى على قبر وهى تعدد محاسن فقيدها « يورد الكاتب بعض النماذج » . ولا يمشى محمد قبل أن يواسى المرأة لكنها تزداد بكاء ، ان صـوته يشبه صوت فقيدها ، ويأخذ محمد بيدها ويقف على المقبرة ، ويفكر فى الموت ، اذا كانت هـذه النهاية فلماذا يظلم الناس بعضهم بعضا ؟ انه يتذكر أعداءه فيقف على المقبرة سابا لاعنا مقسما على انتقام يتحدث عنه الناس ويكتب فى القصص ، والا ما كان من صلب والده ، لكنه يهدأ عندما يرى كلبا يلهث من الحر ، فيحادثه ويلاطفه كأنه انسان : « لقد ضاق قلبى بكل هؤلاء الناس ؟ وددت لو كنت مثلك ، انكم لا تنصبون الحيل لبعضكم ، لو تعلم ما فعله بى « كريم حاج حمزة » كل ما معى من نقود سـلبها . النقود التى

شقيت فى سبيلها عشرين سنة « ثم يقطع قضمة من الكعك الذى حمله لأولاده ويرمى بها الى الكلب قائلا : « كل أيها الحيوان ، انك مستحق بالفعل مثل أطفالى » ويأخذه معه الى منزله .

تتعرف الى منزل محمد ، انه مدهون بالملاط فهو يحسب من منازل الأعيان ، ونلتقى بزوجته « شهرو » وهى تعد طعام الافطار وبينهما حديث حب ، تحاول أن تثنيه عن عملية اصطياد الثور ، الا أنه لا يستمع اليها ، من للأرملة المسكينة صاحبته ؟ ثم هبى تمسك فى مكانها ، انها تطلب منه أن يحمل بندقيته معه احتياطا ، لكنه لا يرضى ، اذا مات الثور فكأنه لم يفعل شيئا ، من أين تتعيش اذن صاحبته المسكينة ؟ وعندما قاربت الشمس المغيب ، كان محمد يسحب الثور الهائج خارجا به من بين النخيل ، بعد موقف يعد من أعظم ما صور فى الأدب الفارسى المعاصر .

أرأيت أيها القارىء الكريم كيف صور الكاتب بطل الرواية وكيف قدمه لنا ، كيف ألقى الضوء على بعض حياته الماضية واحتفظ ببعضها الآخر ليقدمه عندما تستدعى متطلبات الرواية ؟ كيف صور شخصية محمد وجوانبها عن طريق المواقف لا عن طريق السرد ؟ علمنا اذن أن محمدا شهم وشجاع وبسيط ونصير للضعفاء والمظلومين وعرفنا أنه انسان محبوب ، فهل يا ترى نستطيع بعدها حين نلتقى بمحمد القاتل أن ندينه ونحكم عليه ؟ لنتابع الرواية اذن لنرى كيف تحكم علينا منطقية الأحداث ؟

***

ويدخل محمد فى دور الاعداد لجريمته أو انتقامه كما يسميه ، ومن المعهود فى مثل هـذه الظروف أن يخفى من يزمع أمرا كهذا سره حتى عن أقرب الناس اليه ، لكن ما بال محمد ؟ ان الظلم الذى حاق به بلغ من شدة وقعه على نفسه أن يتحدث به حتى الى الموتى

والكلاب فهل يكف عن الحديث الى من يهمهم الأمر ؟ انه يطرق باب منزل خاله وحميه بليل ، ويفزع الخال لدخول محمد عليه فى هذه الحالة ، ان الهموم تبدو عليه بصورة اشد رغم الابتسامه الدائمة المرتسمة على وجهه ، انه يلقى بعزمه لخاله دون مقدمات : « يجب أن أقتل الأربعة : كريم حاج حمزة والشيخ أبا تراب وآقا على كجل ومحمد كنده رجب هكذا جميعا » • وتدور مناقشة بين الشيخ والشاب ، يذكره بيوم القيامة . لكن محمدا يعرف يوم القيامة جيدا ، والله أيضا أمر بقطع أيدى اللصوص وعندما يكون اللص شيخا يؤم الناس فى الصلاة فالقتل أوجب • انه يستودع خاله زوجته وأولاده ، وهل دبر محمد لكل أمره ؟ أجل : ان الأمر أمر الله ، وما دام الله يريد ذلك فليكن ، ولكن لم كل هذا العناء ؟ ليس الأمر أمر النقود ، هكذا يرد ، صحيح أنه اكتسبها من خدمة الانجليز ، وصحيح أنه يعيش ، الا أن استهانة اللصوص به وسخريتهم منه فوق أى اعتبار ، حتى الشيخ زور وحكم بالظلم ، وانسان حقير مثل محمد كنده رجب يتلو عليه الأشعار فى غفلة القرويين ، والناس يسخرون منه ، ويضحكون من خلف ظهره ، ليس هناك من شىء يعلو كرامة الانسان وشرفه • فاذا سأله خاله : والأطفال ؟ أجاب : انه يفعل ذلك من أجل أطفاله ، أجل ينبغى أن يربى الانسان أطفاله ، لكن ليس بلا كرامة ، بعدها لن يستطيع أحد أن يمد يده اليهم بظلم ، انه لا يستطيع أن يرفع رأسه أمام أهالى بوشهر ، فكيف سيتحمل أطفاله هذا الذل ؟ كل ما يتبقى منه لأطفاله وزوجته ، فان تزوجت آل كل شىء الى الأطفال ، ويودع خاله ويعود الى كوخه •

نجد أنفسنا بعد ذلك فى كوخ محمد ، ويا لها من ليلة شهدها هذا الكوخ الذى كان هادئا ساكنا ، طفلاه نائمان ، لكنه لا يغمض له جفن ، انه يصرخ ويهذى دون انقطاع ، ويقوم فينظر فى السماء الى نجوم « الدب الأكبر » انه يسميها الاخوة السبعة لأنها لا تفترق ،

ويقارنها ببلطته ، ويخرج خنجره ثم بندقيته ويقوم بتنظيفها ويخـاطب زوجته قائلا : هل رأيت بندقية بهذا الجمـال قبل الآن ؟ والمرأة قلقة على زوجها ؟ خائفة وملتاعة ، تحس أن شيئا ما لا قبل لحياتهم الآمنة به سـوف يحدث ، ما له ولهذه الأشياء التى نسيها منذ زمن ؟ لقد آن لأسلحته أن تخرج من مرقدها ، ان أمام محمد سفرا طويلا ربما الى البحرين أو قطر أو زنجبار ، وتجهش المرأة بالبكاء انه ضاق منهـا ومن حياته معها ، الا أنه يصرح لها بأنه ينبغى أن يصفى حسابه . لقد باع الدكان وباع الدار ، ان لم يعد فى الغد عليها أن تحمل الأطفال وتذهب الى منزل والدها ، وان هرب عليها أن تستعد لذلك ، لقد اشـترى قاربا ربطه الى الشاطىء ، وعليها أن تحمل اليه ما يلزم وتنتظره فى المساء ، لا نكوص عما عزم ولا عودة ، ويسود الكوخ هدوء شامل ، انها نائمة على جنبها تفكر ، صـورة محمد تغيب عن خيالها قليـلا قليلا ، وتبكى على الأمل الكبير والعمر القصير ، ان محمدا يواسيها وعيناه لا تريمان عن النجوم ، ينظر الى أكواخ القرية ويخاطبها قائلا : « نحن أهـل تنجستان دائمـا مظلومون ، كل هـذا كلام فارغ ، الا ينبغى أن يظهر انسان يمحو كل هـذا الظلم من أساسه ؟ ويخلعه من جذوره ؟ لو لم أوجد أنا كل رجال تنجستان سوف يكونون آباء لأطفالك ، ولقد حدثت والدك ، وظله عليك ، انتى مثل الحسين بن على أذهب لأنال حقى ، وليس دمى أغلى من دمه » انه لو لم يفعل لتاه مجنونا فى الصحراء وتحدثه عن حبها له وأن العـالم كله لا يعدل شعرة واحدة من شعره ... ثم لا تبقى نجمة واحدة فى السماء .

أرأيت هذه الصورة التى يعرضها الكاتب دون زيف أو تزويق ؟ ثم أرأيت تطور حديث الزوج والزوجة من التلميح الى التعريض الى التصريح الى الاقناع ؟ ثم أرأيت فوق ذلك كيف نجح الكاتب فى مزج الصور الطبيعية بالصور النفسية لنرى أننا أمام صـورة من صـور

الحياة تقلها الكاتب بصـــدق فنى رائع قل أن يتوفر فى كاتب ايرانى معـــاصر ؟

***

ثم نلتقى بمحمد فى الفجر يسير فى شوارع « بوشهر » يرتدى ملابس الحراس وهو يتقلد أسلحته ، كان كل من يراه يظن أنه امتهن الحراسة ، وهكذا كان يجيب ، وانك لا تصلح لبيع الأرز ، هـــكذا كان يجاب ، اشترى محمد ملابسه ، وطلب أن تصلح لباسا وكفنا فى الوقت نفسه ، وها هو يتبادل الأحاديث مع الباعة والسابلة ، كلهم يسألونه عن وجهته ، وبعضهم يسأله عن قضيته وماذا تم فيها ، وهو لا يجيب الا بقوله : وماذا يفعل الثعلب بين براثن الأســـد ؟ ولا يدرى أحد من الثعلب ومن الأسد ، ويطيل أحـــد الباعة فى الحـــديث انه يوصيه أن يسلم أمره فيهم لله ، ويجيب محمد ساخرا : أجل ولحضرة عباس ، ويمضى متأففا ، كأن الناس جميعا يتعجلونه ، أحدهم يوصيه بأن يرفع شكواه الى أحمد شاه (١٩١٩ — ١٩٢٤) فيجيب ساخرا : ان أحمد شاه لا يعلم هل تتبع بوشهر بلاد العرب أو بلاد العجم .

ويمضى محمد فى طريقـــه ، انه يريد أن ينتهى من هـــذا الأمر بأسرع ما يمـــكن ، لقد ضـــجر من كل شىء ، وها هو يصـــل الى ضحيته الأولى : كريم حاجى حمزة وعلى باب دكانه يلقى السلام ، ويرد الرجل بسلام فاتر متبوع ببصقة ، وكأنمـــا يريد أن يعجل فى أجله ، وها هو يعبر عن ضيقه برؤية وجه محمد فى الصباح . ولاشك أن هـــذا تعبير الحلم السيىء الذى رآه ليلة الأمس ، ويقيس محمد المكان بعينيه ، لعله روع بمنظر الرجل الذى سيصير كومة من اللحم بعد لحظات ، ولعل جانبا من رحمته الطبيعية قد تحرك فيه وثناه لحظة عن اتمام هذا الأمر ، فاذا به يطلب من الرجل مبلغا من النقود لأنـــه مســـافر ، وها هو الرجـــل يعامـــل محمدا كأنه شـــحاذ ، فلا يحس

الا بماسورة البندقية تحت ابطه ثم تنطلق الرصاصة وينتهى كل شيء •
لم تثر فينا تلك الشخصية التى ظهرت لدقائق الا النفور لقد منحه محمد الفرصة الأخيرة الا أن الرجل تركها تفلت منه وأسرع الى مصيره ، ان القارىء ليحس أن الرجل هو الجانى وأن محمدا هو المجنى عليه •

وبعد سقوط الضحية الأولى ترتفع الأصوات من السوق : لقد نال محمد التنجستانى ثأره أخيرا ، وترتفع الأصوات : سلمت يداه • ولم يبق أمام محمد الا أن يواصل انتقامه ، ان قتل واحد مثل قتل أربعة على كل حال •

ويمضى محمد الى ضحيته التالية : الشيخ أبى تراب • ان الشيخ فى منزله يجلس الى منضدة عليها بعض الأوراق والأقلام ، ولا يكاد ينظر الى محمد حتى يحس أنه ينظر الى الموت مجسدا ، فقد الشيخ لسانه وبيانه الذى طالما خدع به الناس وسلبهم أموالهم ، مات الشيخ قبل أن يموت ، وتدوى الطلقة ، ويخرج محمد وفى اثره امرأتان : تقيده احداهما من الخلف وتمسكه الأخرى من مكان حساس ، فلا يجد بدا من ضربهما معا بالبلطة ، ويخرج من الدار فتبصره قطة تفر مذعورة ، وينظر محمد الى هيئته المخضبة بالدم فيخاف من نفسه ، ويخرج الى الطريق مهددا كل من يتبعه بأنه سوف يجر الوبال على نفسه ، الا أن الناس لا يهمهم الا الحديث عن القتيل الذى جاء الى بوشهر منذ عام واحد فقط أثرى خلاله ثراء فاحشا ، ان محمدا يتحول قليلا قليلا الى بطل شعبى ويطلق الناس عليه اسم « شير محمد » أى محمد الشجاع أو الأسد •

ويذهب محمد الى الضحية الثالثة : محمد كنده رجب ، أحقرهم فى نظر محمد ، وأكثرهم بذاءة ، انه يجلس مع انسان آخر يصرفه

بهدوء ، ويصمت رجب وهو يرى الموت يحوم فوق رأسه ، لقد رأى الموت أكثر من مرة ، وعاصر طاعون بوشهر ، لكنه لم ير الموت قريبا منه الى ذلك الحد ، كان يريد أن يشتم محمدا ، لكن فمه انفتح وانطبق دون أن يخرج منه صـوت ، وها هو يرتعد ، ولا يجد محمد ازاء هذا الجبن الا ان يفرغ فى صـدره أربع رصاصـات ثم يمضى الى حال سـبيله •

لقد زاد تجمع الناس ، لكن ليكن ما يكون ، من تبعه سيكون دمه رواء لحصى الشارع ، لم يبق من العصافير الجبانة الا عصـفور واحد ، وها هو يدق الباب ويرتفع صوت من الداخل : من ؟ فيجيب : خادمكم محمد وترد امرأة : عد غدا ان السـيد متعب فيقول قولى للسيد اننى أحضرت ما طلب من نقود ، ويسمع الرجل فيقول لها : قولى له أن يصعد ، لا يسأل المرأة عن الطريق الى الحجرة ، انه يعرفها جيدا ، كم تذلل فيها وكم تضرع وكم التمس ، بذل كل شىء فى سبيله الى النهاية ، بعدها سوف يرحب حتى بالموت ، كان آقـا على مضطجعا يقرأ المثنوى ، فلما دخـل عليه اعتدل فى جلسته ، كان هنـاك ذباب يملأ الحجرة ، سأله بلهفة : كم أحضرت فأجاب محمد : ما يكفيك تماما وأفرغ رصاصـة • « وابتلع الهول الحجـرة ، وتضرجت جثث الذباب الساقط فى المصـيدة بالدم ووقعت المروحة من يد الرجـل ، وانقلب كتاب المثنوى ، وأغمى على المرأة فوقع من يدها كوب الشراب وصار بددا فى الحجرة » •

وخرج محمد ، ان الشارع خال الا من جماعة قليلة من النـاس ينظر اليهم محمد ضاحكا ، وعلى البعد يسمع أصوات الناس سلمت يداك يا شير محمد • كانت الشوارع تتحدث عن بطولة محمد ، كان الجميع يعرفون الا الشرطة ، وعلى رأس الحـارة يستوقفه جنديان ، يهشان له ويبشان سائلين : هل نويت أن تعمل شرطيا يا أخ : سمعنا أن

جناية قتل وقعت فى السوق ، فيرد دون أن تتحرك شعرة منه : أجل تشاجر رجلان فقتل أحدهما الآخر • انتهى الأمر اذن ، لم يحرك واحد من الضحايا ذرة من عطفنا عليه كان كل منهم فى اللحظات التى ظهر فيها مثيرا للنفور ، مستحقا للقتل ، وكأنهم كانوا جميعا مصرين على الذهاب الى الجحيم دون أن يتخففوا قليلا من ذنوبهم •

***

نعود الى « شهرو » زوجة محمد ، ها هى عائدة من الساحل بعد أن نقلت الى القارب ما أوصاها محمد بنقله ، وبعد أن دفنت فى الرمال ما أوصاها بدفنه ، دخلت كوخها وأغلقته على نفسها وجلست ، كل شىء باهت ومشلول ، مات كل شىء بذهاب محمد ، أصبح الكوخ خاليا ، نقلت كل ما يستحق النقل الى القارب ، فقط لو عاد محمد حيا كانت تريد أن تصرخ : أيها الناس مات محمد فتعالوا ننح ، انها تعانق بخيالها كل ما كان لمحمد ، لم تكن تدرى ماذا تصنع ، من العسير أن تواصل حياتها العادية ، انها تحس أنها فى نزل ، ليس المنزل لها بيع المنزل وبيعت الماعز وعما قليل يأتى صاحبها لاستلامها ، لم تعد حتى تطيق النظر الى وجوه أطفالها ، فقد أصبحت تحس فى وجوههم سحنة اليتامى •• يأتى الرجل ويسوق الماعز : انه يثنى على ذكاء محمد الذى باع كل شىء ليستثمر أمواله فى المدينة ، والأولاد لا يصدقون •

عند الظهر تسمع شهرو سنابك الخيل تتوجه الى كوخها ، وعلى باب الكوخ يترجل جنديان ، أحدهما آذرى ينظر اليها ويسأل عن زوجها ، وتعلم شهرو لأول مرة أنه قتل ستة أشخاص وهرب ، وتنزل الكلمة على قلبها بردا وسلاما ، ويقسم الجندى الآذرى أنه سيعثر عليه حتى وان كان نجمة فى السماء • ولأول مرة فى يومها تحس شهرو بالجوع ، انها تقوم فتعد الخبز بهمة ، وذهب الجندى الآذرى

الى العمدة ، بينما جلس الجندى الآخر الذى نكتشف أنه تنجستانى من خلال تبادله الحديث مع الزوجـة ومن تعاطفه معها ، انه هو نفسه معجب بمحمد ، انه لن يرفع عليه بندقيتـه أبدا وليكن ما يـكون . اما الجندى الآذرى فهو مصر على تفتيش الأكواخ واحدا واحدا ، والعمدة يثنيه ، لا فائدة فيما يفعل الا أنه سـوف يثير الناس عليه ، انه يمر مع العمـدة على الأكواخ بينما يجلس الجنـدى التنجستانى يتجاذب أطراف الحديث مع طفل محمد ، ولا يلبث الجندى الآذرى أن يصل ، وتحذره شهرو من محمد ، من الخير له أن يقلع عن فكرة القبض عليه ، وهو مصر ، يطلب من الجندى التنجستانى أن يتبعه للبحث بين النخيل ، لكن الجندى يتقاعس ، من العسير أن يقبض شخصان فقط على محمد ، عليهما أن ينتظرا حتى تصـل قوة من المدينة ، وجلس الجنديان ، وظل الأهالى يتجمعون حول كوخه ، بينما يقسم العمدة بأغلظ الأيمان أن محمدا لا يمكن أن يعود الى القرية ، والا من الذى سمع عن قاتل قتل ستة أشخاص ، ثم عاد واختبأ فى منزله ؟

***

حينما أنهى محمد مهمته كان يعرف مقصـده تماما : كان عليه أن يختفى حتى المساء ، ثم يمضى الى حال سبيله ، ولا مكان أصلح لهذا الاختفاء الا دكان ذلك البقال الرومى « أساتور » الذى تربطـه به صداقة قديمة . ويذهب الى البقال فى دكانه ، وينكر البقال هيئة محمد الذى يعترف له بكل شىء ، وفى حروف قليلة يعرض عليه خطته ، ان أجاره فيها والا سار لتوه ، ويرد الرجل : الى أين والشـوارع مملوءة بالجنود ؟ . لكن الدكان ليس بالمكان المنـاسب للاختفـاء ، ان محمدا يقف وراء سـتار ، وما من حـديث على أفواه المشـترين الا ما فعله محمد ، والرجل يفيض معهم فى الحديث حتى بات محمد يشك أنه فى سبيل تسليمه ، وحين يخلو الدكان من المشترين يعود اليه، عليه أن يمضى الى الحجرة العلوية للدكان ، لكن ليس بعد أن يرسل

صبيه فى عمل ما فالصبى لا يؤمن • وقد يفلت من فمه ما يؤدى الى القبض على محمد •

يتكور محمد فى الحجرة الصغيرة وسلاحه الى جانبه ، ان الحجرة لا تمنحه حرية التنفس لو فتح الباب فسوف يظفر بقدر من الهواء ، ولكن صبى « أساتور » سوف يعرف مكانه ، جلس القرفصاء ووضع ركبته بين قدميه ، أخذ العرق يخزه وكأن نحلة دخلت بين ملابسه ، خيل اليه أن زمنا طويلا قد مر على فعلته ، بدأت صورة زوجته وأطفاله تنمحى من خاطره ، انه لايزال يتذكر منظر الكوب المكسور على الأرض ، والشراب المراق المخلوط بالدم ، والقطة التى فرت هلعا من منظره وهو ملوث بالدم ، أخذت أمواج سوداء كأمواج البحر تحيط برأسه ، وهو فى السفينة برسوبوليس ، والسفينة كثمرة القثاء تغوص فى موج البحر وتطفو ، وهو يمسك بدفتها بكل قواه خشية أن تنقلب منه ، ثم رأى نفسه فى منزل الشيخ أبى تراب وقد طعن بخنجر مدبب أخرجه من جسده ، وأخذ يعدو والدم يتدفق منه ، ثم رأى نفسه ثانية فى البحر ، زوجته وطفلاه متعلقون بطوق تتلاعب به الأمواج ، وفى حجرة القبطان كان هناك ضبع نائم ، وكان كريم حاجى حمزة ينام فى أحضان الضبع والدم يسيل منه ، ثم رأى رجلا انجليزيا جاء يشترى من « أساتور » وهو وراء الستار ، لقد رأى أساتور يشير الى الستار ، وها هو يطلق الرصاص على أساتور والانجليزى ، وطوفان من الأمواج يحيط بالسفينة ، ثم تستقر فى قاع البحر ، كان قاع البحر مضيئا كأنما أشعلت فيه آلاف الشموع والأعشاب كاليراعات ، ثم يرى جنود الحكومة يحيطون به وأربعة من الذئاب تحيط بشهرو والأطفال ، وهو لا يجد اليهم سبيلا ، ثم ركل الصناديق بقدمه وفتح عينيه ، ليجد نفسه وجها لوجه أمام « اسماعيل » صبى « أساتور » •

يقف اسماعيل وقد جحظت عيناه ، ويقف محمد فى مواجهته

مهددا بسلاحه ، ثم يضع السلاح الى جواره ويجر الفتى الى الحجرة ويضربه حتى ينهار الفتى ، فيوسده بيديه ويخرج فيحضر له كوب ماء ، فلم يلبث أن عاد الى وعيه ، لقد سمع صوتا فى الحجرة فظن أن لصا تسلل اليها ، ويسأل محمد : وهل تعرفنى فيجيب الفتى : لعلك أنت الذى يقولون عنه ! . اذن أنا هو • ان اسماعيل يتقبل الأمر وكأنه شرف ما بعده شرف أن يشترك فى اخفاء محمد ، بل يشير عليه أنه من الخير ألا يعرف سيده ، فهو ليس مسلما وقد لا يحفظ السر ، ويشير على محمد بخطة للهرب مضحكة ، ويدله على ما يدور فى المدينة، ان الناس كلهم فى صفه ، والحكومة لا تملك الا عشرين جنديا نصفهم من تنجستان • ان الفتى ينصرف ليعد طعاما لمحمد ، ويخبره محمد أنه يستطيع أن يهرب وحده ، والويل له ان فكر فى خيانته •

فاذا انتقلنا الى الفصل التالى وجدنا أنفسنا لازلنا فى منزل أساتور ، الخادم يحتال ليأخذ أكبر كمية من الطعام وهو يفكر فى محمد ، والبقال يفكر فى نفس الشىء ، وكلاهما يظن أن الآخر لا يعرف ، ومحمد قابع فى مكانه يحس ويسمع والاطمئنان يغمره ، الا أن الأحلام السوداء التى رآها فى هذيانه لازالت تؤرقه • ويبدأ اليأس يدب الى نفسه ويحدثها قائلا « لقد نفذت ما أردت فالى الجحيم بكل ما عدا ذلك ان أربعين سنة من الكرامة خير من مائة سنة من الذل » • وحين تخف الأقدام يصعد اليه « أساتور » ويضع له الطعام ، ويخبره أن الليل قادم وأنه سيخبره فى حينه ، ولكن من أسف أن الليلة مقمرة •

ويرتد محمد ثانية الى ذكرياته ، الى الأيام التى تعرف فيها الى أساتور ، لم يكن يظن يومها أن يوما سوف يأتى ويكون على ما هو عليه الآن ، أكل دونما شهية ولعبت بطنه ، وأحس أنه يريد أن يقضى حاجة ، وينزل السلالم ثم يعود بسرعة ، ويأتى اسماعيل هو الآخر

ببعض الطعام ، ويعرض على محمد أن يهرب معه فان اثنين لن يثيرا الشك فيشكره محمد ويربت على كتفه ، انه يود لو يترك المكان فى التو واللحظـــة ، لقد تعب من الانتظـــار المر ، وتظهر الفئران فى المخزن فيلقى اليها ببعض الطعام ، ويبتسم ان فى بوشهر فئرانا تتحدى القطط وتحاربها ، ويفكر حينما يكون الانسان ميتا فى القبر ســـوف تفعل الفئران بلحمه هكذا ، وحينذاك لن يستطيع المقاومة • ويأتى الليل ويصرف أساتور خادمه بعد اصرار من الخـــادم على أن يبيت فى المنزل ويصعد الى محمد لقد جاء الليل اذن ، ويودع محمد أساتور بين دموع الأخير وينزل الى الزقاق •

أرأيت فى هـــذين الفصلين كيف وازن الكاتب بين الأحـــداث الخارجية والصور الداخليةالتى كانت تترى على ذهن محمد ؟ أرأيت كيف سيطر على العلاقة بين الخـــادم والسيد وكلاهما لا يدرى أن الآخر يعلم بوجود محمد ، ويريد أن يخفى عليه الأمر ؟ أرأيت كيف استخدم صنعة الحلم استخداما يخدم سير الرواية ولا يسىء اليها ؟ فاذا بنا نعلم من أحلام محمد كثيرا من أحـــداث حياته المـــاضية التى ألقت الضوء على كثير مما خفى علينا ؟

***

ميناء بوشـــهر ساكن صامت ، كأن كل من فيه موتى ، ســـكن الناس وهجعوا فى بيوتهم بعد أحداث هـــذا اليوم الحافل • محمد يسير وحده فى الشارع ، المكان غاص بالجنود ، فيحاول ألا يمر من أمام القنصلية البريطـــانية ، ويلمح جنديا يريد أن يحشو بندقيتـــه ، من أين أتوا بهؤلاء الجنود الأحداث ؟ ويشتبك فى عراك صامت معه ويكيل له الضربات ثم يأخذ بندقيتـــه ويمضى « بســـلاحين يمكن أن يكون رجلين » ويمضى فى طريقه الى البحر ويتبعه جنـــديان ، انه لا يريد أن يشتبك معهما ، ان أحدهما يأمر أن يلقى بســـلاحه ، ولكن

هل يلقى الرجل بسلاحه ؟ ويطلق عليه الجندى الرصاص ولكن بعد أن يكون قد ألقى بنفسه فى المـاء .

ويعود بنا الكاتب الى قرية محمد ، حيث جلس القرويون حول كوخ محمد فى ضـوء القمر . كان الجندى التنجستانى يغالب النوم ، بينما كان الجندى الآخر خائفا بدأ يحس بالغربة أمام العيون الغاضبة التى تحيط به : ان الجندى التنجستانى يحـاول أن يقنعه بالانسحاب من هـذه العمليـة ، وليس عليه أن يخشى المـأمور . فلاشـك أن المـأمور نائم الآن بعد أن سكر كعادته ، على الجندى الآخرى أن يخاف من أهل تنجستان خاصة فى الليل ، فان الله وحـده يعلم ماذا يدبرون الآن ، ولا يقر للجندى الآخرى قرار .

ولنعد الى محمد . ألقى محمد بنفسه فى المـاء ، وها هو يغالب الأمواج يتخلص من البندقية التى سلبها والتى تقيد حريته ، ويسبح وسط المـاء فهو قرب الساحل الضحل الذى لا يصلح للسباحة ، انه يسخط على القمر الذى جعله يضـع رأسه تحت المـاء لا يرفعهـا ، وهو خائف من قوارب الصيادين التى ربما تأتى لصيد السـمك ، وخائف من وحوش البحر التى ربما تشتبك معه ، ولا تلبث أن تشتبك معه احداها بالفعل فيترك خنجره فى أحدها ويمضى يغالب الأمواج وتخور قواه ، ويفقد الأمل فى نجاته ، الا أن موجة قويـة تأتى اليه فتحمله ويجد نفسه قريبـا من الشاطىء فيدب فيه الأمـل ويبدأ فى السـباحة .

كانت شهرو تجلس صامتة أمام الكوخ ، نام الأطفـال وظلت ساهرة تنقل نظراتها بين أهـل القرية وجنود الحـكومة ، انها تتمنى ألا يكون أحد من أهل قريتها موجودا ، انها تعلم أنهم جاءوا لمساعدة محمد لكنها بدأت تقلق ، ، انها تذكر كل مزايا محمد وكأنهـا تقدم التماسا الى الله أن ينجيه ، ثم لا يلبث أن يصـل ستة من الجنود على

رأسهم المأمور نفسه ، انه ساخط يسب ويشتم وفوق ذلك فهو ثمل ، يتعرض لعرض شهرو فتخمش وجهه وتضربه ، ويعلو صوتها من داخل الكوخ فيتجمع أهل القرية ، وينظر الجنود الى بعضهم بعضا برعب ، ويأتى العمدة فيناقش المأمور ، من المستحيل آن يأتى محمد الى القرية بعد ما فعل ، ثم يظهر محمد خلفهم جميعا ، ويهددهم جميعا فيلقون بأسلحتهم ، ولا يخضع المأمور للتهديد ، ويلقى الجنود التنجستانيون بأسلحتهم ، ويتقدم شاب من أهل القرية فيجمعها ويلقيها تحت أقدام محمد ، ويغمى على المأمور ، وتخرج شهرو من الكوخ تحمل أطفالها ، ويمضى محمد وأسرته نحو البحر ، والجنود يتبعونه بأبصارهم ، وأهل القرية خلفهم ، وتركب الأسرة القارب ، والقرية كلها تلوح خلفهم داعية « يحفظهم الله » •

***

وتنتهى الرواية • رواية محمد الذى كان مظلوما فى أول الرواية ثائرا فى وسطها . بطلا لا يشق له غبار فى نهايتها ، ان محمدا الذى حارب الظلم وحارب الطغاة وحارب جنود الحكومة ثم وحوش البحر وخرج من كل هذه الحروب سالما معافى ليذكر بأبطال الشاهنامه ، يذكرنا برستم واسفنديار ، لقد أخذ چوبك الحادثة ، وحاول آن يكتب عملا مليئا بالرموز • يمجد البطولة بينما لم يقص مواطنه الكاتب رسول برويزى القصة فى آكثر من خمس عشرة صفحة لم يلبس محمدا فيها أيا من هذه الرموز ، لقد أراد چوبك آن يقول ، ان محمدا كان بطلا شعبيا وكان مناضلا ، ولم يكن مجرما ونجح فى ذلك بالفعل •

لقد كتب الكاتب تحت عنوان الرواية « رواية فارسية » فهل نحن أمام رواية فارسية بالفعل ؟ الواقع أننا لا نلتقى خلال الرواية الا بكل ما هو ايرانى لغة وشخوصا وأحداثا بحيث تصدق صفة الكاتب التى أحبها لروايته بالفعل •

ولم يبق ما يقال الا أن المؤلف استفاد كثيرا من مدارس الرواية المعاصرة ، وصوره واضحة بكل أبعادها ، والرواية من أصلح الروايات للاخراج السينمائي وكنت حين قرأتها منذ عشر سـنوات تمنيت أن تخرج للسينما ، فلما شاهدتها فيلما ايرانيا آسفت للرواية التى جردت من رموزها وشوهت معالمها ولم تعد تخرج عن أفلام المغامرات العادية التى ما انفكت السينما سواء فى مصر أو ايران تدور حولها •

٥ ـ زوج السيدة آهو

على محمد افغانى

ظهر افغانى الى الوجود الأدبى الايرانى بروايته الضخمة « زوج السيدة آهو » التى اثارت ضجة أدبية فى ايران والعالم ، وبالرغم من ذلك ليس بين ادبنا ما يعين فى التعرف الى حياة الكاتب الأدبية او الفعلية ، وفى احدى زياراتى الى ايران حاولت لقاء افغانى ، الا اننى فوجئت بانه لا يلتقى باحد ؛ وانه يقوم باعمال تجارية لا صلة لها بالأدب ، ومن اسف ان كل من كتبوا عن الرواية لم يكتبوا شيئا عن الكاتب .

صدرت للكاتب روايتان بعدها : السعداء فى وادى قره سو ، واللفت فاكهة الجنة ، وهما دون مستوى « زوج السيد آهو » بمراحل.

هذا العمل الأدبى الذى أقدمه عرف أول ما عرف من خلال البلاغات الأدبية والنقدية المتتالية ـ اذا جاز هذا التعبير ـ وليس من خلال نصه الأدبى ، والواقع أن النقاد فى البداية صمتوا عن الرواية تماما ، حتى اذا حركتهم الجماهير التى كانت فى حاجة الى نص أدبى

يحرك مشاعرها بعد فترة من القحط والجدب ، طفق النقاد بحماس شديد يتناولون جوانب الرواية بالمدح والاشادة .

والواقع أن حماس النقاد كان صادرا من اعجاب لا تشوبه شائبة بالرواية وبالرواية فحسب ، فلم يكن كاتبها من أصحاب الأسماء اللامعة فى عالم الأدب والصحافة ، بل لم يكن له اسم على الاطلاق ، ولم يكن من أصحاب المناصب الذين يتقرب الناس اليهم مهما كان الغثاء الذى يكتبونه ، لم يكن الدارسون والنقاد يعرفون شيئا عنه ، وهل هــذا هو أول عمل أدبى له ، أم أنه نشر شيئا قبل ذلك بالفعل ، والواقع أن الكاتب الذى ولد بهذا الحجم « رواية فى حوالى ٩٠٠ صفحة لأول مرة فى تاريخ الرواية الفارسية ولعلها آخر مرة أيضا » جدير بأن يثير كل هذه الأسئلة .

والنقد الذى يصل الى حد المبالغة والحماس الذى يصل الى حد الاحالة قد يضران بالكاتب ، اذ يقبل القارىء على الرواية وقد وقر فى نفسه أنه بسبيل عمل كامل أو قريب من الكمــال ، ومن ثم تباينت الآراء بين الصف الأول من النقاد ، والصف الثــانى الذى أقبل على الرواية مفتوح العين والذهن لا يغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها .

ففريق صعد بالكاتب والرواية الى السماء السابعة ، فهو فى رأى نجف دريابندى : « كاتب حاد النظرة لا يدرك أدق أحاسيس البشر فحسب ، بل ويدرك أحاسيس الحيوانات أيضا ، الى جوار أنه لا يقسم الناس كعادة الكتاب الرومانسيين الى خير وشرير ، وانما يبقى الانسان انسانا مهما ارتكب من جرائم « وهو فى رأى آخر » مــلا فراغا فى الرواية الفارسية كان موجودا بالرغم من ظهور رواية عيناها لبزرج علوى (لم أعثر على الرواية المذكورة أخيرا لأسباب لا داعى لذكرها). ويواصل سيروس برهام : ان الرواية تعد دائرة معارف اجتماعيــة

واسعة للعادات الاجتماعية والمجتمع الايرانى . انها ليست رواية مدينة أو رواية أسرة ولكنها رواية حياة ، والمشاكل التى تواجه أبطالها ليست مشاكل فردية ، والأبطال عاديون جدا لا يبدو عليهم أثر الصنعة قد تقابلهم فى الشارع وقد تتعرف اليهم فى جيرانك ، والى جوار ذلك فالرواية نموذج واقعى وتحليل عظيم لقدر المرأة فى ايران . كل ذلك عبر عنه الكاتب بقوة ناشئة عن التأمل الشخصى والتجربة ، وذلك بلغة عظيمة وبأسلوب كلاسيكى قديم يذكر القارىء بروايات بلزاك وستندال وديكنز وتولستوى . أما الدكتور محمد على اسلامى ندوشن فقد ركز اهتمامه على لغة الكاتب : « ان الرواية هى أعظم الروايات التى كتبت فى اللغة الفارسية ، فمن أول صفحة فى الرواية الى آخر صفحة فيها نلتقى بالمصطلحات الشعبية ، ويصف الأحداث فى لغة جميلة لا ينفد جمالها ، وذلك فيما يبدو لأن الكاتب أعد نفسه بذخيرة جيدة من المصطلحات قبل أن يبدأ رحلة الرواية الطويلة ، أجل اننا اذا استثنينا هدايت العظيم فلن نجد مثيلا لأفغانى فى استخدام العامية فى اثراء الفصحى بتعبيرات جديدة جميلة وجذابة فى نفس الوقت الى اللغة الفارسية ، وفوق ذلك فنظرة الكاتب مثل نظرة العقاب ، وليست الرواية هامة من الناحية الأدبية فحسب ، ولكنها هامة أيضا من الناحيتين التاريخية والاجتماعية ، انها تشعرنا أنه لا ينبغى علينا أن نفقد الأمل فى ايران ، أجل ففى لحظة غير متوقعة ستحدث أشياء مثيرة للدهشة .

ولم تلبث الرواية أن اختيرت ككتاب سنة ١٣٤٠ هـ.ش. (١٩٦٠ م) من قبل جمعية الكتاب فى ايران ، ثم تعدت شهرة الرواية الحدود فاعتبرها بيتر آفرى أستاذ الأدب الفارسى فى جامعة كمبردج نداء أدبيا جديدا موجها من ايران الى العالم ، واعتبرها كميسروف عضو الأكاديمية السوفيتية احدى روايات ثلاث تعبر عن ايران المعاصرة خير تعبير .

علمنا اذن أن الرواية على اتساعها وطول نفسها تعد الانتاج الأول لشاب لم ينشر له قبلها حرف واحد ، وبالتالى فسوف تصادفنا فى الرواية بعض الهنات التى لن تقلل من شأنها ، وأهم هذه الهنات بلاشك أن الكاتب كان ينسى فى بعض الأحيان أنه يتحدث على لسان أبطال حظهم ضئيل من الثقافة أو معدوم ، فكان يجرى على ألسنتهم محاضرات عميقة فى الأدب والفلسفة ومدارس الفكر الشرقى والفكر الغربى مما قلل الى حد كبير من عمق النزعة الواقعية فى الرواية كما لاحظ الأستاذ حسان كمشاد فى كتابه « النثر الفنى فى الأدب الفارسى المعاصر » ، ومع ذلك احتفظ الأستاذ كمشاد للمؤلف بدور المؤرخ الاجتماعى العظيم لفترة تعد من أعقد فترات التاريخ الايرانى المعاصر ، وهى فترة ما بين الحربين ، وذلك بأستاذية وفن ودون الوقوع فى الأخطاء التى وقع فيها أصحاب المدرسة القديمة فى الرواية الفارسية المعاصرة .

يبقى بعد ذلك انطباع القارىء العادى بالرواية ــ ولأدخل فى زمرة هؤلاء القراء العاديين ــ فنحن أمام عظيم بلاشك ، عظيم فى تناوله للأحداث اليومية العادية التى قد تقع للانسان العادى فلا يحس بها ولا تستوقفه ، وعظيم فى أخذه بناصية الأحداث وعدم انفراط خيطها من يده واحتفاظه بالتشويق الواجب للرواية من بدايتها الى نهايتها ، هذا اذا استثنينا الصفحات الأولى التى تعد تمهيدا للرواية وان كان تمهيدا يخدم الحدث ولا يخل به . وهو عمل عظيم فى لغته وفى تعبيراته التى لا يمسك بأطرافها الا من تعمق باللغة الفارسية العامية ، تلك العظمة التى انتبه اليها المرحوم محمد معين فجعل الرواية أحد مصادر قاموسه العظيم الذى وضعه للغة الفارسية ، وعظيم أيضا فى اضفاء أحاسيس فياضة من شعور الكاتب على الأحداث العادية ، وعظيم فى استغلاله للأحداث التاريخية فى خدمة الرواية ، وعظيم من ناحية اللمسات الانسانية التى تصادف من القارىء الوجدان

والشعور ، ومن ناحية التحليلات النفسية التى تصادف من القارىء العقل والتفكير ، وسوف يحس كل من عاش فى منزل يحتوى على زوجتين لرجل واحد أن الكاتب قد اقترب من نقاط دقيقة قد يغفل عن ادراكها من عاش هـذه الحياة ــ أما عن عيوب الرواية فسوف أتعرض لها خلال عرضى للرواية .

***

نحن فى مدينة كرمانشاه فى ظهر يوم من أيام شتاء ١٣١٣ هـ.ش. (١٩٣٨ م) ، الشمس تجاهد لازالة ثلوج الليلة الماضية والمدينة تحيا يوما عاديا من أيام الشتاء ، المهنة ينصرفون الى أعمالهم والتلاميذ الى مدارسهم . ويقف بنا الكاتب أمام دكان خباز ، وبعد أن يصف الدكان وجو الدكان نلتقى ببطل روايتنا « سيد ميران » تتعرف الى سيد ميران من خلال حديثه مع بعض زملائه فى المهنة ومن خلال هذا الحديث نعرف الكثير عن سيد ميران ، نعرف أنه نقيب الخبازين، وأنه كان من المقرر عقد اجتماع للنقابة الا أنه أرجىء لما بعد العيد لأن شهر رمضان ليس من الأوقات المناسبة لهذا الاجتماع بالرغم من أن هذا الاجتماع على جانب كبير من الأهمية فالنقابة أمام قرارات اتخذتها الحكومة لا عهد لهم بها من تقسيم لحصص الحبوب وتحديد الأسعار وما الى ذلك . وينصرف الزميل لنلتقى بشخصية أخرى من شخصيات الرواية ولماذا لا نقول انها أهم الشخصيات جميعا ؟

اننا لم نعرف شيئا عن هـذه الشخصية حتى الآن ، الا أنها امرأة تلتف بعباءة بيضاء ، ولم نعرف منها الا أطراف أصابعها التى مدتها لأخذ الخبز من سيد ميران ، وان كنا نشك كثيرا أنها قدمت لشراء الخبز فقط ، ان بعض التصرفات الصغيرة تجعلنا نرفع حاجبينا دهشة مثل سيد ميران بالرغم من أنه سيد « لقب يعطى فى ايران لمن ينتسبون الى آل البيت النبوى الكريم » ورغم أنه صائم ورغم أن

أخلاقه بشهادة كل من يتعاملون معه لا تشوبها شائبـة ، وتنصرف المرأة ، ولنتحدث عنها من الآن بالاسم الذى سنعرفه فيما بعد « هما » ويفرغ سيد ميران أو مشهدى سرابى لاجترار أفكاره عن المرأة عموما وعن لابسة العباءة البيضـاء خصوصا ، وندرك من خـلال تتبعنا لأفكاره بأنه لم يكتف بحفظ الأجزاء الظاهرة من زينتها فحسب ، بل يتخيل فيما بينه وبين نفسه ما فى المرأة من جمال خفى لم يره ولم نره نحـن •

وتأتى نفس المرأة فى اليوم التالى الى دكان سيد ميران وهى تحمل طفلا ، ولأمر ما ينطلق الطفل بالبكاء والعويل ، عويلا يخرج حنـان سيد ميران من عقاله ، فاذا به يداعب الطفل ويرسل فى طلب الحلوى له ويسألها عن الطفل • ويتصل حبل الحديث ، حديث نعلم منه الكثير عن « همـا » ، فاذا بها منفصـلة عن زوجها ، قد حرمها من رؤيـة أطفالها ويا لها من أيام قاسية تعيشها • وتحدثه عن حياتها المـاضية مع ذلك الزوج القاسى ولم تترك صفة من الصفات السيئة الا وألصقتها به ، وخـلال حديثها لا تنسى بين الآن والآخر أن تصلح من وضـع عباءتها لتكشف من جوانب جمالها وأن تدلل الطفل بلهجـة فى غاية الرقة تحرك كوامن الرجل ، ثم تتحدث عن الزوج القاسى الذى أجهضها فى شـهرها الرابع وعن أفكاره بشأن المرأة ، ورغم أنها لا تختلف عن أفكار سيد ميران نفسه الا أنه يتعاطف مع المرأة • وتشير الى جمالها الذى لم يسبب لها حسن الحظ وسـيد ميران يعزف معها على نفس الوتر ، ويقترح عليها أن تبحث عن زوج جديد ، وهى تنكر وتنكر ، وسيد ميران مشتت الذهن لا يعرف ان كان قد أخـذ من المشـترى الأخير ثمن الخبز أم لم يأخذه وتنصرف « همـا » • مثل هذا الحديث بين امرأة محجبة ورجل داخل دكان يبدو مستغربا الا أننا حين نتقدم فى الرواية لا نتعجب من أى سلوك منها •

فاذا انصرف سيد ميران من عمله وانصرفنا معه الى المنزل تعرفنا معه الى أسرته حيث يقدمها لنا الكاتب فى جلسة عادية لا زيف فيها : آهو زوجته وكلارا « ومعناها بالكردية عين » كبرى أخواتها ، ثم « بهرام » فى التاسعة من عمره ويزن فى السادسة ومهدى وهو فى السنتين من عمره أو يقل عن ذلك ، نجد أنفسنا فى الجو العائلى لأسرة سيد ميران ، الزوجة آهو تمنع أصغر الأولاد من مشاكسة أبيه أثناء الصلاة وبحنانها المعهود فالطفل هو قرة عين الأسرة خاصة وقد أصيب بمرض لم يشف منه الا بعد يأس ، وينتهى سيد ميران من صلاته ، ويتحدث مع زوجته حديثا عاديا ، انه يريد أن يخرج لكنها تخبره أنهم فى انتظار ضيوف ، ومع ذلك تحس آهو أن شيئا ما غير معهود فى سلوك زوجها . فهو لا يهش للصغير كعادته ، لكنها لا تنكر شيئا وتلتمس له عذرا من متاعبه فى العمل ، وتقوم فتعد الطعام ، وتجتمع الأسرة حول الطعام فى تلك الساعة التى لا تعدلها ساعة فى هنائها .

نعم : ان توفيق الرجل فى عمله ، وحسن تدبير المرأة داخل منزلها أقاما تناسبا عظيما فى المنزل ، كما كان الرجل دقيقا فى عمله ودودا سخيا عطوفا ، كانت المرأة داخل المنزل تفيض على جيرانها الفقراء ببعض ما أنعم الله عليهم به . وكما تتعرف الى الأسرة تتعرف الى هؤلاء الجيران الفقراء الذين يستأجرون بعض حجرات منزل سيد ميران الواسع ، تتعرف الى المرأة « تقره » وزوجها « كل محمد » العاطل ومع ذلك يغيب عن المنزل لمدة شهور تاركا زوجته دون مئونة ، وتتعرف الى « تنه بى بى » وابنتها « رعنا » اللتين تقيمان فى المنزل وتساعدان آهو فى بعض شئونها .

فى هذا الفصل تتعرف الى بعض جوانب حياة « سيد ميران » مثل زيارته لمشهد ، وبعض مشاريعه القادمة بشأن شراء حديقة وبناء

طابق آخر فى المنزل ونغوص فى ذهن سيد ميران وهو ينظر الى أسرته راضيا ومتذكرا ماضيه : من كان يظن أنه حين لقائه بتلك المرأة آهو أن الزمن يخبىء له كل هذه السعادة ؟ فى تلك الأيام كان يعمل فى حدائق كرمانشاه المسماة « سراب » بستانيا فى الصيف وعاملا فى الطواحين شتاء ، ولم يكن يرى عارا فى بيع الفواكه فى الطرق ، كان فى الخامسة والثلاثين وقد بدأ الشيب يدب فى رأسه من تجارب الحياة المرة ، وكانت هى الأخرى يتيمة تعيش مع خالتها وزوج خالتها حياة قاسية ، نعم رحبت بالزواج به وهى التى وجهته الى العمل خبازا ، وهى التى فتحت معه الدكان ، كان رأس المال « طستا وصاجا » استعارتهما من خالتها ، كانت تقوم على أمر الدكان بينما كان هو يسعى فى جلب الحبوب ، كلاهما كان ينام فى الدكان « لم تكن النقود التى يكتسبانها نقودا ، لكنها كانت عصارة روح هذين الزوجين خاصة آهو » أجل : لو لم تكن آهو لكانت حياتهما الآن مثل حياة جيرانهم : نقره وزوجها أو خورشيد وزوجها الذى لا يعمل الا فيما ندر ، ويعتمد فى عيشه على حماته العجوز التى تغزل الصوف هذه الأسرة وابنهم « محمد حسين المصاب بقراع لا شفاء منه » تكون صورة من الشقاء الى جوار صورة أسرة سيد ميران السعيدة ، لكن ألم يذق سيد ميران الشقاء ؟ أجل ذاق مرارة الشقاء ، الشركة فى العمل والاستئجار فى المنازل ، والنظرات المتعالية ممن هم أعلى منه ، واستطاع بعد ذلك أن يثبت مركز آهو بشراء منزل لها وأن يثبت وضعه فى السوق بزيارة الامام فى مشهد ، وأن يثبتا من مركزيهما معا بمشاركة الناس فى حزنهم وفرحهم ، لم يبق الا أن آهو تريد أيضا زيارة مشهد وهذا أمر متيسر ، استطاعا أن يأخذا المكانة فى المجتمع ، هو فى الرجال وهى فى النساء ، انها الآن سيدة بكل معانى الكلمة كأنها لم تحمل طستا ولم تنم فى دكان ! انها حياة مثالية جديرة بالرضا ، لا مجال فيها للتطلع .

وتتعرف أيضـــا الى بعض أصـــدقاء الأسرة وأهمهم ميرزانبى القطاطرى وزوجته هاجر ، هما فى زيارة الى منزل سيد ميران ، هاجر تداعب آهو حول ما كونته من ثروة من خلف ظهر سيد ميران وترد آهو « بأن الكافر يظن الناس كلهم على دينـــه » فميرزا نبى يعمـــل بالتهريب والاحتكار وزوجته تساعده فى ذلك ، وينتقل سيد ميران الى الحديث عن مشاهداته فى مشهد ، وتتعرف أيضا الى « كربلائى عباس » وزوجته « ناز برى » من أصـــدقاء الأسرة الذين يقيمون فى نفس المنزل . وينتهى هذان الفصـــلان دون أن يقدما لنا جديدا من الأحـــداث .

هذان الفصلان يقدمان لنا البيئة التى ستجرى فيها أحـــداث الرواية وشخصيات الرواية ، سماتها الخلقية والجسدية ، وهذا يدل على أن الكاتب لم يتخلص من هـــذه العادة وهى عادة تقديم الروايـــة تقديما مسرحيا ، انه لم يقدم لنا الشخصيات من خـــلال الأحـــداث كما فعل چوبك ، بل اعتمد على السرد ، وكثيرا ما كان يلتقط الخيط ويتدخل بشخصه معلقا أو مفسرا مما جعل بعض النقاد يظن أنه أجرى على لسان الأبطـــال ما لا يتناسب معهم وانما كنا سنصادف هـــذه النقيصة كثيرا فيما بعد . نحن الآن مستعدون لندخل فى الرواية وتتابع أحداثها ، حياة سيد ميران الهادئة التى وصلت الى بر الأمان ، تتعرض قرب الشاطىء الى عاصفة تلقى بها فى أعماق اليم ، ولم تكن هـــذه العاصفة الا : « همـــا » .

***

لم يكن حديث سيد ميران الطويل مع هما فى الدكان بلا نتيجة اننا نلمح من حديثه العادى ومن تصرفاته الصغيرة أن شيئا ما لايزال لا يدريه قد دخل حياته وفى ذلك المساء بينما كان سيد ميران عائـــدا من منزل صديقه لمحها ، أجل رغم مشاكله ميز تلك المشية ، ويدخل

بنا الكاتب فى حديث عن تعدد الزوجات فلا يجد مبررا الا أن الرسول الكريم كان يميل الى النساء ومن ثم فهذه أيضـا خصلة فى نسله ، ولن تتعجب من هـذا الموقف من الكاتب اذا صادفنا فيما بعد مواقف أشد سخفا واحالة ، ان سيد ميران المسكين لا يفكر فى « همـا » كامرأة جميلة ، لكنه يفكر فى شقائها وتعاستها ، وهو يتبعها حتى يعرف منزلها ، ثم يتحدث اليها وترى أنه بالفعل شقى لشقائها ، انها حقيقة مطلقة لكنها تعيش فى منزل مشبوه ، وهى تفكر فى الانتحـار لأنهـا لا تستطيع أن ترى أطفالها ، ان هنـاك من يدفعها الى امتهان الرقص بالرغم منها ، كل هـذا الحوار يدور فى الطريق ، يعدها سيد ميران أنه سوف يعود اليها فى اليوم التـالى ، انه سـوف يستخرجها من هذه البؤرة وهو جدير حقا بذلك الدور ، دور المنقذ ، لكن مـاذا ستفعل ان خرجت من المنزل ؟ ستبقى أيضـا مشكلتها بلا حل ، لكن هذه المشكلة فى رأى سيد ميران ليست جديرة بالمناقشة ، ان الطريق الى زوجها لم يغلق بعد ، ولا تجد « همـا » ازاء كل هذه الشهامة الا أن تقارن بين هـذا الملاك الكريم سيد ميران وزوجهـا السـابق حاجى بنا ، ولا يجد سيد ميران الا التفكير فى هـذا الوجه الطفولى المعذب الذى ستره واياه رداء الليل ، وتحدثه عن الرجل الذى هو بصدد التباحث معه من أجلهـا ، وتحذره منه ، انه سينفق كثيرا فى سبيل اتمام هـذا الأمر ، ولكن : أليس تحرير امرأة من ذل رق يساوى نفقات الذهاب الى مشهد ؟ ان الفن الذى ستقوم به لا ينظر اليه بعين الرضـا فى ايران ، ويتجرأ الكاتب فيسـوق على سيد ميران رأيه فى الفنون عامـة ، ويتجرأ أكثر فيسـند رأى سيد ميران هـذا الى الاسلام ، ولا ندرى من أى كتاب أو سنة اشتقه أو من أى مجتهد سـمعه ؟ « وهمـا » تدق على الوتر الحسـاس ، ان حسين خـان الطبال ــ وهو اسم الرجل الذى يدفعها الى امتهان الرقص يدفعها الى ما هو أشـد وأنكى : الأفيون والشراب ، انه يضن بها على أن ينظر

اليها أحد ، وتنسى همـا حذرها ، ان والديها اشترياها من الغجر وهى تحب الرقص طوال عمرها ، الا أنهـا تتوق الى الحيـاة الطـاهرة الكريمة • ان « همـا » تلقى الطعم لسمكة عمياء سرعان ما تبتلعه ؛ ان هـذا الملاك الحـارس سيد ميران يثور ثورة مضربة : هل يظن حسين خان هـذا أن المملكة بلا صاحب ؟ أو أنها بلا قانون ؟ سوف تسمع جوابه الواضح فى الغد ، وتنتهى هـذه المناقشة التى جرت فى الطريق فى مدينة كرمانشاه الصغيرة ومع ذلك استغرقت من الكاتب أكثر من‌عشر صفحات ، انها تترك سـيد ميران ناضجا تماما وجاهزا للأكل ، انه يفكر : عجيبة هـذه الدنيا ! لمـاذا يكون جمال المرأة سببا فى شقائها ؟ انها مثل الدابة التى ترعى المرع تنتج أحلى اللبن ، كم سيكون الزوج الثانى لهذه المرأة سعيدا ، انه لا يحس بأى تردد فى أن يزج نفسه فى أوساط الطبالين والراقصـات فى سبيل هـذه المهمة المقدسة ، انه يشعر بشعور الشهداء والقديسين ، مسيح على الصليب ، انه جالس فى فراشـه يدخن السيجارة تلو السيجارة ، وفى اليوم التالى يكون فى منزل حسين الطبال •

يقابله حسين خان وهو يشك فى أمره ، كيف يكون موفدا من قبل زوجها وهى طالق ثلاثا ، وتأتى « همـا » وهى تدعى الخجل ، كيف ذلك ؟ ما دام قد طلقها فلمـاذا يريدها ، انها تريد أولادهـا وبعدها يأتى ويتفاهم مع حسين خان ، لم يكن حسين خان موجودا ، وبذهب سيد ميران اليه فى دكانه ، انه الرجل الذى يملك زمام أمور « همـا » ، كيف ؟ ! لا ندرى ، انه أبرع وأكثر خبثا مما كان يظن سيد ميران ان « همـا » فى رأيه لم تخلق لرجل واحد ، ليس من الخير أن يذوى هـذا الجمال بين جدران أربعة ، ويتحدث حسين خـان الطبال عن الفن حديثا شاعريا مليئا بالأمثلة من الأدب العالمى ولكن « ما علينا » ، انه يلمح لسيد ميران أن سيد لا يسعى الا من أجـل نفسه ، وهى ليست لائقة به ، انها لائقة فقط بعشيقها « البرز » الذى

لا يدرى أحد من أى مكان أتى ، وسيد ميران ينكر على حسين خان الفهم الذى يرمي اليه ، مهما كانت « همـا » بالنسبة له فهى ليست أهم من سعادة منزله وأطفاله ، عليه اذن أن يدبر الأمر مع حاجى بنا زوج « همـا » السابق وبعدها يستطيع أن يأتى الى حسين خان .

فى الموعد التالى يذهب سيد ميران الى منزل حسين خان ، كان الأخير يدرب تلاميذه ، ويجلس سـيد ميران فى انتظاره ، تنسـاب الألحـان الى أذنيه فتحمله الى عوالم أخرى ، لقد أعد للأمر عدتـه ، حمل من النقود ما يكفى دفع النفقات التى أنفقها حسين خان على « همـا » ، كما حمل لها صندوقا من الملابس ، كانت « همـا » هى التى تتدرب على الرقص بحركات خلعت قلب الرجل خلعا ، هل قال لها حسين خان انه قادم ؟ وإلا يعتبر ما تفعل نقضـا للعهد ؟ انه يشاهد الرقص ويغرق فى أفكار عميقة ، لا ندرى للكاتب أم لسيد ميران ، وفى النهاية يعتبر خروج « همـا »من هـذا المنزل خسارة ما بعدها خسارة . ان الرقص فى وجود « همـا » قدر لا مفر منه ، لقد كان الرجل صادقا فى الصباح .

ولكن : هكذا قال سيد ميران بلسانه ، وربما كان تحت وطـأة الحالة الشعورية التى كان عليها فى منزل حسين خان . أما الأيـام التالية فاننا نشهد تطورا فى شعور سيد ميران الداخلى ، لقد تركها حقا لكنه ينتظرها فى دكانه كل يوم ولا تأتى ، ما هـذا ؟ هل هى تتلاعب به ؟ أم أن أحدا غير رأيها ، مر أسبوع على زيارته الأخـيرة لمنزل حسين خان تلك الزيارة التى خرج منها بلا نتيجة ثم ما ان رأى حسين خان فى الطريق ذاهبا الى الطبيب حتى أسرع الى المنزل للقاء « همـا » ، ولقيته بوجه متجهم ، لـماذا غضب من رقصها فى ذلك اليوم لقد كانت ترقص لتودع الرقص ، ان حسـين خـان لم يمرض الا لأنها صممت على مغادرة المنزل ، وهـكذا سرعان ما اتفقت مع

سيد ميران على أن يستضيفها فى منزله مع زوجته وأولاده حتى يرى ما هو راء بشأنها ، عليه أن ينتظرها فى منزله وتأتى على أنها مستجيرة به بعد طلاقها وسوف يلحق بها طفلاها ، لكن سيد ميران على طول ما انتظر لم تهل « همـا » بطلعتها ، انه يحس فى أعماق قلبه بالشوق اليها والقلق من أجلها ، ويحس بجرح عميق على أنها قابلت سلوكه هـذا بالجحود من جانبها ، ماذا بها ؟ أهى مريضة ؟ بالتأكيد لا ، لابد أن شيئا ما قد حدث ، لقد كانت مصممة تماما على الخروج من ذلك المنزل ، لابد أن يذهب متخفيا ليرى ماذا فى الأمر ، ليس من الخير أن يراه أحد يتردد على هـذا المكان ، ثم يتردد ، ثم يطلب من نفسه الصبر ، أجـل الصبر ، الى أين سيذهب ؟ والى أين ستصير أموره ؟ تمنى من صميم قلبه ألا يكون قد قابل المرأة وألا يكون قد تعرف عليها ، فى الأيام الأولى كان قد أنفق عليها الكثير ، لكن لا يهم « افعل الخير وارميه فى البحر » ، ويزداد الصراع حدة فى نفس سيد ميران ، يحدث نفسه : أنت شيخ يا سيد ميران لو كنت قد تزوجت فى سن مبكرة لكان أحفادك الآن يتحلقون حولك ، ولكن ألا يجعل العشق قلب العجوز شابا ، وضح الخفاء وصارح سيد ميران نفسه بحقيقة الأمر لأول مرة .

فى الطريق يقابلها سيد ميران فيسرع اليها بلهفة ظاهرة ، ولكنها ليست وحيدة ، انها مع زوجة حسين خان ، كلتاهما لا تجد ثمن دواء المريض ويسرع سيد ميران فيشترى الدواء ، ويلحق بـ « همـا » وتفهم زوجة حسين خان الأمر فتوصى « همـا » بالتعجيل بالذهاب ، ان مثل هـذه الفرصة لا تلوح فى العمر مرتين ، ان سيد ميران ينتظر « همـا » ويغرق ثانية فى أفكاره وتردده : أكانت تعيش وحيدة حقا فى الدار ؟ . لا يهم ، ان الحب يظهرها له فى أحسن تقويم ، فاذا جاءت « همـا » وسألها عن سر غيابها ، أجابته : كيف تذهب معه الى منزله ، وماذا يقول الناس فى هـذا الوضع غير الطبيعى ؟ ويحاول

سيد ميران أن يهون عليها الأمر ، ولكن « همـا » خائفة ومشفقة ، وسيد ميران مندفع ومندفع حتى تأتى سيرة الزواج على لسانه عفوا ، وتلتقط « هما » الخيط ، ماذا تفعل لو أن زوجته لم ترض بوجودها ؟ لا ، انها كالحمل الوديع « وهمـا » تعلم ذلك الجانب الذى علمنـاه نحن جميعا فى سيد ميران : عدم تقديره للأمور وطيبته الزائدة عن الحد ، انها تضرب على النغمة الأخرى ، من الخير لها أن تموت ، ان زوجها الأول وقد أخذها من أهلها عاملها هذه المعاملة ، فكيف بزوجها الثانى الذى سـوف ينتشلها من هـذه البؤرة ؟ انها لا تستطيع أن تعتدى على أسرة سيد ميران وعلى زوجته وأطفالها والاسم الذى كونه فى سنين ، الا أنها بعد ذلك كله فى يده عليه أن يصنع بها ما يشاء ، ويحس سيد ميران بغرور الرجولة فيبتسم ، ويعرض عليها أن يعقد عليها عقد نكاح للمتعة « ويثير الكاتب نقاشـا حول المتعة ذكر من خلاله كل آراء المحبذين وآراء المعارضـين مما يضيق المجـال عن ذكره » ويرفع سيد ميران رأسه بعد تفكير عميق متسائلا عن مصـير زوجته وأطفاله ، لكن ما لها ولزوجته وأطفاله ، انهـا لم تتحدث عنه لا تلميحا ولا تصريحا انها فى حاجة الى « ظل رجل » لكن دون أن يكون ذلك على أنقاض بيت آخر لكنهـا سـتكون خادمة لزوجتـه وأطفـاله .

ويقاوم سيد ميران ولكن أية مقاومة ؟ ان صـوته يتهدج وكأنه غلام فى السادسة عشرة من عمره ، وتسوق « همـا » الدلال وهو منوم ، فتضربه الضربة تلو الضربة وكأنه ملاكم وجد خصمه يخور أمامه ، كانت صيدا فى نظر سيد ميران لكنها كانت أمهر من الصياد . فى النهاية يطلب أن تنتظر يومين ، سوف يفكر فى حل آخر من أجلها ، لكن أى يومين ؟ لقد خرج سيد ميران وهو مصمم على أخذ « همـا » الى منزله ، مهما تحمل فى سبيل ذلك ومهما قال الناس .

ثم نجد أنفسنا فى منزل سيد ميران مع آهو وجيرانها ، حيث تشكو نقره من ولدها وتكاسله فى العمل فتنبرى آهو وتلقنها درسا طويلا فى كيفية تربية الأولاد لا تستطيع دكتورة فى التربية أن تلقيه « وآمنا بعده بالطبع أن الكاتب يفهم فى التربية » وفى هـذا الجو العادى جدا تبدو « همـا » فى الأفق ، يدخل بها سيد ميران وهو مطأطىء الرأس ويقدمها الى زوجته على أنها امرأة طلقت وطردت من منزلها فلجـأت الى المسجد حيث عهد له الامام بها ، ان هنـاك حجرة خالية ينبغى أن تجهز لها على الفور ، ان آهو تشـعر بالقلق ، أى مسجد وأى امام ؟ ترى هل رأى وجهها من خلف الحجاب ، أجل لابد أن يوضح زوجها الأمر وفى نفس الليلة ، وحين تسأل زوجهـا يتهرب من الجواب قائلا انه ليس من الذوق أن يسألها ، ثم حين تصر على السؤال مذكرة اياه بالجيران ، يخبرها ببساطة أنه سيسعى الى اصلاح ذات البين بينها وبين زوجها وهو ما لم يكن سيد ميران يفكر فيه بالمرة ، كما أنه لم يكن قد اتخذ قرارا قاطعا بشأن وجود « همـا » فى المنزل الا أنه سيمتع نظره بهذا الجمال .

تستمر اقامة « همـا » فى منزل سيد ميران أسبوعين . أعصـابه تزداد سوءا يوما بعد يوم ولا يدرى من أين يبدأ ، كانت « همـا » قد ثبتت وجودها فى المنزل ، وكانت تتعامل مع الأسرة والجيران وكأنها تعرفهم منذ سنين ، وفى نفس الوقت بدأ سيد ميران يمازحها فى المنزل وبدأت « همـا » تسأله بوضـوح وصراحة ، ماذا ينوى بشأنهـا بالتحديد ، ولكن ماذا كان ينوى بشأنها بعد أن نبت حبها فى قلبـه كالبذرة الحرام وأخذ يمتد بجذوره يوما بعد يوم ، انه يتساءل دائما بينه وبين نفسه : أية امرأة هـذه المرأة ؟ كيف استطاعت أن تستحوذ على كيانه فى هـذه الفترة ؟ احساسان أخذا يتجاذبان سيد ميران وهو بينهما كالقشة : حبـه لـ « همـا » وخوفه على « آهو » والأولاد ومكانته فى المجتمع ، ولكن تصرفات سيد ميران رغم الصراع الذى

كان يعانيه كانت ترجح كفة حبه لـ « همـــا » دائما انه يعود الى المنزل فى فترات متقطعة من اليوم ويتعلل للبقاء فيه أكبر وقت ممكن ويفتح مناقشات طويلة تأخذ فيها « همـــا » صفه دائما أما « همـــا » فقد

الحياة ، لكن مـــاذا تفعل وقد سدت فى وجوهها أبواب العودة الى زوجها الى الأبد ، وحرمها أيضا من أطفالها ، لم يعد أمامها الا الاعتداء على حق المرأة المسكينة المضيافة آهو وتسرق منها زوجهـــا ، وها هى تخرج صور أطفالها وتنظر اليها وتبكى ، وها هى آهو تسرع اليها مواسية حانية تربت عليها وتبشرها بالأزواج والعشاق يرتمون تحت أقدامهـــا ، وهنا فقط تتمنى « همـــا » لو أنها وجدت زوجـــا غير سيد ميران ، الا أنها لا تنسى أن تصلح من زينتها قبل أن تذهب الى مائدة الغذاء .

وتمر الأيام ، لا يبدو على « همـــا » أنها تريد أن تغادر المنزل ، ولا خبر هنـــاك عن أقاربها التى قالت انها أرسلت فى طلبهم ، بل هى تتحدث عن قريتها الكردية حديث الساخر الذى لا يود أن يراهـــا فضلا عن أن يعيش فيها ، أما آهو فكان شـــكها يزداد : ان هـــذا الوضع غير طبيعى ، لايمكن لضيفتها أن تستمر على هـــذا المنوال الى الأبد : لو فقط تقنع بالجلوس فى حجرتها كأية ضيفة وطعامها يحمل اليها ، ان الحيـــاة فى الأسرة خرجت عن مجراها الطبيعى ، زوجهـــا ينام فى حجرة وحده وأطفالها معها و « همـــا » فى حجرة ، ان الشـــك يزداد فى قلبها ، مرة تجد خصلة من شعر غريب فى حجرة زوجهـــا ، ومرة يحدثها « ميران » الصغير بما لا يستطيع من هم فى سـنه أن يختلقوه ، الا أن المرأة لا تنفرد بسيد ميران أبدا ، انها تنادى طفـــلا للجلوس معها كلما كانت وحيدة ، أكانت تتهرب من زوجها كارهـــة

أو مذكية نار الهوى فيه ؟ كم أصبح الرجل كريما ومضيافا وبشوشا في تلك الأيام ، حتى الأطفال ينفقون النقود ذات اليمين وذات اليسار ، حتى مصروف المنزل تدخلت فيه « همـا » ان آهو تفاتح زوجها ، لمـاذا لم يأت أقرباؤها ؟ ولا يملك سيد ميران الا أن يرد من بين دخان سيجارته : ربما كان هؤلاء الأقرباء خرافة ، وتفكر آهو : ان الأمر لا يهم سواها ، وعليها أن تكشف النقاب عنه .

تزور آهو منزل « همـا » القديم ، أخطأته مرة ووجدته مرة ثانية ، هى أخت زوجهـا التى سـوف تكشف النقاب عن المـاضى القديم ، ان أخت زوجها تهاجمها بعنف ، أحقا انها تبكى من أجـل أولادها ؟ لمـاذا لم تحافظ على شرفها وسمعتها اذن بعد أن غادرت منزلها ؟ بل لمـاذا هربت من زوجها فى الأصـل فى سبيل شاب أشقر أزرق العينين ؟ليس من الخير أن ترى أطفالها ، ماذا تستطيع أن تقول لهم ؟ لابد لآهو أن تخبر زوجها . وتعود آهو وتفاتحه ، وتثير فى نفسه الخوف ، انه لا يدرى ماذا تدبر له المرأة ، هو المتدين الطيب القلب ، ان المرأة تخرج كثيرا ولا يدرى أحد الى أين ، ولا يجيب سيد ميران الا بتقطيبة ، لقد سألها مرة الى أين تذهب فأجابت أنهـا تبحث عن حجرة لأنهـا سئمت العيش فى بيوت الغربـاء ، حتى اذا اشتدت آهو فى التكير لا يملك الا أن ينـادى « همـا » ويسألها فتنبرى له آهو متحدثة بما توصلت اليه من معلومات ، انها تخاف أن ترتفع بطنها وهى فى منزلهم ، ويصـدم سيد ميران ، لم يكن يتوقع كل هـذا من وقار زوجته ، وتأتى « همـا » ، وأمام الزوجـة أخذت فى مطاردة الفريسة ، والرجل فى حال غير الحـال ، لم تكن « آهو » تظن أن الرجل متيم الى هـذا الحد ، ثم تضرب الرجـل الضربـة القاضية ، انها مستعدة للعودة الى زوجها على الا تتدخل أخت الزوج فى حياتها.

فى اليوم التالى حبسنهم الثلوج عن الخروج ، وكان من الواضح

أن الحرب أعلنت فى البيت ، ان آهو تستدرج « همـا » فى الحديث ، فلا تحصـل منها على شيء وتحـاول أن تحرك فى سيد ميران البقية الباقية من نخوته وتخوفه من الجيران فلا يرد الا أن الجيران جهلة وأغبياء ومن صفاتهم كذا وكذا وكيت وكيت ، فاذا ذكرتـه بأن له ابنة ، أفصح عن كل أغراضـه دفعة واحدة ، انه أيضا ضائق بنظرات الناس على المقهى ، ولابد من وضـع ما للمرأة فى منزله : متعـة ، مصيبة ، داهية ، أى شيء ، لابد من تصحيح الوضـع ، ان شرفه فوق كل شيء • وترسل « آهو » تستدعى « همـا » من غرفتهـا للغداء ، وضح الخفاء ، ما كنت تخشى منه قد حدث ولا داعى لانعزالها فى حجرتهـا •

ولكن أية ليلة نابغية باتتها الأسرة ؟ آهو فى مرقدها كلمـات سيد ميران تتضخم أمـام عينيها ، وسـيد ميران يغوص فى أحـلامه السيئة ، « وهما » فى حجرتها تحس فى قلبها بردا وسـلاما ، لقد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفها ، وفى الصباح تحـاول آهو أن تصلح ما أفسدته وأن تطمئن سيد ميران وقد ظنت أن موقف الخوف فحسب هو الذى سـوف يدفعه الى تصرف ما ، لكن سيد ميران مكفهر يرى أن مرآة حياتهما قد أصيبت بخدش ، وأن الكلمات التى تفوه بها بالأمس فى سورة غضبه هى خير ما يعبر به عن حقيقة نفسه وهى الحقيقة بعينها ولا زيف فيها ، وها هو يفاتح زوجته فى الأمر ببساطة : ماذا ستخسر اذا جعل من « همـا » زوجة متعة له ؟ انها سيدة المنزل بلا منازع ، وهل يمكن أن تشـك فى سيد ميران بعد كل هـذا العمر ؟ أى عشق من الممكن أن يحس به ؟ لابد أن حياة المنزل الرتيبة قد أثرت فى أعصابها سـوف يأخذها بعد العيد « عيد الأضحى » الى خراسان لزيارة الامام فى مشهد ، انهـا سوف تلاحظ الأطفال فى غيبتهما ، فاذا اتهمته أن عشق المرأة قد أخذ منه عقله وأنها ليست ساذجة الى هـذا الحد ، والا فلماذا اشترى لها كل

هذه الأشياء قبل مجيئها ، هاج سيد ميران وثار ، انها لم تعرف زوجها بعد كل هـذه السنوات •

وكان صباح ، وكانت ظهيرة ، عاد سيد ميران ، وأخذ « همـا » وخرج بينما كانت آهو فى الحمـام ، حتى اذا عادا من الخـارج انصرفت « همـا » مسرعة الى حجرتها ، وجلس سيد ميران أمام آهو مطأطىء الرأس ، لم تسأله حتى عن مدة العقد المؤقت « عقد المتعة » ثم دعت له بأن يوفقه الله فى حياته الجديدة ، وألقت اليه بحزمة المفاتيح ليختار لـ « تحفته الجديدة » ما يشاء من حجرات المنزل ، قائـلة : قم واذهب الى تحفتك التى أعيتك بالتفكير كل هذه الفترة ، وها هى الأسرة تتحلق حول غداء حزين ، سيد ميران و « همـا » لا يرفعان رأسيهما ، وآهو تقدح بالشرر ، وفى الليل انصرف سيد ميران الى فراشه الجديد ، وتتحلق الجارات حول آهو يواسينها مستنكرات ، متعة ؟ لا ان سيد ميران لا يفعل ذلك ، واذا حملت فى الغد ؟ ولكن الشىء الذى لم تعرفه آهو حتى ظهر اليوم التـالى ، أن زوجها لم يعقد على « همـا » عقد متعة ، بل عقد عليهـا عقدا شرعيا دائمـا وأصبحت زوجة مثل آهو تماما ، مثل آهو ؟ لقد تمنت آهو فيما بعد من صميم قلبها أن تكون عند زوجها عشر معشار « همـا » •

***

« تأتى على الانسان بعض الأوقات لا يحب فيها أحدا ولا يريد أن يحبه أحد ، يكون ضائقـا من كل شىء ومن كل انسـان ، يكون ضائقا حتى من وجوده ، لا يميل الى العمل ولا يشتهى الطعـام ويرغب من كل قلبه فى أن ينتحى جانبا ، ويركز بصره فى نقطة ثابتة ، أو أن يلقى بوجهه الدامع على وسادة ولا يفكر فى شىء » وهـكذا كانت آهو ، لم يكن على شفتيها سوى كلمـات الرغبة فى الانتحار ، وكان سيد ميران يعرف رقة زوجته ، كان يعرف أنها حية ولكنها ترى موتها

بعينيها ، وأن الأمر ليس بسيطا أو سهلا بالنسبة لها ، ولكنـه كان يتحين الفرص للحديث اليها وتهدئة خاطرها ، فى تلك الأيام كانت حياته تسر كما هى ، ينام فى حجرته وتنام « همـا » فى حجرتها وتنام « آهو » فى حجرة ثالثة ، وها هو يدخل الحجرة ذات صباح على آهو ، يحدثها فى أمور عادية عن المنزل والأولاد ، ويعطى الأولاد مصروفاتهم ببذخ ، حتى اذا خلت الحجرة الا منه ومن آهو ، شرعت فى البكاء ، فـاذا حاول أن يبرر فعلته بأنه اشترى شرف امرأة مسكينة ، صفعته بأنه يكذب عليها ، ولا تلبث طبيعة سيد ميران أن تعود اليه ، هاج وثار : هل فعل خـلاف ما يجيز الشرع ؟ وهل انطبقت السماء على الأرض ؟ ثم يتركها لبكائهـا ويمضى . الا أن سـيد ميران مع ذلك لم يكن مستريحا الى « همـا » ، لم تكن طعاما سائغا لا يخلو من المر ، هناك بالتأكيد من معارفه من يعرف ماضيها ، صبيه « عبدل » الذى حمل بعض هداياه الى منزل « حسين خان » ، وهو أيضـا ضائق من الجارات اللائى تحلقن حول آهو يواسينها ويشتمن فى منافستها التى قابلت الاحسان بالاساءة ، فاذا انصرفت الجارات ، أفاقت آهو قليلا من الصـدمة أجل : انها شهوة وتنتهى ، ومن حسن الحظ أن مؤخر الصـداق قليل ، عليها فقط أن تعمل حتى تقصى « همـا » عن منزلها قبل أن تحمل من زوجها . لكن أى تحرك ، انها مهما تحركت لا تتحرك الا فى محيطها ، وماذا يجدى ذلك ؟

انها تشكو لجارها العجوز « كربلائى عباس » فيستمع اليهـا ويواسيها ، ويعدها بأنه سيعمل كل ما فى وسعه لاقناع سيد ميران أن هـذا الأمر وبال عليه ، ثم لا يلبث أن يقول انه لا هو ولا سـواه يملكون شيئا لسيد ميران ، انه قادر ، والشرع حلل له ذلك ما دام قادرا ، أى انسان من هؤلاء المستأجرين الفقراء يستطيع أن يرفـع عينيه فى وجه سيد ميران ؟ ان الجـارات يقاطعن « همـا » وماذا فى ذلك ؟ ولا تجد آهو بدا من الذهاب الى ميرزا نبى ، ويجمع الأخير

الأسرة فى ضيافته ، الرجل والمرأتين ، ثم يتبادل الرجـلان الحديث فلا تلمح آية بادرة تشير الى أن الرجل يريد أن ينهى الأمر وفق ما تريد آهو ، ان أقصى ما يريد أن يفعله هو أن يتعاون مع صديقه على حمل المرأة حملا على قبول الأمر الواقع ، ليست هـذه أول مرة تحدث وليست أيضا آخر مرة تحدث ، وها هى « همـا » ترتمى على أقدام آهو ترجوها العفو والغفران وأن تقبلها خادمة لها ، ويعود الجميع من الضيافة ، وقد قبلت آهو الأمر الواقع مرغمـة ، لأنهـا لا تجد بديلا ، الا أنها فى قرارة نفسها مصممة على القتال فى سبيل حقهـا الى آخر لحظـة .

ان سيد ميران فى تلك الأيام الأولى لا يرفض لآهو طلبا ، بل ويحط من قدر « همـا » أمامها ، أجـل : انها ليست الا خادمة أتى بها لكى ترفع الحمل قليلا من على كاهلها ، ويقسم بينهما الليـالى : الليـالى الزوجية للسيدة الصغيرة ، والليالى الفردية للسيدة الكبيرة ، والليلة الباقية يكون الزوج حرا فى اختيار احدى السيدتين . وتبدأ « هما » فى التفانى فى عملها فى المنزل ، وتصلى ، وان كانت آهو تقسم أنهـا كانت تخطىء فى الصـلاة ، ثم يأتى مساء كانت « همـا » نائمـة فاذا بها تتحدث فى النوم حديثا متقطعا يفهم منه أنها تحب آهو وأن الأطفـال فى مقـام أولادها ، وتوقظهـا آهو فتقبلها وتحتضنهـا ، ويحتفل الجميع بهذه المناسبة السعيدة ، ويجلسون فى أمسية هانئة ، وتظن جميعا أنه قد آن لهذا المنزل أن يعيش فى راحة وسرور ، ولكن أنى كان ذلك ؟

من التصرفات الصغيرة لـ « همـا » لا يفارق آهو تفكيرها ، هناك لابد أشياء وراء هـذه المرأة ولابد أن تكشف عنها لزوجهـا بالتفصيل ، فاذا رفضت أن تذهب معها الى حمامها المعتاد ذهبت آهو وحدها ، وتتحدث مع « الحمامية » فاذا بها تعلم عن ماضى « همـا »

كل ما هو فاضح ومخز ، وتعود آهو من الحمـام موفورة السـعادة فلاشك أن زوجها عندما يعلم كل هـذا سيسرح « همـا » سراحا غير جميل ، انها تحرص على أن تصـل هـذه الأخبار الى زوجها عن غير طريقها ، وتنتظر رد الفعل ولا شيء ، ان « همـا » توطد صلاتها بالجيران والأطفال مستعينة على ذلك بطبيعتها المرحة ، وسيد ميران يتقرب الى آهو يحـاول أن ينسيها الأمر بشتى الطرق •

فاذا كانت ليلة من ليالى آهو أخذت تدس بما تعلم لمنافستها ، والزوج يدافع عن « همـا » فاذا طلبت منه ألا يمدحها فى ليلتها أبدا ، وتواصل دسيستها يجلس سيد ميران فى الفراش ، فتثور عليه وعليها وترميهما معا بكل نقيصة ، واذا به يترك الفراش ويذهب الى حيث كان ينام أيام كانت « همـا » ضيفة ، واذا بهـا تفكر فى أن تذهب وتسترضى زوجهـا ، الا أن « همـا » كانت أسبق ، واذا بآهو تستمع الى حديث الزوجين السعيدين وهما يتشاكيان من تلك التى لا تريد أن تتركهما يعيشان فى سـعادة سويا ، ان المرأة الغبية ــ هـكذا قـال سيد ميران ــ لا تعلم أنه يعـلم كل شيء عن ماضى زوجتـه الحبيبة ، وأنها تظن أنها تأتيه بجديد ، ولابد أن تعتبر بهذه الليلة فلا تفاتحه بعدها فى ذلك أبدا ، وسمعت آهو وانصرفت وهى تسب وتشتم ، لم يبق أمامها الا السب والشتم ، ان كان ذلك يجدى ، كان ذلك ايذانا باشتعال الحرب ، فلا آهو أصبحت تطمئن الى نخوة زوجها التى أرادت أن تحركها ، ولا « همـا » أصبحت تخشى فقدان سيد ميران بعد أن سمعت منه أنه يعلم كل شيء عن ماضيها المشبوه •

فاذا كان الصباح ، انهار ذلك البناء القائم على خراب ، بنـاء التعايش بين « همـا » و « آهو » آهو تتحدث أحاديث ذات مغزى وكناية عن « همـا » ، و « هما » ترد الصـاع صاعين ، أجل انها ان كانت تحترمها قبل ذلك فلأنها كانت محترمة بالفعل ، أما ان كانت

ستبدأ فى الشجار فهى مستعدة له تماما ، وسمع سيد ميران ، آهو لا جدال هى المخطئة ، هى التى بدأت الشجار ، فاذا به ينهال عليها ضربا وشتما ، كان يريد أن يخيف زوجتيه معا ، واذا بآهو ، وقد فوجئت بهذه القسوة الشديدة ، ترد على زوجها الصاع صاعين وترتفع شتائمها فيمن كانت السبب فى كل ما حدث ، واذا بغضبة سيد ميران تبلغ أوجها فاذا به يحمل عصا غليظة ويشج رأس تلك التى كانت سيدة المنزل منذ شهر ، ويمضى عن المنزل وهو يهدد ويتوعد ، لا الى عمله بل الى مقهى حقير من مقاهى المدينة ، لم يكن نادما ، لا ولا كان عطوفا على تلك التى عاشرته فى فقره وغناه سبع عشرة سنة ، كان كل غضبه أن ما حدث حدث أمام الجيران .

فاذا عدنا الى آهو وجدناها بين الجارات اللائى تحلقن حولها يضمدن جراحها ، ويزج الكاتب بامرأة أرمنية من الجارات تلقى محاضرة طويلة عن سوء معاملة الأزواج المسلمين لزوجاتهم ، ولكن هذا الموقف الحزين ينتهى حين يصحو الصغير بيزن من النوم فيرى وجه أمه تحيط به الضمادات فيشبهها بالشيخ الذى يأتى الى المنزل ليقرأ روضات آل البيت وسيرهم المبكية ، وينفجر الجميع ضاحكين ، وترد الأم : أجل يا بنى ، صرت شيخة ، لكن روضتنا قرأها أبوك ، أى عيد هذا الذى يعده أبوك لنا !

فاذا كان المساء عاد سيد ميران الى المنزل ومعه أقارب « هما » ، عمها وأخوها ، لم يكن فرحه بهما أقل من فرح « هما » حاولت « هما » أن تحدث آهو ، لكنها لم تعرها أدنى التفات ، لم يكن قد بقى على العيد سوى أيام ثلاثة الا أن الضيوف الأعزاء بقوا أربعة أيام باصرار من الصهر العزيز ، كان سيد ميران يلبس جلد السيد الحقيقى أمام أقاربه الجدد ، يعتنى بملابسه وهندامه ، يتحدث فى كل موضوع ، وتوثقت بينهم العلاقة عندما أبدوا استعدادهم

لتوريد الحبوب اليه من قريتهم ، هــذه الزيــارة عمقت احســاس آهو بالمصيبة ، ان كان لـ « همــا » أهل يدافعون عنها ، فأين أهلها هي ؟

قضت آهو أسوأ عيد مر بها طيلة حياتها ، تجاهلها سيد ميران نهائيا ، ومهما أجهدت فكرها لم تستطع أن تصــل الى الذنب الذى جنته لتلقى من زوجها كل هذا الاهمــال ، فى تلك الأيام السوداء أحضر لها جيرانها الدخــان فدخنت ، انها لا تستطيع أن تنسى ، مهما نسيت فلن تنسى كلمات زوجها فى تلك الليلة السوداء « لا أريد أن أراها أو أسمع صوتها ، حين أكون معهــا أحس بنفسى فى سجن » أكانت هــذه الكلمات وهمــا ؟ أكانت كذبا ؟ آه لو لم تكن قــد سمعتها بأذنى رأسها ، هــذا التغير الذى أصاب الرجــل جعل كل السنوات التى عاشتها معه هباء ، هذا الرجل لا عهد لها به ولا تعرفه ، لكن كيف تنتقم منه ، هؤلاء الأطفال ؟ لا : لتحتفظ بهدوئها ولتنس سيد ميران نهائيا ، تلك الزوجــة التى جاء بها قضــاء لا دواء له ولا مهرب منه وليعد سيد ميران الى النظــام الذى بدأ به ، هــذا أقصى ما تطمع فيه ، لقد وسطت كل من تعرف ، ولم يبق الا مهدى الصغير ، ان سيد ميران يداعبه ذات يوم فيسأله الصغير : هل تحبنى ؟ فاذا أجاب الوالد بالايجاب ، سأله الصغير هــذا السؤال الساذج الذى يلخص مأســاة أمه : اذن لمــاذا لا تأتى الى حجرتنــا ؟ وفهم سيد ميران أن الأم وسطت الطفل الصغير الذى لا يفهم ، وكان أن ذهب الى حجرة آهو ، وفى نفس الليلة ذهبوا جميعا لزيارة ميرزا نبى بعد أن عاد من مشهد ، وعادت الأمور الى مجاريها ، ولكن أية أمور ؟

لم يكن سيد ميران عادلا ، فى ليلة « آهو » لم يكن يعاشرها كما يعاشر الرجل زوجته ، وها هى « همــا » تتحدث عن خوفهــا من النوم وحدها ، ثم تروج الأحاديث عمن يتعرض لها أثناء نومها ومن يريد اقتحام حجرتها ، وحين يحل الأشكال بأن تنام كلارا معها

فى ليلة أمها تصرخ فى الليلة الأولى وهى توهم الصبية أن فى الحجرة لصا ، ولم تلبث الأمور أن زادت سوءا فها هى الخطابات المجهولة تنهال على سيد ميران من الجدران تطلب منه تطليق « هما » والا الويل ، ثم أخذت الخطابات تلمز الى عمله : « انه الرجل الذى يذهب الى زيارة مشهد وكربلاء لكنه يخزن القمح أكواما فى منزله ويحجبه عن الناس » أكانت هذه الخطابات لعبة من « هما » ؟ أم كان هنالك بالفعل من له مصلحة فى طلاق « هما » ؟ ولم يلبث الخوف أن تسلل الى نفس سيد ميران ، ليس من الخير أن يلجأ الى الشرطة ، ليوصى أحد الشرطة بمراقبة المنزل ولينته الأمر ، لكن موت كربلائى عباس المفاجىء يزيد من شكوكه وخوفه ، انه يلمح الزوج السابق لـ « هما »يطاردهم أثناء الذهاب الى المقبرة ، وفى نفس الليلة يتعرض المنزل لعاصفة من الحجارة ، ويقضى المنزل ليلة مرعبة ، وفى الصباح يذهب سيد ميران الى الشرطة ، لقد كان خائفا « بدأ ينظر حوله وهو يسير ، وبدأ يعود الى المنزل مبكرا عن عادته وقبل أن يحل الظلام » ، كل هذه الأحداث لم تجعل سيد ميران يفكر فى طلاق « هما » ، ويأتى رسول من قبل زوجها حاجى بنا يطلب منها الصلح ، لكنها ترده برد قاطع أنها لن تعود الى حاجى بنا مهما كان الأمر .

ان آهو لم تيأس ، ان زوجها لم يتأثر بماضى زوجته فكيف يكون الحال ان علم أنها وهى فى عصمته ليست الزوجة الأمينة على عرضه ؟ لاشك أن الأمر يختلف ، وفى نفس الوقت كان سيد ميران يشك ، أجل انه لم ينس فرق السن بينه وبينها ، بدأ ينظر حوله ، من يا ترى الجدير من الجيران وأهل المنزل ، بأن يكون عشيق « هما » ؟ ليس هنالك أصلح من ذلك الشاب « داريوش » ، لماذا أصبح الشاب يحمل الماء من البئر المشترك للمنزل كله ، لماذا أصبح يحرص على البقاء فى الفناء أكبر وقت ممكن ؟ وها هو سيد

ميران يلمحها ذات ظهر حار تمازح « داريوش » عند البئر ، واذا به يلقيها فى المـاء والجيران يقفون بين مصـدق ومكذب ، فاذا حملها سيد ميران الى الحجرة خلعت ملابسها المبللة أمامه وأفحمته بجسدها العارى قبل أن تفحمه بقولها انه ان كان يشك فى أهل المنزل فعليه أن يأمرهم بالرحيل ، انها لا تستطيع أن تعيش فى « خان » .

ويلجـأ سيد ميران الى « آهو » ، انهـا تستمع الى زوجهـا ولا تصـدق ، لقد سمعت « همـا » تتغزل فى داريوش ورأته يتحسس شعرها ، لكن ذلك كله كان قبل العقد ، وقد رقصت معه « همـا » حين اقترحوا بعض اللهو التخفف من حزنهم على كربلائى عبـاس « يصف المؤلف هذا اللهو والرقص فى صفحات طويلة شديدة الشبه بما ذكره تولستوى فى الحرب والسـلام : وهـذا اقحام فولكورى على الرواية ، لم يكن هدف الكاتب منه الا ذكر بعض المـأثورات الشعبية فى منطقة كرمانشاه » وحين يفاتح سـيد ميران « همـا » تدافع عن حقها فى المرح ، ان الجيران يبالغون لأنهم يتعاطفون مع آهو فى كراهيتها لها ، ويفاتح آهو فتنبرى مدافعة عن الشاب ، عليه هو أن يمنع زوجته من هذه الألاعيب ، وترى أنه على أبواب غضب جديد فتصمت ، وبينما « همـا » على هذه الحـال ، اذا بصوت سقوط فى البئر ، لم يكن أحد الأطفال ، بل « همـا » ، ويخرجها سيد ميران من البئر وهو يقسم أن يلقنها درسا لا تنساه ، الا أنه حين يخلع عنها ملابسها ، ينيمها على الفراش بكل حنان .

وينتهى الأمر بأن تبحث والدة الشاب عن مسكن ، انها تخـاف على ولدها من « همـا » فاذا كان يوم الانتقال وجدنا آهو تسرع لوداع الأسرة وهى حزينة ، والأسرة تبدى من الجزع على مصير آهو وسيد ميران الكثير ، ثم تخبر أخت الشـاب آهو بأن هما تحتفظ بصورة لأخيها من الخير أن تجدها حتى لا تسقط فى يد سيد ميران

ويحدث ما لايحمد عقباه ، وتسرع آهو الى سـيد ميران ، انه يتلقى الخبر بسخط ، ليس على « همـا » بل على الجـارة ، وبعد يومين تذهب « همـا » الى الحمـام ، ويبدأ سيد ميران بالبحث عن الصورة بين حاجيات « همـا » ، وتأتى آهو ، وبعد بحث طويل تقدم الصورة لزوجها ، وجدتها فى مكان جدير حقـا بأن تخفى فيه المرأة صـورة محبوبها ، ويتناول سيد ميران الصـورة ويشتم المحبوبة الغائبة ، ثم يغمغم : ماذا تقصد بهذه التصرفات الجنونية ، وتنصرف آهو وهى تكتم فرحها ، لقد أفلحت هذه المرة •

فاذا عادت « همـا » بعد قليل من الحمـام تكتشف اللعب فى حاجياتهـا ، ولا تستطيع أن تفاتح آهو ، حتى اذا عاد سـيد ميران تسأله « همـا » ويجيب عليها بصراحة ودونما مواربة ، ويريها الصورة، فلا تنكر لقد سرقتها ، فاذا ثار عليها ، ابتسمت : ترى لو وجدت صورة امرأة أخرى فى جيبه ، هل تتهمه بالخيانة ؟ ، ثم تعترف بألاعيبهـا السابقة ، كل هـذا فعلته لأنها تحبه ، لو لم تكن تحبه لمـا استحوذت عليه ولتركته ليلة آهو لها أن اقتناءها للصـورة ليس الا من قبيل عناد الأطفال ، أجل انها لا تتحمل أن يكون زوجها العزيز على بعد عدة أمتار منها فى أحضان امرأة غيرها أجل ، لتكن الصورة ما تكون : مؤنسة ، انتقاما ما ، أى شىء ، فهذا كله ليس الا من حبها له ، اذا كان قد فقد أعصـابه من أجل صورة ، فليأت لها كلية « ان الحب ليس نقودا تقبل التقسيم » •

اذن فهم سيد ميران أن الصورة كانت لتحريك غيرته ، ثم تتهاوى « همـا » بين يديه متظاهرة بأنها حامل ، فاذا بسيد ميران والد الأربعة يبدو وكأنه لم ينجب قبلها قط ، انه ينهار فرحا ويحنو ويدلل ولا يكاد يدرى ما يقول ، وتخرج « همـا » وهى الكاسبة من المعركة ، انه يعلنهـا : لن أذهب الى تلك الحجرة أبـدا ، وتطلب « همـا » أن تستقل فى معيشتها ، انها لا تأمن لآهو بعد ذلك ، ويستجيب سـيد

ميران ، وينحنى راكعا فوق جسـد « همـا » نصف العارى قائـلا بصوت متهدج من الأعماق : « همـا » حبيبتى ، سامحينى • وتراهما آهو على تلك الحـال ، فلا تدرى كيف تتحمل الصدمة ، لم تكن تتوقع هـذا أبدا ، فاذا بها تغمغم فى قهر : ليس هذا حبا ، لقد فقد الرجل عقله •

❋❋❋

ويشتد المرض على « همـا » ، واذا بالطبيب يفحصها يقرر أن الأمر نزلة برد وليس من الحمل فى شىء ، « وهمـا » تفكر : ربما كان ذلك من تأثير الدواء التى تناولته فى منزل زوجها القديم للاجهـاض ، وها هى مذعورة ، ربما حرمها ذلك من الأمومة ، الى الأبد ، وسـيد ميران مذعور لذعرها ، لا يجد عيبا فى أن يتردد على أوساط الدجالات وأن يجلس فى مجـالس النسوة يتحدث فى هذه الأمور ، وفى النهاية يلجـأ الى الطب الحديث ، هناك مستشفى أمريكى فى كرمانشاه ، هو المستشفى الوحيد ويحملها اليه •

لم يلبث أن تأيد فى المستشفى ما علم سلفا ، من المستحيل أن تحمـل « همـا » بعد ذلك ، لقد هون عليهـا الطبيب بأنها مازالت صغيرة ، وأنها سوف تحافظ على قوامها ، فى المستشفى كانت تصلها ورود حمراء كل يوم من مصـدر غير معلوم • وخرجت « همـا » من المستشفى ثائرة على الزوج القديم الذى لم يقدر جمالها الذى خلب لب الأطباء فى المستشفى ، وفى نفس الوقت تفكر فى سيد ميران ذلك الذى يقدرها حق قدرها ، ترى كيف تستطيع أن تحـافظ عليـه ؟

ان سيد ميران يعاملها بعد خروجهـا من المستشفى كطفل صغير مريض يستحق الشفقة والحنان ، وها هو يفكر فى بناء طابق جديد لها « لكى ترقص لزوجها وحده » ويأسف سيد ميران على الشـباب الذى

مضى فتهون عليه « همــا » مستشهدة بفلسفة خيامية (!!) ، انها تستطيع أن تعيد اليه شبابه بهذا الجسد الذى لن يؤثر فيه بعد حمل ولا وضع ، ويتمنى سيد ميران لو أنه يملك العــالم كله اذن لأنفقــه تحت أقدامهــا ، ويضرب الأمثــلة على ذلك من التــاريخ القــديم والحديث (!!) .

وحين تقبل الدنيا يقبل أهل الدنيا ، وها هم الجيران الذين نقموا على « همــا » تعديها على سيدة المنزل ، يتجمعن حول « همــا » علهن يصبن بعض الخير الذى كان ينصب فى حجر « همــا » دون حساب ، « وأصبحت النقود التى تنصب بين كفى سيد ميران كالرمل تنساب من بين كفيه كالمــاء » لكن صداقة الجارات مع « همــا » لم تكن خالصــة ، كانت صداقة منفعة ، بل كان اخلاصــهن الحقيقى للسيدة الأصلية آهو ، ذلك أن غرام « همــا » بالمظاهر بعد أن أضافت اليها بند الملابس ، كان يثير فى نفس أولئك النسوة المعدمات شيئا فوق الحسد هو الخراب وسوء المصير الذى يسرع اليه رب الدار .

وبالرغم من كل ذلك لم تكن « همــا » سعيدة ، لمــاذا ؟ كانت تعلم أنه ليس لها من سلاح فى معركتها الا الجمال والشباب ، وكلاهما لا يدوم ، ففى ميدان القتال « كانت ضرتهــا كالديك المهزوم طوت جناحيها وأسرعت منسحبة الى كنها ، ولكنها حينما كانت تمر بجوارها كانت تحس تماما بقوتهــا وكبريائها انهــا وان انتصرت انتصــارا ما الا أنه مؤقت ، ان الهزيمة النهائية ســوف تحيق بها ، والهزيمة كلما تأخرت كانت نتائجها أكثر شؤما ، فى هذا الميدان هى قوة واحدة ، ولكن الطرف المنافس خمس قوى « أجل ان الحيــاة المشتركة لآهو وسيد تدوم حتى بعد وفاتهما فى شخص أولادهما » لم تعد « همــا » تحافظ على مشاعرها حين تسمع الأطفال يتناجون فى الفناء أو يلعبون أو حتى يتشاجرون ، حينئذ كانت تحس كما لو أن الجدران تخنقها ،

وها هى تستعيد نصيحة احدى الجارات العجوزات « مكانك ليس هــذا المنزل أيتها العزيزة ، ان حيــاة الضرتين أولها وجــع الرأس وأوسطها الملال وآخرها لا محالة الانفصال » • وزاد فى يأسها أن زوجها السابق قد تزوج ومن ثم فقدت الأمل فى حياة زوجية مستقرة الى الأبد •

أصبحت « همــا » تضيق من كل شىء تخاطب نفسها فى وحدتها « همــا ، همــا ، قدماك تستندان على الريح » ، وتضيق من حفيف الأشجار حين تحركها رياح الخريف ، وتضيق من صــوت الهاون يأتى دقه من بيت الجــيران ، ومن صــوت المــاء يتحرك فى الحوض ، وتضيق من كل شىء فتصرخ فى نفسها : « حياتك هباء ونهايتها هباء » ومن ثم ازدادت حالات الاغماء التى تنتابها وان كانت آهو لا ترى الا أنها من آلاعيبها ، والا فلماذا تزداد عندما يكون سيد ميران فى حجرتها ؟ أما المنزل فلم تعد تقوم فيه بأى عمل ، أى منزل ؟ انه لم يعد منزلها ، انه منزل آهو وأولادها •

ولم تمر فترة طويلة حتى أصبحت تحظى برؤيــة أولادها ، لقد سمح لها زوجها أخيرا بذلك ، وانظر الى اللمسة الانسانية العظيمــة حين يصف الكاتب زيارة الأطفال لأمهم فى منزلها عند زوجها الثانى : « كانا مطيعين مثل يتيمين ذليلين يحن عليهما رجل غريب ، وكانا يلعبان بلعبهما وكأنها أعطيت لهما لفترة معينة ، كانت نظراتهما لأمهما مملوءة بالتعبير والذكاء والادراك ولكنها كانت خجلة صامتة متهربة » كانا يقضيان مع أمهما فترة من الوقت ، فاذا اقتربت عودة سيد ميران تسرع بهما خورشيد الى منزل أبيهما ، وكم كانت هما تهتم بهــذه الزيارة ، كانت تعد المنزل وكأنها تعده لاستقبال عظيم ، كانت تتخيل الأحاديث التى ستدور بينهم كما اشترت لهما حلتين جميلتين ، التقطت لهما صورة بها ، كان سيد ميران لا يستاء من تلك الزيارات ، كمــا أنه لم يكن راضيا عنها كل الرضا •

كان سيد ميران يزداد يوما بعد يوم حبا لـ « همـا » ، وكانت « همـا » كلما رأت لجمالها سوقا ازدادت هوسا « فأصبحت احدى قدمي سيد ميران فى السوق والأخرى فى المنزل » ، كانت تدرك أنها بهذه الوسيلة تعلم مقدار حب سيد ميران لها ، لقد علمت آنها فى منزل سيد ميران ليست الا وسيلة للمتعة فكانت تلعب الدور المطلوب منها تماما ، وكان سيد ميران راضيا « لأنه قادر على اسعاد قلب محبوبته » وللمرة الأولى فى حياته يتلقى سيد ميران صفعة من امرأة ، ومن « همـا » ، ذلك أنه فى احدى حفلات الزفاف التى دعى اليها أبدى اعجابا زائدا بالراقصة ، وعلق أحد الحاضرين « امرأة واحدة لا تكفى، اثنتان غم ، ثلاث راحة للقلب » أما آهو فقد علقت بأن الأمر يستوى لديها ، أما « همـا » فقد أسرتها لسيد ميران ، الذى أقر بعد صفعه أنه انما كان يمزح فحسب ، ان كل امرأة جميلة يراها تذكره بـ « هما » بل لم يعد هناك مجال للمقارنة .

فى تلك الأثناء كان الحديث عن الحجاب والغائه حقيقة ليست خيالا ، وبعد أن تم الأمر مع طالبات المدارس ، أتى الدور على ربات البيوت ، وقد دعى الرجال المرموقون الى مبنى البلدية مع زوجاتهم سافرات ، كان سيد ميران مثل كل من هم فى سنه يرى فى هذا الأمر هدما للدين ، كانت « همـا » أكثر استعدادا للذهاب ، ولكن سـيد عرض الأمر على آهو ، فاعتذرت بأنه لا ينبغى أن تحـاك الملابس لواحدة وتذهب أخرى ، فلم يجد بدا من اصطحاب « همـا » وهو كاره . وفى عصر ذلك اليوم الذى خرجت فيه المرأة الجميلة سافرة مع زوجها كان الناس ينظرون اليهما كمخلوقين نازلين من المريخ ، أما سيد ميران فكان يحس « أنه ارتكب جريمة الزنا وأنه يساق خارج المدينة للرجم » لم يكن الأمر صعبا ، كان الصالون الذى اجتمع فيه المدعـوون مع زوجـاتهم مثيرا للضحـك لا لشىء آخر ، فقد كانت الأزياء مضحكة وكان الحديث أكثر اضحاكا ولكن سيد ميران مع ذلك

احتاج الى الراحة بعض الوقت فى المنزل بعد « حادثة الصـالون » هذه ، فبعض الغوغاء أسمعوه كلاما لا يرضاه بينما كان يمشى مع زوجته ، وبعد يومين كان يتسلم نصيبه من القمح من مخزن المدينـة فاحتج أحد زملائه فى المهنة على قلة نصيبه ، وتفوه بأعلى صـوت « كان هناك الحاد وظلم وأضيف اليهما قلة الشرف ، فاما أن تذهب وتتزوج امرأة جميلة واما أن تذهب وتضـع رأسـك على الأرض وتموت » ، ولم يلبث أن زاد لغط الناس حـول الحفـل ، وجرهم الحديث الى الحديث عن الحـكومة فى طهران « التى لم تكن حتى تشرب المـاء دون أمر الانجليز » لقد كانت البلديـة تأمر النسـاء المشبوهات بلبس الحجـاب حتى تعفنه الحرائـر ، وبعكس ما كانت الأسرة تظن أثر حفل البلدية تأثيرا عكسيا فى « همـا » لقد أصبحت لا تخرج من المنزل الا نادرا لكن لا ، لم يكن عفافا أو احتشاما ، بل كانت تعد للأمر عدته ، لقد تعرفت على حائكة ثياب من نفس الحى . لقد آتى خلع الحجاب أكله ، كانت الملاءة تخفى ما تحتها من لباس . أما الآن فقد زاد هوس النساء الى الملابس ، فما بالك بـ « همـا » المتهوسة أصلا ، انها تقترح على سيد ميران أن تذهب لتتعلم الحياكة ، ويحتج سيد ميران بكل ما يحفظ من آيات وأحاديث حول هـذا الموضـوع ، لجت « همـا » فى الخـلاف ، ان قوامها مثل قوام « كلارا » وكلارا تخرج الى المدرسة ، وتحور « همـا » الحـديث الى الوجهة التى تنتصر فيها دائما ، الى الحب والعشق ، ويحدثهـا سيد ميران عن أحـلامه ، تلك الأحـلام التى فسرها المفسرون بأن « همـا » ستصبح قدم السعد بالنسبة له ، ويعدها بأخذها للزيارة فى القريب « كانت الموعودة بالزيارة فى الأصل هى آهو فسبحان من له الدوام » ، فاذا تقدم الليل وأمنت « همـا » عيون الرقباء قامت الى زجاجة الشراب فأفرغت كأسا لسيد ميران « الذى كان يشتريها سرا لأنه لا يزال يؤمن أنها حرام » ويشرب الكأس ترضية لخاطرها فتتلوها

بكأس آخر ، ويدور الحديث مع دوران الكأس ، ويا له من كأس ساحر حقا ذلك الذى حول الخباز سيد ميران الى فيلسوف عظيم من فلاسفة الجنس واللذة لا يباريه « أبيقور » فى هذا الميدان .

وتذهب (همـا) لتعلم الحياكة ، « ان أى تفكير يدخل فى رأسها يشبه دخول قطعـة من القطن فى زجاجـة لا تخرج الا بكسر الزجاجة » ، ولكن سيد ميران كان دائم التفكير فى المعلمة التى خلعت حجابها بمجرد أن أمرت الدولة بذلك والتى كثيرا ما شاهدها على باب منزلها تحـدث الرائحين والغادين ، ولو كان الأمر فى يد سـيد لأمر باغلاق كل محلات الحياكة هذه ، ونسمع فى هـذا الموقف رأى رجل ريفى « وهو عم همـا » فى هـذا التطور الذى يحـدث بأمر الدولة ، ان الدولة تسعى لابعاد الناس عن بعضهم بعضا ، لقد منعت لعبة « الشاه والوزير » فى المقاهى ، فهل هى تجمهر أو مجلس لقراءة الروضة ؟ أو أنها مؤتمر حربى ؟ لقد سمع من عمدة القرية « اضرب الفلاحين لا يرفعون رءوسـهم » ، ويسخر من « همـا » وتسـخر « همـا » منه ، ويحذرها ويوصيها أن تخفف الوطء على سيد ميران، لكن « همـا » واثقة من قوة تأثيرها ، ان سيد ميران يحبها لا كامرأة، بل كمظهر من مظاهر الجمال . وحين كانت أفكار « همـا » تدور فى رأس سيد ميران كان يدعو « ليجعل الله عاقبتنا مع هـذه المرأة بالخير » .

أما آهو ــ ولنعد اليها بعد هذه الغيبة الطويلة ولعل حظها معنا ومع الكاتب مثل حظها مع زوجها ــ لقد رأت آهو أن الأمر انفلت من يدها تماما ، لقد باتت تظن أنه كلما تمادت المرأة فى غيها ، ازداد زوجها حبا لها ، لقد تزلزلت عقيدتها فى الزواج والحياة الزوجيـة منذ حادثة الصورة ، لقد استراحت من رؤية وجه غريمتها ، فأصبحت تعد الطعام للأسرة وتحفظ لـ « همـا » نصيبها منه ، واتخذت من أهـل

« همـــا » أهلا لها ، أما الأولاد فكانوا يحبون آباهم حقيقة ، وكان لايزال يحبهم الا أنه كان يبدو آن مانعا ما يمنعه من اظهار حنانه لهم ، فجوة تتسع يوما بعد يوم ، كانت عاطفتـــه نحوهم أشبه ببركة مـــاء كبيرة سقطت فيها أوراق الخريف حتى طمست ماءها تماما ، ان سيد ميران لم يعد يتعرف على بعض أطفاله وأصبح يخطىء فى أسمائهم ، أجل ليكن ، لكن آهو تحدث الأطفال عن أبيهم ، انه مشغول عنهم قليلا ، كانت تخشى أن يكره الأطفال والدهم أو آن ينسوه . وبعد أن تأكدت من عدم امكان حمل « همـــا » باتت تعرف أن مسألة طلاقها مسألة وقت لا آكثر ، فانطوت على حزنها ، ورأت أن الأمر أصبح منتهيا بالنسبة اليها ، ولكن سيد ميران كان قد نسيها نهائيا .

لم يعد يحفـــل بهم تماما ، أصبح يمثل تمثيليات ســـعادته مع « همـــا » أمامها وأمام الأولاد و « همـــا » بدأت تغمز المرأة المسكينة وتلمزها ، ثم تجاوزتها الى أولادها فأخذت تقارن نفسها بكلارا ذات الستة عشر ربيعا بل وتمازح سيد ميران مزاحا ماجنا أمام الفتـــاة المراهقة وأخيها الذى يقترب من سنها ، كانت آهو تفضـــل أن تبتعد بأطفالها عن هـــذا « الظلم القانونى » الذى يشاهدونه بأعينهم يوميا ، لو لم يكن هؤلاء الأطفال لكانت قد أراحت نفسها من هـــذه الحياة منذ وقت طويل ، فقط حتى يحس زوجها بالعذاب الذى تعانيه ، انها تتعذب الى درجة الموت ولا سميع ولا مجيب لهذا العذاب ، كانت على الغذاء لا تستطيع أن تبتلع اللقيمات ، كانت تريد أن تذهب وتجلس فى ركن من أركان المطبخ تجتر أحزانها كقط مركول أو مطرود .

لقد أصبحت تقارن نفسها بـ « همـــا » ، نعم : لا وجه هنـــاك للمقارنة ، يداها خلقتا للعمل ، هى التى فعلت كل هـــذا العز لزوجها، ومن أسفه أن الثمار تجنيها غيرها ، ولم تجن هى الا الحنظل ، لقد أنجبت لهذا « السيد » المشؤوم أربعة من الأبناء ، ان جمال « همـــا »

الذى يزداد يوما بعد يوم مع الرفاهية والدلال ، يصيبها بحزن ويأس ويجعلها تحس أنها تقاتل فى معركة غير متكافئة ، ويفيض بهـا ذات يوم فتحدث « همـا » انها لم تقنع بنصف زوج حتى سلبت منهـا الزوج تماما ، وتجيب « همـا » : مهما كان الأمر فهو وضع مؤقت ، ان وضعها فى هـذا المنزل مثل ذلك الطائر الذى يقف على الشجرة ، انظرى .... لقد حط قليلا ثم طـار ، ولا تدرى آهو ، هل تحس بالندم لأنها أثارت كوامن الشجن عند غريستها أم تلك المـاكرة لا تقول هذا القول الا لكى ترش بعض المـاء البارد على النار التى تشتعل بين جوانحها ، وعلى أى حال ، أتملك تلك الغريمة الجمال ؟ لمـاذا لا تجرب وتزين نفسها .

بدأت آهو تزين نفسها ، لكنها كانت تريد أن تجعل نفسها نسخة من « همـا » ناسية أن الزينة التى تصلح لامرأة قد لا تصلح لأخرى ومن ثم فقد أفسدت جمالها الطبيعى ، وأضافت الى نفسها قبحـا بالزينة المصطنعة حتى صارت مسخا من المسوخ ، وبعد زينة طويلة « وصفها الكاتب فى حوالى عشر صفحات » رفعت الستار ذات غداء ، أرادت أن تقدم مسرحيـة حب فقدمت « كوميـديا » ، ما ان رفعت حجابها ، حتى انتبه الرجل الى زينتها فضحك حتى شرق الطعام فى فمه ، وتشجع الأطفال فضحكوا ، وانتبه بيژن الصغير الى عنق أمه ولأمر ما رآه يشبه عنق الدجاجة فرفع صوته مقلدا صـوت بائع الدجاج ، وعلق سيد ميران الذى أتت زينة امرأته المنكودة بأثر عكسى تماما : أى جهد ضائع وأى شىء لا قيمة له ؟ وتخرج آهو من الحجرة وهى تهمس لنفسها : ليس بالعافية ، ان الرجل لا يريد أن يخون حبه لزوجته .... ليس بالعافية .

وهكذا يمر الزمن بآهو ، كل ما تشرع فيه يفسد ، وكل ما تفكر فيه ينتهى بهزيمتهـا ، وبالرغم من وجود الأولاد وتفانيهـا فى حبهم

وخدمتهم الا أنها كانت تحس بعـذاب روحي ينهش داخلهـا ويفسد أعصابها حتى أصبحت تشتم الأطفال عند كل هفوة ، لولاهم لذهبت ، ويرد عليها أصغرهم : فلتذهب ما الذى يوقفها ، وتذهب آهو عند احدى الجارات تبكى حتى يأتى الصغير مصالحا ومقبلا رأس أمه ، وتعود فاقدة كل أمل ، أى زهر جننه من أبيهم حتى تجنى منهم عطرا ؟ لقد صور لها خيالها أن الكراهية تتخذ سبيلها الى الأطفال ، لكنهم على كل حال كانوا الكوة التى تطل منها على مستقبل مشرق : « أجـل هذان الزوجان يعيشان اليوم فى سكون ، هذا السكون لن يجر معه الا الملل والقرف ، لكنها تعيش وتتحرك فى خدمة أطفالها أجـل ، ان هؤلاء يلعبون دورا كبيرا فى حياتها » كانت تفكر : لتمر الأيام وسوف يدق سيد ميران عليها حجرتها يوما .

لكن هيهات ، ان سيد ميران هو سيد ميران ، انه لم يعد يرى فى الفناء . كان يتوضأ فى حجرته ، وهكذا طفح الكيل بآهو ، لابد أن تفاتحه ، انتهى ، لم تعد تستطيع التحمل ، انها تسد عليـه الطريق أثناء خروجه ذات صباح هامسة : مشهدى ، دقيقة واحـدة ، لكن مشهدى كان ينظر اليها وكأنه لا يراها ، وينظر اليها بازدراء شديد : ماذا ؟ ماذا تريدين ؟ فاذا بها ازاء هـذا الرد الجـاف لا تطلب منه الا أن يملأ الساعة (!!) ثم يفر منها سيد ميران وكأنه يفر من جنى ، أرادت أن تبكى ، لكن الطفل الصغير قلد لهجة أبيه فلم تملك نفسها من الضحك ، حتى خورشيد جارتها سخرت منها عندما وسطتها ، وبعد الحـاح طلبت من سيد ميران أن يذهب ليرى السيدة الكبرى ، ويذهب سيد ميران وليته ما ذهب ، يسأل زوجته بجفاء ماذا تريد ، فاذا ردت بأنها تريد أن تراه ، ضحك مستغربا : ألا تراه ؟ ويتجاهل أن حياء المرأة التى عاشرته سبعة عشر عاما يمسـك عليها نفسـها أن تريد ، فاذا قالت : هل نسيت أننى زوجتك ؟ ان كان قد نسى ذلك فلا يمكن أن يكون قد نسى أبوته ، ويطاطىء سيد ميران رأسه خجلا ،

نعم لك حق يا آهو ، لكنى لا أدرى ماذا أصنع بك ؟ أجل تستطيع أن تفعل شيئا ، ان لم تكن قادرا على العدل سرح واحدة وأنا مستعدة. أنت تهذين يا آهو ، ويحاول أن ينصرف فتسد عليه الطريق ، ينبغى أن يقرر مصيرها فى التو واللحظـة ، واذا بسيد ميران يرد : مصيرك تربية الأطفال ، ينبغى أن تكون المرأة صبورة ، فقد كان هناك نساء لا يرين أزواجهن الا بعد الزفاف بسنوات ، وترد بسخرية وهنـاك رجال لم يخرج على ليلة زفافهم صبح منذ عامين ونصف ، ثم تنفجر فتحاسبه على المـاضى كله ، على كل ما فعله وعلى كل ما يفعله مع الأطفال ، ويحاول سيد ميران أن يرجئها الى حين ، ان المهلة واجبة فى الشرع ، لكن آهو لا تتركه يمضى فى طريقه ، اذن ماذا يفعل سـيد ميران الذى لم يتعود على الرياء ، انه لم يكن يدرى أنه سيواجه هذا الموقف بهذه السرعة ولم يكن قد أعد له عدته ؟ لقد زاد هـذا التصرف فى بغضه لها ، لقد قتل ميله اليها ولن يستطيع حتى المسيح أن ينثر الماء على قبره فضـلا عن احيائه ، فاذا به يخلص نفسـه منهـا ، فترجوه الرحمة فينفجر بغضه كله .

انه يصيح فيها : لا أريدك ، أنا ضائق بك ان كان الأمر بالاكراه فاقتلينى ، كلما حاولت أن أقاوم نفسى لم يستطع قلبى أن يصفو لك ولن يستطيع ، فاذا سألته وماذا فعلت حتى تستحق كل ذلك ، أجاب : لا شىء مجرد احساس ، ورفعت عنه آهو يدها وجمدت فى مكانهـا « كانت ضربة مهولة كالصاعقة انقضت على كل وجودها فدكته دكا ، وشلت روحها وجسدها ، كأن المرأة المسكينة ترى حبها يدفن وهو حى ، ليتها ماتت قبل أن تسمع هـذه الكلمات « أما سيد ميران فقد جلس يدخن سيجارته هادئا بعد أن أخرج كل ما كان فى قلبه ، كانت آهو تسح الدموع بعد سبعة عشر عاما من الحلو والمر ، لمن تشكو والى أين تمضى ؟ كان حديث الرجل ظلمـا لكنه قانونى ، ان رجلها

قد تكشف عن وحش ، ألهذه الدرجة يراها حائلا بينه وبين حبه لهذه المرأة ؟ ويخرج سـيد ميران وهو يقول بصـوت عال لكن بهدوء : ينبغي أن أبحث لنفسي عن منزل بعيدا عن هـذه البومة التي تنعب على رأسي بين آن وآخر ، انني لم آخذ منها مال أبيها ، وسـوف أنفق عليها وعلى أولادها والسلام ، انتهى الكلام .

لم يكن سـيد ميران هو ما تريده آهو كمـا ظن ، ذلك أنه في الليالي التي كان يأتي اليها فيها كانت محرومة منه ، لكن سيد ميران يريد أن يقطع كل علاقة الآن ويقال أن الطفل هو رباط المحبة ، لكن يبدو أن الأمر انعكس ، انها تريد منـه أن يهتم بأطفاله فحسـب ، وفيما يبدو لم ترض « همـا » هانم بأن تكون خادمة لها ، لمـاذا كرهها سيد ميران الى هـذا الحد ؟ ولمـاذا يخاف منها هل أوحت له « همـا » أنها ربما دست له سما في الطعام ؟ ماذا تفعل جربت الأولياء كما لم تبخل بوسائل الشيطان ، ودون فائدة .

ان الرجل يغلق الباب بعد العشاء بينه وبين العالم ، ثم ينسلخان عن الوجود ويعيشان حيـاة لا يطمح خيال آهو الى تصورها ، ان خلوتهما مفهومة نقلتها الى آهو تلك المرأة المسماة أكرم التي تتجسس عليهما ، لكن هـذا الجزء الذي تتحدث فيه « أكرم » الى آهو يعد من أشد مزالق الرواية فهي لا تضيف الى معلوماتنا جديدا عن شغف سـيد ميران بـ « همـا » ومن ناحيـة أخرى شـديدة العمق بحيث لا يتصور القارىء أن السيدة أكرم تستطيع أن تعيد هـذا الكلام العميق ان صك مسامعها ، فهل يعقل مثلا أن يقول سيد ميران « نحن عقدنا ميثاقا في عالم التوحد أن نسبح سويا في عالم الجنون ، وما دمنا وحدنا والباب مغلق فليس أمامنا الا الألعاب والقصص والحكايات » أو يقول ذلك الخباز ــ لافض فوه ــ « ان دواء النسيان الذي بحث عنه عارفونا طوال عشرة قرون في زوايا دور الخمر والتكايا ولم يجدوه

وجدناه نحن فى حبنا الخالد » ما شاء الله ! الا أن حديث أكرم ليس كله عديم الفائدة ، انها تخبر آهو أن غريمتها لاتزال على علاقة بذلك الرجل الذى أفسد زواجها الأول . وأنه هو الذى كان يرسل اليها الورود الحمراء فى المستشفى « ان الكاتب قوى الذاكرة حقـا » ، كما تعلم أن زوجها أدمن الشراب وأنه يتاجر فى المهربات وأن خياطة « همـا » هى التى تقوم بتوزيع البضائع .

فاذا تقدمنا فى الرواية دخلنا مع « همـا » فى عالمها الخـاص فى دروس الحياكة ، وتتعرف منها الى صـديقتها « سـوسن » ووالدها الموظف الكبير فى الدولة ، ويتحدث المؤلف عن دخـول السـينما فى ايران كحـدث اجتمـاعى كبير ، ان « همـا » تريد أن تذهب الى السينما ، ويتحدث سيد ميران عن السينما كرجس من عمل الشيطان ، الا أن « همـا » تناقشه كعادتها ولا يملك الا أن يضحك وهو يقول : كل هـذا فى سـبيل الذهاب مرة الى السينما ، ولا يملك كعادتـه الا الانصياع الا أن سيد ميران ليس مستريحا الى علاقات « همـا » الجديدة ، انه يطلب منها أن تعود مسرعة الى المنزل ، ويرسـل ولده الى أمه يطلب منها أن تخبره اذا عادت « همـا » متأخرة عن موعدها ، الا أن آهو أزمعت من التجـارب المريرة ألا تتدخل فى حياتهما قط ، وتعود « همـا » وتتشاجر معها سـيد ميران ، ويبدأ ثانيـة يفكر فى آهو .

ان الأيام تمر وهو لا يراها ، لقد ظل يراقبها فترة طويلة حتى تأكد أنها لا تخفى أية نيـة ، « كانت تتصرف كجارة عاقلة حسـنة الأخلاق ، لم يعد يسمع صوت ضحكتها ، ولا صوت بكائها وعويلها أو صياحها مع الأولاد ، كأنما رضيت بقدر ترملها ، أو وقر فى قلبها ألا تقف حجر عثرة فى طريق زوجها ، لم تكن تشكو من ظلم الحبيب ولا من جفاء الرقيب ، أراحت جسدها من الحسد الذى يبريه وروحها من الغل الذى يحطمها » ، كانت فى المرات القليلة التى تتحدث اليه

فيها تتلعثم وكأنها تتحدث الى انسان غريب ، كانت تقوم بكل أعمال المنزل حتى غسل الملابس لهما ، كانت ترسل الى زوجها فى حجرته ما تعلم أنه يحبه من طعام ، بل كانت تفتح لهما الباب بعد عودتهما من سهرة دون أن تسأل أين كانوا ودون أن تتذمر انها فزعت من نومها ، أجل كان هناك هاتف يهتف فى أذن السيدة آهو : « اصبرى ... اصبرى ، حين يرتفع ماء النافورة ينتكس » كانت آهو تكافح ضد انسانيتها ، تحاول أن تقتل الأمل فى نفسها ، بل قل انه قتل ، كانت تسمع أن زوجها قد سار شوطا بعيدا فى حبه للمرأة فلا تعلق ، علمت أنه يصحبها الى منزل حسين خان الطبال لترقص له وحده وسط جمع من الموسيقيين والطبالين ، وتلك الليلة التى عاد فيها زوجها محمولا على الأعناق وهو مغمى عليه ، ألم تعلم أن « هما » كانت ترقص له عارية وأن الشهوة والشراب قد اجتمعا عليه حتى جندلاه ، أجل ليكن، كل انسان يحصد ما تزرع يداه ، انها لن تتدخل فى حياته أبدا .

كانت الحوادث الصغيرة تتجمع على وجود آهو ، ماتت جارتها العزيزة ، « نقرة » بينما كانت مع زوجها يعملان فى حدائق ميرزا بنى وبعد أن مات زوجها جاء وحده الى المنزل مهدما ولم يلبث أن لفظ أنفاسه بين جيرانه ، « وصف الكاتب لموت الزوجين من أروع ما فى الرواية ويبدو فيه التأثير المباشر لروائع الكلاسيكيات الروسية » ، أحست آهو أنها سوف تلحق بجارتها ، انها لا تحمل حقدا لسيد ميران لتمت هى ويبقى هو لتربية أطفاله ، انه لم يقم بأمر عجيب ، انه رجل والرجل اله المرأة يصنع بها ما يشاء .

وتصل هذه الوصية الى أسماع سيد ميران فيتعجب ، لابد أن يصالح آهو وفى أقرب فرصة . كان الشتاء قد مر فى هدوء ، استطاع سيد ميران بسلوكه الوحشى أن يحقق السلام فى المنزل ، كانت « هما » قد حرمت من زيارة أطفالها ، فأخذت تفيض حنانها على الأطفال ، ومر الشتاء وبدأ سيد ميران يضيق بـ « هما » ويتقرب

الى آهو ، ولم يكن ذلك الا ليستغل عداوتها الطبيعية لـ « همـا » فى التجسس عليها ، الا أن آهو كانت قد تعلمت ، فاذا سألها سـيد ميران عن « همـا » أجابته بأنها تحبه أكثر من أى شىء فى الوجود ، فاذا قص لها بعض ما يصـل الى أسماعه هو خاصة حول جولاتها مع تجار الأقمشة فى الأسـواق ، وجدت آهو الضوء الأخضر واستفاضت فى الحديث ، الا أن سيد ميران لم يكن ليصـدق ما يقال عن « همـا » اذا كان من فم آهو ، ثم ان « همـا » كانت تستطيع اسكات سيد ميران والاستحواذ عليه تماما بزينتها وسلوكها الجنسى « الذى لا يفتأ الكاتب يعيد فيه ويزيد كلما شك أننا قد نكون نسيناه » ، وخـلال تلك الأحداث البسيطة ، نحس أننا نحارب معركة خاسرة مع آهو ، واذا كنا نلمح فى المعركة بعض بوارق الأمل ، الا أنها لا تلبث أن تخبو وتتركنا مع آهو أشد يأسا .

لقد أصبح سـيد ميران ــ خاصـة حين يـكون بعيـدا عن « همـا » ــ يفكر ، تلك والله بارقة أمل ، خاصـة اذا علمنـا أن موضوع التفكير كان المـال ، لم يكن ليجد أحدا يشكو له الا آهو ، وبالرغم من أن آهو كانت آخر من يستحق مشاركته هموم حالتـه المـالية ، ان « همـا » لم تكتف ببعثرة أموال سيد ميران ذات اليمين واليسار حتى أغرت أهلها فطمعوا هم أيضا فى أمواله ، وها هم يأخذون النقود منه بحجة توريد الحبوب ، فلا هم وردوا الحبوب ولا ردوا النقود ، اننا نعلم أن أحوال سيد ميران المـالية فى غاية السـوء ، ويتحدث سيد ميران مع آهو عن أعماله التى تتدهور يوما بعد يوم ، وعن الأولاد ومستقبل الأولاد ، ان آهو تحس بلهجة سيد ميران ان فيها بعض ملامح الأنس القديم ، فاذا سألته : وهل تعلم « همـا » ؟ رد بأنه كان قد تعهد لها ألا يحدثها عن أحواله المـالية ، ومن ثم فهى لا تعرف أنه مدين ، وأنه لا ينبغى لكلارا أن تذهب الى المدرسـة منذ أول العـام الدراسى ، ولكن الرجـل يدافع عن تدهور أحواله

المـالية دفاعا غريبا ، ان كل من هم حوله قد أثروا بطرق غير مشروعة، بالتهريب والغش وانقاص الموازين والمكاييل ، ثم لا يتحمل طويلا فيشكو من اسراف « همـا » وينعس سيد ميران فينـام فى حجرة آهو ، وتقوم آهو على أغلى ملاءاتها تغطيه بها ، ويدخل الأطفـال فلا يصـدقون أنفسهم ، ويسيرون على أطراف أصابعهم . والفرح فى وجه كلارا لا تستطيع أن تكتمه ، حتى اذا استيقظ سيد ميران أخذ يداعب زوجته ، ونعلم أنه فى سبيل أن يعود اليها قلبا وقالبا ... ثم جاءت « همـا » . وقفت على الباب ، فوقف سيد ميران لوقفتها ، وسخرت ثم مضت فى طريقها فأسرع سيد ميران خلفها ، انها تبدل ملابسها لتخرج ، فاذا وقف سيد ميران فى طريقها تحدته ، ثم أغرته ، وتجيء آهو لتخبره أن الطعام جاهز ، يأمرها أن تحمله اليه الى حجرة « همـا » . ان « همـا » تعاتبه أنها رأته فى حجرة آهو ، فاذا رد بأنها هى الأخرى زوجته ، ردت بسخرية : أجل الأولى والأخـيرة . ان « همـا » تفكر فى ترك المنزل فى التو واللحظة ، فقط لو وجدت من عشاقها العديدين واحدا يستطيع أن يوفر لها الحياة التى تعيشها فى منزل سيد ميران ، من أسف أن الشباب فقراء وأن الأغنياء فقط هم العجائز ، انها لم تعد تطيق ، وها هى تعلن لسيد ميران أنها ان رأته ثانية فى حجرة آهو ، فسوف تغادر المنزل فى الصباح وتعمـل راقصة « أكان تهديدا أو أمنيـة » ؟ وبرغم الفحش الذى ينطـلق من فم « همـا » فان سيد ميران لا يرد الا بقوله هب أنه نسى أن آهـو زوجته فهل يمكن أن ينسى أبوته ، ويكون الأولاد وآهو قد جاءوا على صياحها ، فتنظر اليهم بكل احتقار ، وتطلب « همـا » أن يطلقها وترد آهو بل عليـه أن يطلقها هى ، وتنفجر مشـاجرة بين الغريمتين و « همـا » هى التى تكيـل لـ « آهو » ، وسـيد ميران يقسـم لـ « همـا » أنها لن تخرج من منزله الا فى نعشها ، كان سـيد ميران ضائقا لأول مرة من « همـا » لكنه كان يحبها وكان أيضا يخـاف

من فضيحة ان سرحها ، فلا يجد من يصب عليه غضبه الا آهـو ، فيقذفها بالسماور ، وتسحب أولادها خارجة من الحجرة قائلة : هيا نذهب ، لقد حول عشق الشيوخ هـذا الرجل الى مسخ ، وبينمـا يكون سيد ميران خارجا توقفه آهو ، انها تريد منه أن يوضح موقفها وموقف أولادها • فيقول لها : موتى ، فـاذا قالت : والأولاد رد : فى داهية هم أيضا ، فاذا قالت انهم أولادك أيضـا تنصل منهم ومن أبوتهم • ويحملها حملا ويخرجها من الدار ويقف أمام الجيران صائحا بأنه سـوف يطلقها فى الغد ، ويقف أمام أولاده فيخبرهم أن أمهم ماتت ، وأن عليهم أن يتعايشوا مع زوجة أبيهم مثل عشرات ومئـات الأطفال ، ويجلس سيد ميران يفكر فى مصـير آهو ويحدث نفسـه باستهانة : لتمض عن طريقه ، انه لم يعد يستطيع •

لا ندرى أين ذهبت آهو ، لكن الأطفال يخرجون عن طورهم ، انهم يعلنون العصيان فيركلون الطعام الذى يقدم لهم ، و « همـا » تشكو منهم لزوجهـا ، وها هو يرسـم مستقبلهم من جديد ، ليخرج بهرام من المدرسـة الى الدكان ، انه لم يلعب وهو فى سنه ، وكلارا سوف تجلس هى الأخرى فى البيت ، ان « همـا » ضائقة من الأطفال تحس أنها سـوف تتورط فى خدمـة أربعـة لم تلدهم ، انها ترجو سيد ميران أن يذهب فيصلح آهو ، انها لن تسكت وسوف تفضحه أمام أصدقائه ومعارفه ، لكن سيد ميران يرجوها ألا تحدثه فى شأنها قط •

أما آهو فلم تكن قد خرجت من منزلها ، لقد انتقلت من حجرة الى حجرة حتى وصلت حجرتها دون أن يراها أحد فى الفناء ، كانت تبكى وتضحك فى آن واحد من هـذا الوضع الذليل ، لم تكن تفكر فى حسنات الطـلاق أو سيئاته ، ولمـا علمت من أولادها أن زوجهـا كسر صـندوق مجوهراتها قالت بغل انها سـوف تعيش حتى ترى سيد و « همـا » يشحذان سـويا فى الطرقات ، ثم أدركت أنهـا

تتحدث أمام غرباء فأمسكت و « همــا » خــلال ذلك كله لاتزال تحدث سيد ميران فى أن يطلقها هى ، وهو يقسم بالأيمان المغلظة أنه لن يفرق بينهما الا الموت ، وترد « همــا » بأنه لو مات قبلها فسوف تدفن نفسها معه حية كما يفعل السيث الهنود (!!) ، ان سيد ميران سوف ينهض فى الصباح فيطلق آهو وينتهى الأمر •

ولكن سيد ميران دفع ثمن ظلمه لآهو غاليا فى تلك الليلة ، فلم يكد ينتصف الليــل حتى دهمت الشرطة منزله بحثا عن البضــائع المهربة ، قلب المنزل رأسا على عقب ثم انتقل الى الحجرات المؤجرة ، وفى النهاية ضبطت البضــائع فى حجرة « همــا » ، وأخذوا سيد ميران ومضوا ، وبالرغم من أن سيد ميران كان يعلم فى قرارة نفسه أنه برىء ، الا أن الأمور لم تجر وفق ما يهوى ، وبرغم المصروفــات التى أنفقها الا أن التهمة ثبتت عليه وحكم عليــه بالغرامة ولم يكن الأمر سهلا بالنسبة لسيد ميران ، انه يدرك أن كل ما حدث له انما حدث من تعديه على آهو بغير ذنب ، وها هو فى اليوم الأخير لعودته من المحــكمة يشترى بعض الحلوى ، ويذهب الى حجرة آهــو ثم يستدعى « همــا » وتجلس الأسرة التى لم تعد تجتمع الا فى المصائب• ونفهم من حديث سيد ميران أن أموره آخذة فى التدهور ، ثم يقترح أن تذهب الأسرة كلها الى نزهة فى حديقة فى اليوم التالى ، فاذا سأل طفل : حديقتنا ؟ أدار سيد ميران وجهه قائلا : حديقة أخرى ، حديقتنا بعيدة •

***

فى صباح اليوم التالى تخرج الأسرة كلها الى الحديقة ، حينما يصلون يتمدد سيد ميران تحت شجرة ، وتنطلق « همــا » فى الحديقة هنا وهنــاك وتشغل بغناء بهرام الحزين الذى يعانى من حبه لابنــة المرأة الأرمنيــة جارتهم ، وتتحدث معه « همــا » وتســدى اليه

التعليمات « طبعا » ويجدها الكاتب فرصة لكى يصف لنا الحديقة فى الربيع فى صفحات طويلة وكيف لا وخلفه تراث الأدب الفارسى فى عشرة قرون وهو حافل بهذه الأوصاف ؟ الا أن ما يهمنا من هـذه النزهة هو ذلك الحديث الطويل الذى دار بين سيد ميران وآهو .

لم تكن آهو تدرى من أين تبدأ الحديث ، كانت خائفة ومضطربة، ثم تبدأ بأن تشكر الله على صحة سيد ميران بعد كل ما حدث ، ويشكو سيد ميران مما حاق به على أيدى عمال الحكومة ، ويشير من طرف خفى الى « همسا » ، انها مثل المرأة التى أرسلت الحكومة عمالها وحملوا زوجها لاعدامه واذا بها خلفه تصيح : ذلك المعطف الفلانى اياك أن تنسى أن تشتريه ، وتعلم آهو من زوجها أنه باع الحديقة وباع الأرض ، ويعترف سيد ميران أن كل ذلك من أجل المرأة التى لم يعد يستطيع أن يحدد متى يمكن أن يفكر فيهـا جديا ، وها هو مهدى الصغير يرى الدموع على وجـه أبيه فيصمت ويقاوم البكاء وتسأله آهو : أهكذا كانت حياته دائما ؟ وأليس هـذا هو ذنبه ، ويتشاغل سيد ميران بالحـديث مع الطفل : هـل تحب أمك ؟ نعم ويضرب الأمثال ، وهل تحب أباك فلا يجيب . وها هو سيد ميران فى صحوة من ضميره يحدث زوجته قائلا : « أعلم أننى مدان منك بكل ذرة من وجودك ، أعلم بأنك حكمت على بأننى مذنب ، ذنبـا مهما تبت عنه ومهما كانت توبتى نصـوحا ، فان أثر الظلم الذى حاق بك لن يمحى من قلبك أبدا . أنا أيضا حكمت على نفسى بأننى مذنب ، وأنا أيضا لا أكره نفسى فحسب بل أخاف منها ، أنا فى نظرك وفى نظر كل من يحيطون بى ويعلمون شيئا عنى رجـل فاجر وفاسـق وغير مسؤول ، أما فى نظر نفسى فأنا انسان مجنون سيىء الحظ » وتجيبه زوجته انه عاشق ولا حرج على العاشق ، ويجيب : « أجـل مرات كثيرة كنت أدخل من الباب وأنا مصمم على أن آتى الى حجرتك بين أولادى لكى أضـع حدا لهذا الظلم ، لكنى بمجرد دخول الفناء أجد

نفسي قد اتجهت الى الناحيه الأخرى وسرت اليها عدوا » ... « أجل يجب أن أعترف بيني وبين نفسي أنني الآن أختلف عن سـيد ميران الذي يعرفه الجميع » .

ان رفاقه في المهنة دون أن يخطروه أو يعلموه قد اختاروا شخصا آخر ليكون نقيبا لهم ، ولم يختاروا الا صديقه ميرزا نبي ، ويمضي سيد ميران شوطا واسعا في اعترافاته ، انه لا يستطيع أن ينام ما دامت « همـا » يقظة لقد توسـل بالخمر ثم أدمن الأفيون بعد الشراب ، واذا بآهو تخبره بأن الله غفور رحيم ، لكن ألا تعلم « همـا » ذلك؟ ألا تعلم أن زوجها انجرف في تيار التهريب من أجلها ؟ لا ، انهـا لا تعلم ، اذن ليبق سرا بيننا يا زوجي العزيز ، وبعد أن تعلم آهـو كل ذلك تجد في نفسها الشجاعة لتسأله : وما المصير ؟ ألا تزال تفكر أن « همـا » تريدك لشخصك ؟ ألم تسمع قصـة ذلك الرجل الأعمى الذي عاد الى منزله بيد خالية لأول مرة بعد الزواج بسبع سـنوات فعلمت زوجته أنه أعمى ؟ كانت كل مرة تنظر الى يده وهـذه المرة فقط نظرت الى عينه . لابد لسيد ميران من حل ، ليجرب أن يعيش بعيدا عنها ، لمـاذا لا يرسلها عند أهلها أسبوعا ؟ ليجرب ، أجـل لكن هل آهو مستعدة للصفح عنه ؟ الصفح عنه فقط ؟ ان كل وجودها يصبح حينذاك ملكا له .

لكن سيد ميران حين راح في النوم أخذت آهو تفكر : أتكون هذه لعبة جديدة من ألاعيب غرام الشيوخ ؟ كانت « همـا » تستمتع بالرحلة بينما آهو تتجرع الحنظل من اعترافات زوجها ، وكان سيد ميران غارقا في لجة من أفكاره :

على أي شيء تعتمد علاقته بـ « همـا » ؟ أيظل في شراكها حتى تقوده الى العدم ؟ لقد اقترح عليها بعد شرح طويل وجامع أن يقلعا

عن الشراب فوافقت لكنه أخفق عند أول لقاء معها دون شراب ، وهو يدعوها الى الاقتصـــاد فتجيب :

وهل تسير فى الطرقات حافية أو عارية ؟ أنه يعلم أنه شيخ وأنه يرى شبابه الذاوى فى جسد تلك المرأة ورغبته فيها تزداد تأججـا وعمقا بفعل الشيخوخة وفى قاموس الزمان ليس هنـــاك معنى للتوقف والتقهقر محـــال ، انه يعلم تماما أنه يواجه طريقا مسدودا ، ويعلم تماما أن حياته مع هـــذه الحسناء لن تسير كسابق عهدها ، الا أنه يحس أيضا من أعماق قلبه أن حياته من بعدها لن تصير أشد خواء وأكثر عذابا من جهنم فحسب ، بل سيكون كمصباح فى مهب الريح ، يعلم تماما أن « همـــا » لن تودع حياتها بعد طلاقها منه بل ستبدأ الحياة مع زوج آخر مناسب لها . أما « همـــا » فكانت ترتدى ملابسها بعد أن استحمت فى الحديقة وهى تكفر ، انها ان تركت سيد ميران لحظة واحدة خاليا فكأنها تسلم القط مفتاح الكرار ، من أسف أنها لم تسمع أحاديث سيد ميران مع زوجته ولم تعلم أية مؤامرة جديدة دبرت لها ، لو أنها لم تقم بتلك الألاعيب التى أبعدت بها الرجل عن زوجته وصورتها بصـــورة الشهيدة المظلومة ، أجل كم « كانت » سعيدة بذلك الحب الذى « كان » سيد ميران يخصها به ، وكم سعدت حين أخذ منها صورة أولادها وخبأها فى مكان لا تعرفه ، وها هى تخاطب زوجها فجأة : ست سنوات مرت ، ست سنوات من الجنون وكأنها ستة أيام ... لكن ... ان الأيام تعزف لحن الفراق أيهـــا العزيز . وكان يوما ، عادت الأسرة الى المنزل والآمال تملأ كل قلب كل فرد منها لكنه كان يوما واحدا فحسب .

كان سيد ميران اذن يفكر فى الخلاص من « همـــا » ، وكانت « همـــا » على ما هى عليه ، لا تدرك أن الأمور تغيرت وأن عليهـــا أن تخفف قليلا من غلوائها ، الا أنها كانت تفكر فى أن الحيـــاة مع

سيد ميران لم تعد تناسبها : وها هو سيد ميران يراها تسير فى الشارع بثوب مكشوف مما عرضها لمعاكسة الرائح والغادى ، ويدخل خلفها الحجرة ثائرا : هل جاء الدور على شرفه ؟ ولا تحاول « هما » أن تهدىء سيد ميران كما كانت تفعل ، انها تلج فى الخصومة ، أجل انها قضت على حياته وتريد أن تقضى على شرفه ، ويشير سيد ميران الى الشارع : اذن الى الشارع الذى منه أتيت ، وتجمع ملابسها فيرق قلب سيد ميران فيهبها كل ما اشتراه لها وتتراجع : لن تحمل الا ما تسمح به آهو هانم ، لقد ملت الحياة فى هذا المنزل آهو حزينة ، وهى خائفة ، ثم انها منذ اليوم الأول كانت تدرك أن سيد ميران لا يناسبها ، ورغم صمت سيد ميران فان « هما » تنفذ تهديدها وتخرج واذا بسيد ميران يدرك فجأة أن لها أهلا ، عليه أن يرسل لعمها فيضع يده فى يده وينتهى الأمر .

وحتى المساء لم تعد « هما » ، ويكلف سيد ميران خورشيد بالبحث عنها ، وتخرج هى الأخرى بعد أن تقول لسيد ميران « المرأة التى تجعل من حبها أنشوطة تخنق بها الرجل لا تلبث أن تختنق هى بنفس الأنشوطة » الا أنها تغيب ، وسيد ميران قلق دائم النظر فى ساعته ، فلا يجد بدا من الاستعانة بزوج أكرم بعد أن أخبروه أنه بوليس سرى ، وفى الطريق بينما يبحثان تحدث حادثة مضحكة مبكية ، واذا بزوج أكرم الغشوم يشير الى امرأة عارية الذراع تقف فى نافذة منزل مشبوه ، ويصيح بسيد ميران : هذه هى امرأة عارية الذراع ، وكأن هذه الصفة لا تنطبق من بين كل نساء كرمانشاه الا على « هما » ويصمم سيد ميران على طلاق « هما » ، لن يستطيع أن يرفع وجهه فى أحد من المنزل الا اذا طلقها ، ويمضى الى الشيخ فينطق اليمين ويكتب الوثيقة لكنه يرجىء التوقيع الى اليوم التالى .

وعاد الى المنزل فألقى بالخبر الى آهو ، ماذا ؟ مستحيل ، وهاجت

النسوة ، زوجها ؟ زوجها لها مرة ثانية ؟ انها لا تصــدق ، أخــذت تنظر اليه كتاجر ردت اليه بضاعة فقد الأمل فيها ، وفى الليل تحلق الأولاد حول أبيهم وقضوا ليلة لم تسمح « همــا » ولم يسمح الدهر بأن يقضوا مثلها من زمن طويل ، وفى اليوم التالى ، دخل ميرزا نبى يجر خلفه « همــا » ، كانت قد أمضت اليوم الأول فى منزل حسين خان ، وفى الصباح لقيت ميرزا نبى ، ويرد سيد ميران : لكن لحسن الحظ أو لسوئه أن الأمر قد انتهى ، سبق السيف العزل ، لا هذه المرأة زوجتى ولا أنــا زوجها « ويبهت ميرزا نبى ، لكن كل الأطفــال يؤيدون الخبر ، ويأتى عم « همــا » وهى مختبئة فى حجرة خورشيد، بينما كان جالسا مع عمها انطلقت أحاديث النسوة ان ميرزا نبى راودها عن نفسها وأبدى استعداده للزواج منها ان طلقت ، وها هو العم يرجو سيد ميران أن يقتلها ولا يطلقها ، ويطلب منها أن تذهب معه الى القرية فتسب القرية وأهل القرية بطريقة لا تثير فى نفس سيد ميران الا الضحك ، وتطلب من سيد مفتــاح حجرتها بدلال يخرجه عن طوره وينسيه كل ما كان وينسيه أنها أصبحت حراما عليه ، ويمضى معهــا الى الحجرة بينما آهو تضرب كفا بكف قائلة : كم من الأشياء العظيمة لم نرها بهذه العيون الصغيرة .

صممت آهو على أن تحذف سيد ميران من حياتها الى الأبد ، وأن تهتم فقط بأولادها ، وتعود كلارا من المدرســة شاكية لأمهــا من شاب يلاحقها ، ولا تظن الأم الا سوءا ، ان ســلوك « همــا » يؤثر فى ابنتها ، أين القــانون الذى يحمى النساء فى البيوت حتى يحمى البنات فى الشوارع ؟ لكن الأمر كان على عكس ما ظنت آهو : ان الشاب جاد ، وقد أرسل لخطبة الفتاة ، وتحدث سيد ميران فيحدثها بكل ود ، ان طلاق « همــا » سوف يكون نهائيا حين يحضر عمهــا المحصول ، وتعطيه آهو ما ادخرته يستعين به على أحواله ، ثم تحدثه عن أمر كلارا فنعلم أن الشاب على يسار ، وتتقارب الأسرتان وتدعو

أسرة الشاب أسرة الفتاة الى نزهة ، وفى النزهة نفاجأ بـ « همـا » تغرى الشاب المتقدم للفتاة والشاب يستجيب لاغرائها ، وعندما يعود الجميع الى المنزل تخبر « همـا » سيد ميران أن الشاب ليس جادا وهو يريدها هى ، ويتحدث سيد بما صك مسامعه من صفات الشاب الذميمة ، وتفشل الخطبة .

***

ينتقل بنا الكاتب بعد ذلك الى الحديث عن حياة سيد ميران خارج منزله لنعلم من أحواله ما خفى علينا ولنطالع جانبا من جوانب التطور الاجتمـاعى فى ايران فى تلك الفترة . وبالرغم من اختيـار ميرزا نبى نقيبا للخبازين الا أنه لم يستطع أن يقوم بدور سيد ميران فى الدفـاع عن أبناء مهنته ، ويسوق المؤلف بعض الحوادث التى أدت اليها القرارات الجديدة مثل القرار الذى صدر بضرورة الحصـول على تصريح بدفن الموتى .

ويمرض سيد ميران ، وفى مرضـه كان رجـل غامض يزوره ، وبعد أن مر الشتاء وتحسنت صحة سيد ميران ، قرر فجـأة أن يقوم بزيارة مع « همـا » الى الأعتاب المقدسة فى « قم » ولا تملك « آهو » الا أن تمكث لتحافظ على أثاث منزلها وتبصر أولادها بعمق الكارثة ، والدهم ضل ولا أمل هنـاك فى أن يهتدى ، ويغيب سـيد ميران ، وبينما كانت آهو تكاد تهلك قلقا ، كان سـيد ميران مع ربة الحسن والجمال بين قم وقزوين وهمدان ، وحين عادا كانت « همـا » ترتدى معطفا من الجلد لا تدرى آهو كم يكون ثمنه .

كل هـذه الأحداث كان لها تأثيرها فى دكان سـيد ميران ، فقد تركه عامله « حبيب » عندما رأى صاحب المـال لا يهتم به ، ويجلس

سيد ميران فى دكانه لا يفكر الا فى « همـا » ، انتهى الأمر ولا فكاك، المهم الآن أن يتخلص من آهو وأولادها وأن يذهب مع « همـا » الى مكان لا يصـل اليه حتى خيال كتـاب القصص ، كان سيد ميران يفـكر فى زيادة موارده المـالية ، انه يسرح العمـال ، ينقص الوزن ويزيد السعر ، يفكر فى أن يترك هـذا كله ويستأجر أرضا فى الريف يزرعها وينتهى ، وها هم العمـال الباقون يفرون واحدا بعد الآخر فلم يكن أحد يأمن على نفسه فى وضع سيد ميران ، ثم تتوالى عليه انذارات الضرائب ، اذ كان فى غمرة غرامه قد نسى أن للدولة حقوقا ، وهو فى خلال تلك المصائب لا يجد رفيقا يبثه همومه الا ميرزا نبى ، « وهما » تبصره بأن ميرزا نبى ليس صديقه وأنه هو الذى كان يحرضها على الطلاق ، وتطلب منه أن يمنعه من دخول المنزل ، وتظهر الغيرة على عمله ، انها مستعدة لأن تعمل معه فى الدكان ، ألم تكن آهو تفعل ذلك قبل أن ترزق الأطفال ؟ وكانت « همـا » تحدث سيد ميران كلمـا حدثها عن ضرورة ردها الى عصمته رسميا عن الحب الذى تكنه له ومـاذا تجدى ورقـة ؟ وتعيش الأسرة فترة من الزمن فى راحـة ، سيد ميران يحاول أن يصلح ما أفسده الدهر ، وآهو وقد فقدت الأمل تجد ورقة أثناء تنظيف حجرة سيد ميران فتسرع فى أثر الدجالين ، ثم تحدث الحادثة التى تهز مركز سيد ميران من أساسه .

هجم موظفو التسعيرة ذات ظهيرة على المحل فوجدوا الخبز ناقص الوزن ، ان سيد ميران يعلم أن الخبز ليس ناقص الوزن ، لقد تجرأ ولم يعد يعطى موظفى التسعيرة حصتهم من الخبز ، فاذا وصل سـيد ميران الى الدكان وجد خبز الظهيرة يباع بثلث الثمن وبأمر التسعيرة ، ثم أمر باغـلاق المحل لمدة شهر فاذا عاد تسحب الرخصـة نهائيا .

ان سيد ميران يسب ويلعن ثم يسعى ثم يهدأ ، كان الأمر فى رأيه أن الحكومة تسعى لجعل الخبز نادرا حتى تصرف الشعب عن

متابعة أخبار الحرب « العالمية الثانية » .وهكذا اغلق الدكان وتفرق العمال كل منهم يبحث عن عمل « لأنهم لا يستطيعون الانفاق من مدخراتهم لأنهم ببساطة لا يدخرون شيئا » أما النقابة فلم تستطع شيئا لرئيسها السابق ذلك لأن الموظفين غرباء عن المدينة ولا يعرفون المجاملة .

وهكذا قبع سيد ميران فى منزله ، وبالرغم من انقضاء الشهر لم يعد يريد الخروج من المنزل ، ويلح عليه معارفه فلا يخضع ، وتطلب منه صاحبة الدكان اخلاءه ، ويأتى ميرزا نبى ، فيخبره سيد ميران أنه سوف يترك هذا العمل ، وترد آهو بأن مخلة الشحاذة جاهزة ، ولا يجيب سيد ميران الا بأن الشحاذة فى ديار الغرباء أكرم من أن يكون المرء ذليلا بين أهله ، ثم ان الدعوة المركزية اثرت فى الأقاليم فكسد حالها لكى تبدو العاصمة بمظهر خلاب أمام الأجانب ، ويجيب سيد ميران بأن الذى لا يستطيع أن يكسب عيشه بين أهله لا يستطيع أن يكسبه بين الأجانب ، وهكذا يدور الجميع فى حلقة مفرغة فهم لا يعلمون أن سيد ميران بسبيل اعلان افلاسه ، وها هو يعلن أنه مدين بمبلغ ضخم ، وأنه اقترض بالربا ورهن المنزل ، بل ان المنزل لا يكفى القرض ، ونعلم أن ذلك الرجل الغامض الذى كان يزوره أثناء مرضه هو دائنه ، ولا يجد ميرزا نبى أمامه الا آهو المسكينة يعاتبها ، كيف وصل الحال بسيد ميران الى ما وصل اليه ، فتنبرى باكية : ماذا تفعل انها محترقة ان تكلمت وان صمتت ، انها ليست الا ضفدعة ان أخرجت رأسها من تحت الماء أهينت ، وان وضعته تحت الماء اختنقت ، ويحاول ميرزا نبى أن يصلح من شأن سيد ميران قدر المستطاع ، فها هو يقدم اليه الاقتراحات لينهض من كبوته ، الا أن الظروف مع ذلك كله كانت ضد سيد ميران .

ان الحرب تؤثر فى كرمانشاه والقحط يحيط بها من كل جانب ،

والوباء يحصـــد سكان المدينة حصــدا ، وسيد ميران يوسط الناس لحل مشاكله مع مالكة الدكان ، لكن ســيد ميران لايزال يعزف على وتر الرحيل ، الناس جميعا يتحدثون عن الحرب وهو لايزال يتحدث عن الحب ، انه يتذكر حكايات نجاح من هاجروا الى طهران ، انه سيأخذ معه « همــا » فقط لأنها « رأس واحدة » وبقية الأسرة تبقى حتى يأذن الله بالفرج • واذا نظرنا الى المنزل وجدنا سكانه كالفئران التى تهرب من السفينة قبل الغرق ، فآهو مع أولادها فى مسقط رأســهم سراب ، وقــد صفعت « همــا » قبل رحيلها بقولها ان حياتهــا مع سيد ميران حرام ، وسرعان ما تسرب الأمر الى أهل المنزل جميعا فلم يعد أمام سيد الا أن يردها فى مدينة أخرى •

لم يبق فى المنزل كله سوى خورشيد وسيد ميران « وهمــا » ، وها هو سيد ميران يقضى مع « همــا » ليلة كليلة امرىء القيس حين وصله خبر مقتل أبيه ، انهما يشربان على ذكرى مسرات طهران الآتية والزمن الذى ســيبدأ من جديد ، كل شىء انتهى المنزل والدكــان والحديقة والمدخرات وغدا يبيع أثاث المنزل ويرحلان •

وكان صباح بيع فيه أثاث المنزل ، ويحزم حوائجه مع « همــا » ويضع كل ما معه فى كيس يضعه فى احدى حقائب « همــا » ويكتب خطابا لآهو ويترك نقودا مع الخطاب على باب حجرتها ، أما « همــا » فكانت تفــكر فى الاتصــال بذلك الحبيب الذى تردد اســمه طوال الرواية « البرز » ونعلم أنه سائق عربة ، ولم يكن سيد ميران يعلم أن خورشيد أسرعت الى آهو تخبرها •

وتعود آهو صارخة مولولة نادبة المنزل الذى انهــار ، وتجد الخطاب ، انه اعتذار من سيد ميران ووداع يبدو نهائيا ، وبالرغم من الضربة الأليــة التى تلقتها آهو أسرعت الى محطة العربات ولحقتهم

وصاحت بهم : لتسر العربة لكن على جثتى : وتشتم سيد ميران كما لم تشتمه فى حياتها ، وتجذب الرجل فلا يجد بدا من الركوب معها . كانت المدينة فى هرج وفوضى . الناس يتكأكأون على محلات الأطعمة ، وحين يصل سيد ميران الى المنزل يجلس على عتبته . وينظر الى آهو قائلا : لم تكونى قط هكذا ، وترد : من الآن فصاعدا سوف أكون هكذا وأكثر ، وفى تلك اللحظة يأتى عدد من العمال بالسرير الجديد الذى كان قد أوصى به من أجل « هما » ويرجىء العمال الى الغد ، لكن الأسواق معطلة فى الغد فالانجليز يزحفون على كرمانشاه والمدينة حبلى بألف فتنة وفتنة .

وتصل خورشيد من المحطة ، لم ترض « هما » أن تعود معها ، وركبت مع شاب أشقر أزرق العينين ، وتبلغ خورشيد آخر كلمات « هما » لسيد ميران : « خورشيد هانم ، ان الأمر الصعب هو أن تسامحنى آهو هانم ، لكن « هما » أكثر شبابا من أن تعطى هذه الأمور أية أهمية ، ليكن كل ما يحدث فى هذه الدنيا الجميلة جميلا ، أما فى الآخرة فليكن ما يكون » ويسمع سيد ميران وكأنه يسمع الحكم باعدامه ولا يملك الا أن يقول : « لقد كنت أنا لها فلمن كانت هى يا ترى ...... لتذهب فى أمان الله » لقد ذهبت « هما » بكل ما تبقى من مال لسيد ميران ، وها هو يطلب من زوجته أن تدفع مبلغا من المال لصبيان النجار وأن توقد المصباح . ولم تدر آهو هانم هل تضحك أم تبكى ؟ بالتأكيد ان أذنها لم تخطىء ، ففى صوت زوجها بالرغم من أن الحب القديم لا يبدو ، الا أن رنة الأنس القديم تتجلى فيه .

***

هذه هى رواية « زوج السيدة آهو » حاولت تقديمها بتلخيص شديد ، فالرواية حافلة بالألحان الداخلية والأحداث الفرعية والصور

الطبيعية لشتاء المدينــة وصيفها وربيعها وخريفها • وأثر ذلك كله فى شخصياتها ، تلك الشخصيات التى قدم المؤلف أدق سماتها وملامحها بحيث بعث فيها حياة غنية خصــبة فكأنها شخصيات حية يمكن أن نلتقى بها • وقد اكتسبت الرواية تلك الشعبية الهائلة فى ايران لأنهـا عالجت موضوعا مطروقا بطريقة جديدة •

وقد ذكر بعض النقاد أن الكاتب كتب روايته بتأثير من خلفية ثقافية من حزب توده « الحزب الشيوعى الايرانى » الا أن هذا الأثر باهت وضعيف ، فبالرغم من أن سيد ميران من أرباب المهن الا أن كل ما يتصــل بالعمال لا يعدو صفحات قليلة جدا من الرواية ، ويفصح الكاتب كثيرا عن عداوته للدين بطريقة مضحكة ويحــاول أن يقنعنا أن كل الظلم الذى حاق بآهو مرده الى الدين ، ولكن اقتناعه هــذا لا يصادف قبولا لأنه واضح التجنى وصادر عن غرض ويدل على خطــأ بشع فى فهم الاسلام •

والروايــة حافــلة بالخطب والحوار المطول ودروس الفلســفة والعرفان وعلم النفس والتربية وملخصات الكتب والمقتبسات منها ، ولم يكن كل ذلك الا لكى يستعرض الكاتب لعضــلاته الثقافية فأساء الى البناء الفنى للرواية من حيث أراد أن يخدم نفسه •

وبالرغم من أن الرواية تجرى فى كرمانشاه وأن بعض النقاد قد غالى فزعم أن الرواية تأريخ اجتماعى للمدينة فى فترة ما بين الحربين الا أننا نسى كرمانشاه ، أى أن الرواية من الممكن أن تحدث فى أى مكان ، ناهيك عن لغة الأبطــال فبالرغم من المصطلحات الشعبية ، الا أن لغة الأبطال متأرجحة الى حد كبير فهم يتحدثون بالعامية حينا وبلغة أدبية كلاسيكية حينا آخر ، وبلغة شاعرة أحيانا ، وهــذا طبقا لمــا يتطلبه الموقف والحادثة ، وقد علمت أخيرا أن الرواية • حولت

الى فيلم فى السينما الايرانية ، ولاشك أنها فرصة ذهبية لمخرج الفيلم لحشوه بمشاهد الجنس محتجا بأنه لم يبتعد عن الرواية .

تبقى للكاتب بعد ذلك تلك المواقف الانسانية العظيمه ، وصورة المنزل الذى يحتوى على زوجتين ، تلك الصورة التى تشاهدها فى كل منزل فى الشرق يحتوى على هـذه الآفة ، وفى تحليله لشخصية السيدة آهو كان شديد التوفيق وقدم للأدب العالمى شخصية جديدة وخالدة ، والكاتب أهدى الرواية الى أمه فهل يدل هذا على شىء ما ؟

وقد استطرد الكاتب فى أحيان كثيرة مما جعل روايته تبلغ هـذا الحجم ، وكان من الممكن أن يختصر الحوار وبعض مشاهد وصف الطبيعة فلا تصل الرواية الى هـذا الحجم دون أن تخسر شيئا يذكر من أحداثها .



٦ ـ طـول الليـل

جمـال مير صادقى

جمال مير صادقى من الكتاب الشبان المعاصرين فى ايران ، يعد مع جماعة من الشـبان امثال : بهرام صادقى وغلا محسين ساعـدى ومحمود دولت آبادى ونادر ابراهيمى طليعة من يكتبون القصة والرواية والنقد الأدبى فى ايران حاليا . له عدة مجموعات قصصـية ، اهمهـا : الأميرة ذات العين الخضراء وعيناى متعبتان ، ورواية طول الليل من اهم الروايات التى ظهرت فى السنوات العشر الأخيرة « ظهرت طبعتهـا الأولى » سنة ١٣٤٩ هـ.ش. (١٩٧٠ م) .

ويتميز جمال مير صادقى فى قصه بنظرة نافذة ، ويعد من أهم الكتاب الذين انتبهوا الى حركة تفاعل المجتمع اقتصـاديا وسياسـيا واجتماعيا والى تاثير ذلك فى نمو الشخصية الايرانية ، كما يعد من أوائل من بنوا رواياتهم على مواقف حياتية لا مواقف فـكرية ، انه فى راى الشاعر الكاتب الناقد الايرانى محمود كيانوش : يود أن يقول حـذار ، انكم تعيشون فى هـذا المجتمع المضطرب الذى ماتت فيه العدالة ، ان

الفساد هو نتيجة الفقر ، والفقر نتاج لانعدام العدالة الاجتماعية . وليس الشر فى نفس الانسان بل هو نتيجة ظروفه ، وفى مثل هذه البيئة . اما أن تكون سيئا وتعيش ، واما أن تكون طيبا وتموت ، وعلى أى حال فانك اذا كنت سيئا أيضا فلن تكون محدود العافية .

***

كانت زيارتى الأولى الى ايران بعد أن قرأت الروايات التى سبق عرضها . كنت ذاهبا وفى ذهنى روايات هدايت وجمالزاده وحجازى وأفغانى ، قلت فى ذهنى وأنا أهبط الى الأرض التى طالما عايشتها بخيالى لأرى الى أى مدى كانت نظرة الكاتب الايرانى صادقة فى التعبير عن بيئته . كنت أتصور أننى لن ألتقى فى ايران الا برجال يلبسون الملابس الايرانية التقليدية يمسكون بالمسابح ويتحدثون بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية أو بأشعار سعدى وحافظ ، وكنت أظن أننى لن ألتقى فى شوارع طهران وأسواقها الا بنساء محجبات مختفيات من قمة الرأس الى أخمص القدم ، ان أردن اغراء أزحن طرفا من العباءة عن عين بها حور ، كنت أظن أننى لن ألتقى بايرانى الا وتناقش معى فى قضايا فكرية عميقة ومجردة ، كنت أظن أننى لن ألتقى الا بالراوى فى « الورود التى تنبت فى جهنم » أو محمود فى « دار المجانين » أو حسين خان فى زيبا أو سيد ميران فى « زوج السيدة آهو » ، كنت أتصور الشارع الايرانى كما قرأت عنه عند هدايت وجمالزاده ، وكنت أتصور مسجد سبهسالار غاصا بالطلاب الدينيين بعباءاتهم السوداء وعماماتهم ولحيهم الطويلة ونظراتهم النفاذة ينتشرون فى أروقة المسجد وهم يتهامسون ثم لا تلبث أن تقوم مظاهرة ، كنت أتصور البيت الايرانى كئيبا حزينا لا يخلو من قارىء للروضة يقص مآسى آل البيت وقد تحلق حوله أهل المنزل يبكون وينوحون .

ثم ذهبت الى ايران فوجدت عالمين وحياتين : العالم الذى كنت أظنه طاغيا وجدته موجودا بالفعل ، لكن فى أطراف المدن وفى أحيائها

القديمة يتوارى خجلا أو محافظة ويفسح الطريق لعالم لا يختلف فى مظاهره فى قليل أو كثير عن العالم الموجود فى بقية العواصم الكبرى ، وتذكرت أن عواصم الشرق بلا استثناء تحتوى على هذين العالمين معا تفصل بينهما بوابة أو ســوق أو حى تجارى يقسم المدينة الى قسمين، وتذكرت أول زيارة قمت بها الى « دلهى » وأنــا مبهور بشــوارع المدينة الجديدة ومظاهر الحياة فيها حتى اذا عبرت البوابة الى دلهى القديمة وجدت دلهى أخرى بكل ما كانت تعنيه لى وكما كنت أتصورها وهكذا كان الأمر فى طهران وشيراز وأصفهان ومشهد وتبريز . نهارا تحملنا اهتماماتنا الى أسواق طهران القديمة ومساجدها وحى الامام عبد العظيم ومدينـــة الرى القديمة ، وفى الليل تتخفف من أعبــاء النهار فتحملنا العربات الى شميران ودربند ونياوران فاذا بنا أمام عالم آخر بحيث يتعجب المرء : هؤلاء الذين يشربون ويرقصــون على أنغام الموسيقى الصاخبة والألحــان الغربية ويرتدون أحدث الأزياء هم أولاد نفس أولئك الذين كانوا يجلسون فى السوق فى الصباح ؟ وأولاء الفتيات اللائى يرتدين أحدث الأزياء ويملأن المنتديات على طول شميران هم بنات أولئك اللائى كن فى الصباح يتمسحن فى ضريح الامام عبد العظيم ويبكين وينتحبن ؟ .

وفى زيارات تالية الى ايران أتيحت لى الفرصة للتعرف الى البيت الايرانى عن كثب ، فوجدت نفس العالمين : عالم « شهباز » فى الجنوب من طهران حيث لا تجرأ طفلة فى الخامسة من عمرها على الخروج من المنزل دون حجاب رغم أننى لم أجد قارىء روضـــة ولا أحدا يبكى بل وجدت جهاز التليفزيون والأسرة مهتمة بمباريات الدورة الآسيوية للكرة ، وان كان رب الأسرة يجلس على بعد يداعب حبات مسبحته ويحوقل . ودخلت بيوتا فى الشمال ما ان يهل الضيف حتى تقدم له المشروبات الروحية وتنبعث الموسيقى من جهاز « كاسيت » بينمـــا

من الممكن للشاب أن يشرب كوبا من البيرة أو يدخن فى حضرة والده ، وشهدت حفل زفاف فى أحد الفنادق ، كان جانب من المدعوات يلبس فساتين السهرة العارية وجانب آخر يرتدى الطراحة أو العباءة الايرانية التقليدية ، وكل جلس مع من هم فى مثل زيه ، وكلهن أيضا من الشابات .

لم تلبث هذه المشاهدات أن أثارت سؤالا آخر فى نفسى : ايران التى وصفها الكتاب الذين ذكرتهم موجودة بالفعل والدليل بقاياها التى لاتزال موجودة ، لكن أين التعبير عن ايران الجديدة وعن الصراع الذى محالة قائم بين الجديد والقديم ؟ أين الكتاب الشبان فى هذا المجتمع الذى لاشك يقدم مادة حية صالحة للكتابة ؟ حاولت أن أجد اجابة على سؤالى عند بعض أساتذة الأدب الايرانيين ، فلم أجد جوابا لأن أساتذة الأدب هناك لايزالون يرون ان الاهتمام بفن الرواية أو الشعر المعاصر مما يغض من القيمة ويقلل من الكرامة ، وكان من المستحيل أن أسأل شابا من هؤلاء : هل قرأ عملا أدبيا يصور نفسه ، فلا المكان ولا المجال مما كانا يسمحان بذلك فضلا عن روح الحذر المعروفة عند الشباب الايرانى عندما يتحدثون مع أجنبى .

وأخيرا وقعت فى يدى مجلة ايرانية تحتوى على مقالة كتبها المستشرق الروسى كميسيروف . والايرانيون أيضا مشهورون بحساسيتهم الشديدة تجاه كل ما يكتبه الأوربيون عن أدبهم حتى ولو كان الأدب المعاصر ، ولولا ما كتب فى أوربا عن هدايت ما عرفه أحد داخل ايران نفسها ، كان مقال كميسيروف يحتوى على تحليل لموضوع الصراع بين القديم والجديد فى ايران من خلال ثلاث روايات : الأولى زوج السيدة آهو التى عرضتها آنفا ، والثانية « افسانه وافسون أى خرافة وهباء » لمحمد على اسلامى ندوشن والتى كتبها باسم مستعار هو م. ديدهور والثالثة : طول الليل لجمال

مير صادقى ، وقمت الى مكتبتى وكم كانت سعادتى عظيمة حين وجدت الرواية الثالثة وقلت : لأختم بها هذا الكتاب .

***

مباشرة وبدون أية مقدمات يزج بنا المؤلف من الصفحة الأولى فى موضوع الرواية ، ويقدم لنا عالمين مختلفين فى مدينة طهران ، العالم القديم وتمثله أسرة بطل الرواية « كمال » والعالم الجديد وتمثله أسرة زميله فى الدراسة وصديقه « منوچهر » . وتفتتح الروايه وكمال ومنوچهر خارجان من المدرسة الثانوية والشوارع مزدحمة بالسيارات والمارة والطلبة ، بطل الرواية يبحث بعينه وسط جموع الطلبة عن رفيقه ، ان كمال متعلق برفيقه هذا لأنه يمثل كل ما يتوق اليه دون أن يستطيع أن يكونه ، أما الرفيق فقد تعلق بكمال لنبوغ الأخير وللمساعدات التى يقدمها اليه فى الدراسة ، نحن أمام نوع من صداقة المتناقضات وهى ميدان صالح جدا لمثل هذه الرواية التى تقوم على وصف هذه المتناقضات وتأثيرها فى حياة الذين يعيشون داخلها .

وتقدم لنا الرواية مباشرة أيضا وبوضوح رؤية قل أن يصادفنا فى رواية ايرانية معاصرة أول صدام بين العالمين ان كل ما يشغل كمال هو مجلس قراءة الروضة والاحتفال المزمع القيام به فى منزل عمه ليلا حيث تدق الصدور ، ويضرب المحتفلون أنفسهم بالقمة (وهى سلاح أقصر من السيف) ندما على أنهم منذ أربعة عشر قرنا خذلوا الحسين عليه السلام وتركوه يقتل وحده فى صحراء كربلاء ، واليوم هو يوم مقتله رضى الله عنه ويوم الذكرى ، وكمال يسير فى الطريق لا هم له الا استعراض الجماعات التى تسير براياتها وشاراتها وعلاماتها فى طريقها الى أماكن الاحتفالات كان كمال لايزال منبهرا بمثل هذه الاستعراضات يفاضل بينها ، بينما كان منوچهر خالى الذهن تماما لا يدرى حتى معانى المصطلحات التى يتحدث عنها كمال ،

ولا يرى أهميــة لهذا الموضوع من ألفه الى يائه ، ان كل ما يشغله هو ذلك الحفل الراقص الذى يزمع القيام به ليلا ، وان كل ما يضايقه هو أن جميع الملاهى ودور السينما مغلقة ، فاذا اعترض كمــال مذعورا على حفل راقص يقام فى ليلة القتل ، هز منوچهر كتفيه استهانة قائلا : « سيبك يا بنى » .

ويفترق الصديقان بعد أن يعطيه منوچهر كتابا ، ان كمال يأخذ منه الكتاب ، ويمضى فى طريقه يفكر فى الكتب الذى يقدمها له منوچهر كيف أنه لم يكن يقرأ الا الكتب الدينية ، وكيف أن منوچهر سخر منه ودله على نوع من الكتب لا يقل أهميــة عن هذه الكتب الدينية وكيف أنه لم يستطع أن يتم الكتاب الأول ، لكنه لم يلبث أن تقدم فى قراءة هــذه الكتب ، العالم الذى فتحته أمامه هــذه الكتب كان يتعارض مع العالم الذى كان يحدثه عنه والده تماما ، ولأول مرة بدأ كمال يعيد النظر فى ما تلقاه عن والده .

ان كمال وهو ماض الى منزله لا يسرع فى السير كما كانت عادته فى الليالى التى تقام فيها احتفالات عاشــوراء ، يمضى حثيثا غارقا فى أفكاره فى هذا الحى القديم « التى هدمت معظم منازله لأن أصحابها هجروها الى شمال المدينة » ، ويدخل كمال منزله وهو ضائق ، انه لا يود أن يذهب الى الاحتفالات التى تقام فى منزل عمه ، حتى اللذة التى كان يحسها وهو يوزع الشــاى على النســوة لا يريدها . وفى الصباح تزداد علما بمنزل كمــال ونظام الحيــاة فيه : المناقشــات والمشاحنات التى لا تنتهى بين والده ووالدته وخلالها تتبادل بالطبع أقذع الألفاظ ، شك والدته فى الزيارة التى يقوم بها والده أسبوعيا الى مدينة « قم » الدينية وحيدا واصرارها على أن تذهب معه ، وكمال يتدخل لاقناع والده باصطحابها لكن والده يحدثه كما يحدث الكلب ويهدده بالضرب ، وكمــال فى دهشة : لمــاذا يذهب والده مرتين فى

العام الى مشهد ومرة الى كربلاء ويذهب أسبوعيا الى « قم » ثم يشكو من كساد السوق ومن الخراب العاجل الذى سوف يحيق به لمجرد أنه ينفق على كمال فى المدرسة ؟ ان صورة الوالد تهتز فى نظر كمال وتهتز معها كل معتقداته ، أليس هو الوالد الذى تسيطر عليه نزعته التجارية فلا يسمح له بمواصلة تعليمه الا بعد الحاح والا بعد التزام منه بأن يقضى الأجازة كلها فى مسك حسابات دكاكينه العديدة ، حتى اذا عاد الى المنزل التزم بحمل أخيه الصغير ؟ أليس هو الوالد الذى يحاسبه حساب الملكين على الدقيقة التى يغيبها فى طريق عودته الى المنزل وكأنه فتاة يخشى عليها السقوط ؟ ان الفخر الوحيد الذى يفخر به أبوه بالنسبة اليه هو أن صوته جميل فى قراءة الروضة وأن أصدقاءه يلحون عليه فى احضاره معه الى احتفالاتهم ، وما هو مجلس الروضة هذا ؟ كل من تسيل دماؤه أكثر يكون أكثر تقوى وبطولة ؟ ومن هم أبطال هذه الجلسة ؟ أحدهم يفتح مقهاه لألعاب القمار والآخر « فتوة » يحميه ، وابن عمه الأكبر الذى يختلس النظر الى أثداء النسوة وفى مجلس الروضة ؟ وأولئك الفقراء الذين يتوافدون على منزل عمه من أجل الطعام فيطردون من على الباب طرد الكلاب لأن الطعام فقط للضيوف والمحاسيب ؟ وذلك الضرب بالقمة الذين يقومون به بالرغم من تجريمه ويرشون الشرطة لكى تغض الطرف ؟ ومنظر حوض الماء فى الصباح تطفوا عليه الخرق الملوثة بدماء القوم ؟ لقد أراد أن يدعو منوچهر لحضور الاحتفال ذات ليلة وتصور أن منوچهر سوف يقبل الدعوة شاكرا فاذا به يرد عليه بامتعاض : ماذا ؟ آتى لماذا ؟ لأرى وحشية هؤلاء الناس ؟ وكان الحفل الأخير الذى لم يطق فيه كمال الوجد الذى أمسك بتلابيبه والهياج الذى أصابه ولولا أنه تسلل خارجا من الحفل لأسرع الى الحلاق يحلق له رأسه لكى يشارك فى ضرب القمة .

لقد اختلى فى حجرته تلك الليلة بكتاب من الكتب التى أعطاه

اياها منوچهر ، الا أنه قبل أن يشرع فى القراءة مضى الى النافذة وأخذ ينصت الى أصـــوات النائحين والضاربين على الصـــدر تأتى من بعد، سنوات طويلة وهو يحتفل معهم ، أما الآن فهو ينصت الى أصـــواتهم من خلف النافذة ، وأحس بحزن شديد بحيث ود لو يبكى •

فى اليوم التـــالى كانت المرة الأولى التى يقوم فيها بصـــلاته قضاء ، وخرج الى المدرســـة سعيدا لأن أحدا لم يفطن الى انسحابه من المجلس فى الليلة الفائتة ، واذا باليوم عطلة « لوفاة أحد العظماء »، ويجلس كمـــال بين زملائه كل منهم يقص : فيم قضى ليلة الأمس ؟ وكمال الذى قضى ليلته هاربا من مجلس الروضـــة يحاول أن يقرأ كتابا لا ينجو من سخرية زملائه ، لابد أنه ذهب لينوح ويدق الصدر، ويخرج كمـــال مع رفيقه ، انه ليس ضائقا من حديثـــه يستمع اليه ولا يحس بالحزن ، انهم يتحدثون عن أشياء لو سمعها أبوه لحكم عليهم بالكفر ولـــا تركه يعرفهم قط ، انهم يتحدثون عن السينما ولعب الورق ومطـــاردة الفتيات ، ويذهب الجميع الى منزل منوچهر حيث يشغل الجميع بلعب الورق بينما ينتحى كمال جانبا ويتأمل الحديقـــة « التى تصـــلح تماما لاقامـــة الاحتفالات الدينيـــة » ويجلس بجوار الحوض يتأمل الطبيعة من حوله ، وتأتى « فرشته » أخت منوچهر ، فتاة جميلة تصغره قليلا ، سافرة الوجه عارية الساعد ، انها تتحدث الى كمـــال لكنه يود لو تواتيه الجرأة على تركها ، انها تحدثه بجرأة ، لكنه يرد على حديثهـــا ردودا مقتضـــبة وهو مطرق الرأس قد احمر خجلا ، لـــاذا ينظر الى الأرض دائمـــا هل فقد شيئا ؟ ما هـــذا ؟ ألا تدرى أن هذا هو حسن الأدب وحسن الايمان ؟ كل من حوله يمدح هذه الخصـــال فما بال هـــذه الفتاة عارية الساعد تحتج على هذا ؟ كيف لا تخجل أو « تخاف » من جلوسها معه ؟ لـــاذا ينظر الى الأرض ؟ انه يود لو يستشهد بحديث نبوى لكنه لا يقوى ، كيف لا تمدح « فرشته » هـــذا السلوك ؟ ما هو الخطـــأ وما هو الصواب؟

يكاد عقله يطير وهو يرى أن كل ما يمكن أن يجيب به الفتـــاة قد تضحك منه ، انها تتحدث عن مساعداته لمنوچهر فى المدرســـة ، وعن نبوغه فى الرياضيات وهو لا يرد ، ماذا تريد ؟ وماذا تقصــد ؟ ألم تطل الجلسة فوق اللازم ؟ ما لها ولباسه تنتقده ؟ لو يستطيع أن يقوم لصار بعد خطوتين أمام باب الخروج ، لكن فرشته لا تتركه يقوم حتى توضح أهدافها ، انها ضعيفة فى الرياضيات تود أن يساعدها وهو يقبل، ثم يتغلب على خجله قليلا قليلا ، وتحدثه عن آخر فيلم شاهدته ... وتمر الجلسة .

أكانت الجلسة تمر دون أن تؤتى أكلها ؟ انها أول مرة يجلس مع فتاة لقد أصابت نظراتها من قلبه مقتلا ؟ أهو يحبها ؟ هل تحدث الآخرين بنفس الطريقة التى تحدثه بها ؟ بالتأكيد نعم ، اذن لمـــاذا يفكر فيها كل هـــذا التفكير ؟ لمـــاذا لا تغادر صورتها خياله أبدا ؟ كم هى جميلة ورقيقة كأنها واحدة من بطلات الروايات التى يعطيه اياها منوچهر ، لكن : هـــل من الممكن أن تختـــار كمال من بين كل الشباب الذين يحيطون بها وجميعهم أكثر منه أناقة وأبهى منظرا وأكثر لباقة ؟

ان كمال عائد الى منزله ، لكن كم يود ألا يذهب الى هـــذا السجن ، ما هـــذا المنزل وما هذه الشتائم المقذعة التى يتبادلها سكانه؟ كم يود ألا يجلس الى مائدة الغداء ويرى هـــذا النقار المستمر بين والديه ، ويرتدى كمـــال ملابسه أنه يريد أن يمضى الى منزل فرشته « لم يقل منزل منوچهر » ، الا أنه تردد ، ماذا يقول لهم ولأى أمر جاء ؟ صرف نظره عن الذهاب واستمر يقطع الطرقات ، لا يلفت نظره الا الثنائيات من الشباب والفتيات الذين يسيرون فى الشارع ، ويعود فيسلمه والده كتابا استعدادا للذهاب الى مجلس الروضـــة فى منزل عمه ، أى روضـــة وأى كتاب ؟ ما له و « حلية المتقين » والحسينية

لملا باقر ؟ ما له وآداب لف العمامة ولبس النعل وحلاقة الرأس ؟ ما له ومنزل عمه ؟ نزهة ابنة عمه كانت تلعب معه منذ سنوات قليلة ، أما الآن فلا تكاد تراه حتى تفر من أمامه كأنما أصابها مس من الجن ، ان كمال لا يود الذهاب الى مجلس الروضة انه مريض ، أجل مريض ، والا فلماذا يضيق من كل ما كان يسبب له سعادة ولذة فيما مضى من زمن ؟ .... ولم يذهب .

عندما خرج كمال من المدرسة فى اليوم التالى مضى مع منوچهر الى منزله ، لا يدرى ماذا يحدث له كلما تفوه منوچهر باسم أخته ، اضطراب يحتوى وجوده بأجمعه ، انه يجلس مع منوچهر فى منزله يحتويه خوف غامض ومبهم ، لابد أن يمضى حالا عن هذا المنزل ، لماذا اعتنى بهندامه فى هذا اليوم ؟ لماذا وافق على الذهاب مع منوچهر الى منزله عندما دعاه دون أدنى تردد ؟ لكن منوچهر ووالدة منوچهر يحاولان بقدر الامكان أن يجعلا كمال يحس بأنه فى منزله ، ويدور حوار بين الشابين ، ان منوچهر يخطط للعطلة الصيفية لكن كمال لا يستطيع أن يفكر أن أمامه عطلة ، انه مرتبط مع والده فى الدكان ، ان لم يفعل أخرجه من المدرسة ، ويرد منوچهر : لكن لماذا لا يفعل مثل « محمود » لقد انفصل عن أسرته وهو يعمل ويدرس فى نفس الوقت ، ويرى أن الأسرة رباط لا قيمة له ومع ذلك فهو لا يكبر كمال ومنوچهر الا بعامين فقط ، ان منوچهر يعلم مستقبله أيضا عام واحد وينهى دراسته الثانوية ، ثم يمضى الى أمريكا .

وتأتى فرشته ، ويرتعد كمال ، انه يود أن يسيطر على نفسه ، أجل يسيطر على نفسه ، ان الفتاة تتبادل مع أخيها حديثا كله مرح ودعابة ، وكمال مشدود الى كل ما يرى ، الى علاقات الأخوين معا ، والى علاقتهما بأمهما والى الحلوى التى تقدم له والطريقة التى تقدم

بها ، بهذا الصفاء الذى يسود جو المنزل كان يحس بأنه غريب ، رغم كل المحاولات التى تقوم بها أسرة صديقه لمحو هــذا الشعور ، انهم يتحدثون بلغة لا يفهمها ولا يستطيع أن يتحدثها ، فلا يملك الا أن يضحك حينما يضحكون ويهز رأسه موافقا حينما يتحدثون ، ويعرض عليه منوچهر أن يذهبا معا الى السينما ، لكن كمال يرفض رفضــا قاطعا « كانت السينما فى نظره مكانا للفساد ، كانت تثير خوفه ، عندما كان يمر أمام احــدى دور السينما كانت صــور النســاء العاريات والرجال المتأنقين تثير فى نفسه الكراهيــة ، أجل كل ذلك الى جوار ما سمعه من أبيه وعمه ، لا ، انه لن يستطيع » ويخرج الى الشارع وهو خائف ، انه لا يرفع عينيه عن أرداف النساء واهتزازاتها ، صدق أبوه ، ان كل من يخرج الى الطريــق لابد أن يعود وقــد ارتكب المعصية وفقد جزءا من دينه . ولم يستطع حين عاد الى المنزل أن يصلى بخلوص نية كما ينبغى .

ومع ذلك أخذوه معهم فى الأسبوع التالى الى السينما ، جرته فرشته من يده جرا ، ولم يملك لها دفعا ، عندما أفاق من حرجــه وجد نفسه الى جوار فرشته والظــلام يحيط بهما ، أحس برعب لكنــه عندما انتهى الفيلم أحس بأنه كان فى حلم عميق وجميل ، لم يكن هناك نساء عاريات يغوين الرجــال ، اذن كان أبوه وعمه يكذبان ، من أدراهما ؟ ينبغى أن يجرب الانسان كل شىء بنفسه ، لقد أثر فيه الفيلم كما لم يؤثر فيه أى كتــاب قرأه من قبل ، ولا يملك كمــال نفسه فيحــدث أمه عن هــذا الاكتشاف العظيم الذى اكتشفه متــأخرا ، يتمنى لو أنها كانت معه وترجوه أن يخفض من صوته والا ســمع والده ويرد بصوت عــال : « ليسمع ، ما دام لم يذهب الى السينما ولا يدرى ما هى فلماذا يتحدث عنها بالسوء ؟ انه مخرف لا يفهم ، انه لا يفهم شيئا قط ، شيخ مخرف » ويسمع أباه يقرأ بصــوت عال كتابا من تلك الكتب القديمة التى تروى معجزات الأئمــة ، فلا يملك

الا السخرية • وفى الأيام التالية كان كمال يحس بأن كثيرا مما كان يعتقده قد اهتز ، وكأن فوضى غير معلومة قد اجتاحت كل وجوده ، لكنه مع ذلك كان يحس باللذة • كان الربيع أيضا قد أيقظ كل ما فى الحيـاة •

ونلتقى بمحمود ، ذلك النموذج الذى علمنا طرفا من أخباره على لسان منوچهر قبل ذلك ، التقى به كمـال ومنوچهر بينما كانا عائدين من المدرسـة ، ويتفق منوچهر ومحمود على الذهاب الى احد المقاهى لشرب كأس من العرقى ، ويذعر كمـال •• لا ••• لابـد أن يعود أدراجه ، الا أنه يمضى معهما بعد أن يفهم أنهما يسخران ، وفى المقهى يدور الحـديث ، ان كمالا مأخوذ بكل عقله بحديث محمود ، كان كمال يود لو يسأله : كيف يعيش وحده وكيف يعمل ويدرس فى نفس الوقت ؟ ثم يتجرأ بعد قليل ويسأله : كيف قطعت علاقتك بأمك وأبيك؟ ويبتسم محمود قائلا : لا تسمها قطع علاقة ، ان الانسان لا يستطيع أن يفعل ذلك ، لكنه يستطيع أن يعيش بعيدا عنهما • ويعلق منوچهر : ان كمـال فى نفس وضعك تقريبا ، ويرد محمود : كثيرون من هم مثلنا ، نحن لا نستطيع تغييرهم ولا نقبل أفـكارهم فلابد اذن من الانفصال عنهم ، من الطبيعى أنهم فى البداية يحزنون لكنهم سرعان ما يعتادون ، ان لهم حقا ولنا حقا وحقوقنا مختلفة داخل عالم واحد ، ومن ثم ينبغى أن يمضى كل الى حـال سـبيله ، هـذا وان أحس الانسان فى بعض الأحيان بحنين الى حياة المنزل • ويتجرأ كمال ، انه يريد أن يفعل مثل محمود ، ومنوچهر هو الآخر يريد نفس الشيء ، لكن محمودا يسـخر من منوچهر ويشجع كمـالا على الحـديث ، ويتحدث كمال : ان والده يحمله ما لا يطيق ، وأشد ما يضايقه منه ذلك الاحترام الذى يبديه لامام الجـامع بالرغم من أنه محتـال ، انه يستشيط غضبا اذا لمح طفلة تخرج من منزلها دون حجاب ، ويحرض منوچهر كمالا على الثورة قبل أن تتفاقم الأمور أكثر من ذلك ، لكن

محمودا ينصحه بالصبر ، حتى ينتهي من دراسته الثانوية اذ لايزال عوده طريا على هذه الحياة ، ويمضي محمود الى حال سبيله ، ويظل كمال جالسا مع منوچهر الذي ينشغل بمطاردة فتاتين يصفهما الكاتب في صفحات طويلة ، ولا يتركهما منوچهر الا بعد أن يظفر بموعد لهما معا .

يتردد كمال على منزل منوچهر « الذي أصبح منزل فرشته » انه يساعدها في الرياضيات ويمتع نفسه بجمالها عن قرب ، لكنه لم يكن راضيا عن حياته كل الرضا في تلك الأيام ، كانت أيامه خليطا من الحزن والسرور والأمل واليأس ، كان كلما جلس مع فرشته نسي كل شيء الا أنه بجوارها ، حتى اذا خلا الى نفسه في منزله أخذ الضيق بتلابيبه ليس لفراقها بل لتصوره لهذا الطريق المسدود الذي يمضي فيه وهو مغمض العينين ، كان بين شد وجذب بين احساساته التي تدفعه نحو فرشته دفعا وعقله الذي يخاطبه بين الحين والآخر قائلا : « لماذا لا تريد أن تفهم ؟ انك ترضي قلبك بالخيال وتخدع نفسك ، انك لن تصير مثلهم أبدا ، أبدا لن تصير » ، كانت الامتحانات على الأبواب ، كان يمضي الى منزل صديقه فيساعدهما أحيانا ، ويذاكر أحيانا أو يتأمل والدهما الذي كان يأتي من عمله في الجنوب والذي يسميه محمود « تمثال البورجوازية » ، ويعجب من كل ما يرى حوله من العلاقات الحرة بين الفتيات والشبان ، لكنه كان يحس أنه لا ينتسب الى هذا العالم .

كان عالمه هناك ، والده لا يفتأ يتحدث عن الكفر والزندقة ، ويعقد الاجتماعات أسبوعيا يوما أو يومين في منزله ويرسل العرائض الى أئمة رجال الدين في كربلاء والنجف الأشرف ومشهد وقم عن الدين الذي هو في سبيله الى الضياع لكن هذا كله لا يجدي فتيلا ، تعداد الذين يلبسون الملابس الأوربية يزداد ، وتعداد اللائي

يخلعن الحجاب فى اطراد مستمر ، والذى يحس بالضيق ليس أيسر من أن يبيع منزله ويمضى الى شمال المدينة . أيكون كل ما تفعله فرشته ضياعا للدين ، وهل يندفع بكل سرعته الى ضياع دينه أيضا ؟

أصبح كمال يحرص على رباط عنقه وأناقته ومظهره وثنية سرواله وحلاقة لحيته كل يوم ، كان يريد أن يكون قريبا منهم ، لكنه مع ذلك كان يحس أنه غريب عنهم . لقد بات يحس أنه أصبح شخصا جديدا . لكنه لا يشبه منوچهر ولا يشبه أيضا أولاد عمه ولا حتى يشبه محمود . أين الحقيقة ؟ أهى ما يقولها أبوه ان كل الناس كفرة وحطب جهنم ؟ أم ما يقوله محمود : انهم لا يتركوننا نعيش ، يقولون لنا كونوا أحياء لكن لا تعيشوا ، مع أن زماننا مختلف عن زمانهم ، كم يود أن يقضى أكبر وقت ممكن مع محمود ، أجل ان محمودا هو الوحيد الذى سيقوده فى هذا العالم ، من الممكن أن يكون مثل محمود ، ومن المستحيل أن يكون مثل منوچهر ، ومن سابع المستحيلات أن يعود كمال القديم وأن يصبح مثل أولاد عمه .

ويأتى الموعد الذى ضربه منوچهر للفتاتين ، لكن كمال لايريد أن يذهب ، لا ينبغى أن تعلم فرشته أنه يطارد الفتيات ، لا دخل للخجل أو العيب هنا ، انه يترك منوچهر يمضى وحده ، ثم يجلس مع فرشته التى تخرج معه لشراء هدية لأحد الأصدقاء ، وبعد أن يشعر كمال بالحزن يعتصره ، يعلم لسعادته أن هذا الصديق ليس الا اياه ، ان فرشته من فرط سرورها لنجاحها فى امتحان الرياضيات لا تدرى كيف تظهر امتنانها لأستاذها ، انها تأخذه معها الى السينما وتلتصق به فيها ، لكن كل هذه السعادة التى تنصب على كمال صبا لا تمضى دون منغص ، انها تلتقى بأحد معارفها على باب السينما وتنهمك فى

الحديث معه : ويقف كمال يرمق الشاب من بعد ، انه يقارن نفسه به ، لا وجه هناك للمقارنة على الاطلاق ، هـذا الشاب من بيئتها ومن « ثوبها » انه لا يخجل ولا يغض من بصره عندما يتحدث اليها ، انه يحتويها ويشعرها برجولته ، لعل بينها وبينه علاقة ما لا يدرى بها ولعلها تجزل له العطـاء بينما لا يظفر منها الا بأنها تتركه مشتعلا على الدوام ، انها لاثقة به وهو لاثق بها ، أما هو فنبت غريب من الخير له أن يمضى متسللا الى الخـارج دون أن تلحظه ، ينبغى أن يفعل ذلك قبل أن يفقد البقية الباقية من كرامته ، لكنه ما ان يتحرك حتى تلحظه فرشته فتناديه ، انه بهرام قريبها وأحيانا يأتى الى المنزل لكنها لا تطيقه، انه يحرك عنقه وحاجبيه فى الحديث تقليدا للممثل جريجورى بيك ، لم يكن هـذا فقط هو السم الذى صادفه كمال فى الدسم ، فبينما هما خارجان لمحهما ابن عمه يتأبطها وسط الزحـام ، كان يعلم أن هـذا الأمر لن يمر على خير ، بالرغم مما يعلمه من سـلوك لا يسر ولا يشرف يبدر من ابن عمه ، وسط النساء فى مجالس الروضة .

***

يصل كمال الى منزله وهو يدندن بشعر لا يردد فيه الا اسم « فرشته » ذلك أنه اكتشف أن كل الشعر الذى يحفظه شـعر دينى ولا يليق بالمناسبة ، فى اليوم التالى يحدث ما توقع تماما ، أرسـل عمه فى طلبه ولم يملك الا أن يذهب ، الا أنه يفكر فى الطريق ، هذا هو عمه عميد الأسرة يرسل فى طلبه ، ومنذ أيام وأبوه لا يتحدث معه ، فلما لم يعبأ به أحد يسمعه تهديداته الأزلية بأنه سـوف يخرجه من المدرسة التى أفسدته وسوف يسلمه « مقشة » ويكلفه بالكنس أمام جميع دكاكينه ، فهذا هو العمل الوحيد الذى يليق به ، لكن أمر عمه هين ، انه أكبر من أبيه ، لكن التفاهم معه سهل ، ليس متحجرا مثل أبيه ولا سريع الغضب بذىء اللسان مثله ، فى الطريق يسمع كمـال عن حادث قتل وقع فى مكان ما بهدف السرقة ، لا يستوقفه فى الخبر

الا أسماء الجانيين ، أجل بطلا الضرب بالقمة واحتفالات الروضة وشج الرأس فى احتفالات عاشوراء •

ويصل كمال الى منزل عمه والعم يحاوره ويداوره . انه يتمنى أن يكون ما سمعه خطأ ، ان كمال ليس من هؤلاء الشبان ، ترى هل حقيقة ما قيل عن كمال من أنه شوهد يتأبط احدى النسوة الفاسدات السافرات فى الشارع ، الا أن كمال يحدثه بكل بساطة انها ليست من النسوة الفاسدات ، لكنها أخت زميله وتخرج معه بعلم أهلها ، اذن لابد أنه شرك ينصب لكمال ، لا أيها العم ان والدها موظف كبير من موظفى الدولة ، اذن فهو من هؤلاء اللصوص الذين لا دين لهم والذين يسرقون الشعب ، واذا بكمال يصيح فى عمه : لماذا وأنتم المتدينون لا تفعلون شيئا الا أن تجلسوا وتغتابوا الناس الذين لا تعرفونهم ، لكن العم ينكر على كمال أن يدرس لها ، انه ليس معلم بيوت ، وأهلها ليسوا فقراء ليحضروا لها معلما ينبغى أن ينتبه الى نفسه ويرى من يعاشر ويبحث عن أناس من « ثوبه » وينصرف كمال ، وعلى الباب يلتقى بأحد أولاد عمه ، انه يسخر من الحادثة الأخيرة ومن الجانيين بطلى احتفالات عاشوراء ، ويسأل ابن عمه : ترى هل أخذا أعلامهما معهما الى السجن ؟ اذهب وسل أباك : هل اذا سار شاب مع فتاة فى الشارع ترتفع بطنها ؟

ويسقط كمال فى منزله هاذيا متخيلا فى هذيانه أنه صار قارئا للروضة وأنه اعتم بعمامة كبيرة وصعد الى المنبر وأخذ يعظ جمعا كان بينهم منوچهر ورفاقه ، وكانوا يسخرون منه ، انه لا يصلح لهذا الدور السخيف ويصيح به محمود الذى كان بين الجمع : انزل ، البورجوازيون قادمون ، انه يقوم من النوم ضائقا ، يقضى حياته ضائقا ولا يستطيع أحد من أهل منزله أن يقترب منه ، لقد صار فى نظر أخواته كالكلب يريد أن يعقر كل من يقترب منه ، انه فعلا يريد أن

يضربهم جميعا . ما لهم به ؟ ليبحث والده عن كاتب حسابات جديد ، ولتبحث أمه عن مرب جديد لولدها الصغير ، لم يكن يدرى ماذا يفعل فى المنزل ، فاذا خرج الى الشارع هام على وجهه فترة من الوقت ثم عاد ، كان يحس بالضيق والحزن ويعانى أزمة تهز أعمق أعماقه ، ولا يجد من يتحدث اليه ، ولم يجد مبررا للذهاب الى منزل منوچهر بعد الامتحانات ، كان يخشى ألا يقابل بعد الامتحانات مثلما كان يقابل قبلها ، كان يود لو يظل سادرا فى وهمه من أن فرشته تميل اليه وأنه ليس مجرد معلم بيوت كما أخبره عمه ، ومع ذلك فقد قاوم وذهب مرة أو مرتين ، لكن صديقه وأسرته كانوا يتنقلون بين المصايف ، كان بعد عودته من الدكان يقبع فى حجرته يقرأ أو يفكر فى حياة منوچهر ، انها حقا حياة جميلة لكنها لا تصلح له أو قل انه لا يصلح لها .

ثم بلغ به شوقه مداه فذهب ، كانا هناك ، فرشته ومنوچهر وكان محمود أيضا هناك ، ويسأله محمود عن أحواله فيخبره أنها على أسوأ ما يكون ، ان محمودا فى الرواية هو لسان الكاتب وهو الذى يفلسف العصر ، لقد نجح فى أن يلقى بهذا المجتمع وراء ظهره وانتهى ، وينتهى الأمر بأن يحدث الشاب قائلا : « التقاليد القديمة بليت واندثرت وحلت محلها تقاليد جديدة ، مجتمعنا فى مرحلة التحول ، انه يغير جلده ، لكن آباءنا تشبثوا بكلتا اليدين بالماضى ، وهم يتحسرون الآن عليه ويخافون من التقاليد الجديدة وكأنها حية أو أفعى » لكن منوچهر بلا مشكلة ، انه ليس من الطبقة المتوسطة التى لا تستسلم بسهولة ، ويسأل كمال : ألأنها أشد تمسكا بالدين؟ ويجيب محمود : ليس الأمر متعلقا بالدين ، الموضوع مرتبط بالاقتصاد ، ان الدين ــ هكذا يقول محمود ــ ليس الا وسيلة ، ان والدى يمتلك مصنعا صغيرا لصناعة الجوارب ، انه لا يستخدم الا الأطفال أو النساء المحتاجات ، لأنه يعطيهم أجرا أقل ويسمى

هذا الأمر مساعدة الضعفاء ، فمن الذى يريد أن يستخدم هؤلاء ؟ فى حين أنهم ان لم يعملوا عنده ماتوا جوعا ، وفى كل سنة يقيم احتفالا أو احتفالين لدق الصـــدور والنواح ويذبح خروفا يحشو به بطون هؤلاء قائلا : دعهم يشبعون مرة فى العام ويتذكروننا بالدعاء . أجل ، ان كمـــالا يرى أن والد محمود لا يختلف عن أبيه وعمـــه فى شىء ، ان أباه وعمـــه يمتلكان كل دكاكين سوق بيع الجلود ، والعمـــال وعائلاتهم يأتون الى الاحتفالات الدينية ، وعلى المنبر يتحدث الشيوخ عن كرم هذين الأخوين التقيين السخيين ويزداد احترام عمه وأبيه أضعافا وتربو ثروتهما أضعافا ، لا شىء مجانا اذن ، لقد جعلوا الدين وسيلة للثراء ، انه يتذكر جموع الفقراء الحقيقيين تطرد من أمـــام منزل عمه أيام الاحتفالات بدعوى أنه لم يحسب حسابهم ، أجـــل : كل شىء بحساب انه لا يستطيع أن يمكث فى هـــذا المكان ، انه يسل معتقداته خيطـــا خيطـــا ، قريبا سينتهى وجوده كلية من هذا المكان ، وينصرف ، لكنه لا ينسى أنه دعى للعودة فى اليوم التالى ، انه عيد ميلاد فرشته .

جمع كل ما ادخر وطاف بحوانيت الباعة ، حتى بعد أن اشترى الهدية كان مترددا ، اشتراها بكل مدخراته بعد أن أعبته الســـبل أمام سيل البضـــائع المستوردة « يشير الكاتب من طرف خفى الى الجنون الاستهلاكى الموجود فى ايران وهو أمر ملحوظ للعيان » ، ماذا تكون هديته هـــذه بين الهدايا التى سوف تقدم لها ؟ لا جدال فى أنه ســـوف يصير سخرية من فى الحفل ، ما هـــذا الهندام ؟ وعندما وصل الى المنزل كان فى قمة اضطرابه وعذابه ، أراد أن يعود أدراجه لولا أن فرشته لمحته على الباب فرجتـــه أن يصحبها فى جولة لشراء ما يلزم الحفل ، لقد سقط منوچهر من السلم وشرخ ساقه وها هو كمال يتبعها ، يحس بسخونة جسدها يلتصق به فى العربة فينسى كل شىء ، دخلت محـــلا لبيع الخمور فدخل خلفها ، حملتـــه الزجاجات

فحملها ، كيف حدث ، انه يتمتم بينه وبين نفسه رغم عطر فرشته الذى يملأ خياشيمه « من أنـا ؟ » لم يعد هو نفسه لقد ضاعت نفسه منه ، كان سعيدا بها لكنه كان يهرب بنظراته •

انه وحيد وسط الحفل ، الزينات والبالونات وزجاجات الخمر وعلب السجائر التى تملأ المكان تكاد تخنقه ، سوسن ابنة خالة فرشته مشغولة مع بهرام « فتى السينما » تدخن سيجارة وقـد كشفت عن نصف جسدها على الأقل ، انها تقترب من كمـال ، تحدثه بلهجـة آمرة أن يأتى الى منزلها لمساعدتها فى دروسها ، وسـوف تعطيـه ما يريد ، ان كمال يرد عليها بقسوة ويبتعد عنها والألم يكاد يقتله ، هكذا ؟ كل قيمته فى هـذا المنزل أنه معلم ، أما كان ينبغى أن يفهم ؟ أكان لابد من هـذه الفتاة الغبية لتصفعه هذه الصفعة ؟ أراد أن ينسحب الى منزله لكنه كان يخاف أن يصير وحيدا مع أفكاره وعذابه، كانت فرشته تعطى جسدها لمن يريد أن يراقصـه لكنها كانت تبتسم له كلما التقت أنظارهما ، لقد كانت تلتصق ببهرام تحت أنظـاره ، وينصرف كمـال ، ويجلس على حافة حوض المـاء ، انه نفس المكان الذى جلس فيه مع فرشته لأول مرة ، أخذ ينظر الى السماء المرصعة بالنجوم ، أراد أن يسلم نفسه الى السماء ، لكن تلك النفس التى كان يسلمها للسماء لم يعد لها وجود ••

صعد الى منوچهر فى حجرته وجلس معه يسمع الى حكاية كسر ساقه من فم مبتسم ، ولم لا ؟ والسبب خطـاب غرامى غفل من الامضاء ظل يقرؤه حتى سقط من أعلى السـلم دون أن يدرى ، ولم تلبث الضجة أن ارتفعت من الطابق السفلى ، ان فرشته تفك لفافات الهدايا ، كلما كانت الضجة ترتفع كان قلب كمال يغوص على ضلوعه ، مـاذا تكون هديته الحقيرة ، ثم انفتح الباب ودخلت فرشـته وطفقت تتقبل كمالا ، ماذا حدث ؟ انها تمدح ذوقـه لقد أحضر لها ما كانت تريد

تماما ، أخذت تنظر اليه بوله وحب ، وسحبته الى الحديقـة ، كانت تشكره وتمدحه وتتحسسه ، ثم وضعت شفتيها فوق شفته ، كان كمال كالمذهول ، انها تجره للرقص ، لا يهم أنه لا يعرف ، انها سوف تعلمه ، وينسى كمال كل عذابه وصراعه مع نفسه وهو بين أحضـان فرشته ، كان السؤال الذى يسأله لنفسه : « من أنت ؟ » خافتـا بالرغم من أنه كان يتردد فى نفســه أثنـاء الرقص ، ثم وهو يعب فى الخمر ، لكنه لم يسأله لنفسه قط وهو يغنى ، أجل : غنى أغنيـة لا صلة لها بالأغـانى الدينية كان فى قمة سعادته ، لكنه عندما رأى فرشـته تراقص بهرام فى ركن مظلم ، كره نفســه حتى الجنون ، وانصرف .

اذن قبل كمال فتاته ورقص معها وشرب الخمر وغنى أغـانى غير دينية فى ليلة واحدة ، فهل انتهى صراعه وعبر الصراط ؟ أبدا ، انه يتقلب فى فراشــه يلعن نفسه قائلا : « مت ، مت » ، فاذا هـده التعب ، وأغمض عينيه لاحقته الأحـلام السوداء ، ويحم فى اليوم التالى فلا يقوم من فراشــه ، لقد رأى أنه بالغ فى الاقبال على العالم الجديد ، وعندما قام عصرا أراد أن يتوسـل بعالمه القديم ويذهب مع خاله وابنه الصغير لزيارة ضريح الامام عبد العظيم ، لكن : ماله يحس بالانفصـام والغربة ؟ أين الأحاسيس والمشاعر القديمـة التى كانت تنهال عليه كنهر فياض فى هـذا المكان ؟ انه يحس وكأنمـا ألقى به وحيدا فى مكان غريب ، لقد طاف بالحرم عدة مرات ، لكنه كان يحس أنه يطوف حول نفسه وأن هـذه النفس لم تغادره أبدا ، انه لا يفتأ يذكر وهو فى الحرم : لمـاذا جئت الى هنا ؟ وما لهؤلاء الناس يبكون وينوحون ويضجون بالشكوى ؟ لمـاذا لم يعد يستطيع الشكوى والصراخ مثلهم علة ينجو من هـذه الأفكار السوداء التى أمسكت بتلابيبه ؟ لمـاذا لا يستطيع أن يبعد فرشـته عن فـكره تماما ؟ ثلاثة أيام لم يخرج من منزله لكنها لا تغادر فكره أبدا ، ان

آمه قلقة أهو مريض ؟ أم أن شيئا أصابه ؟ لا شك أن ابنها المؤدب الحيي قد أصابته عين السوء ، وأبوه هو الآخر يضج بالشكوى ما دام قد انتهى من الامتحان فلماذا لا يأتي الى الدكان ؟ وفي النهاية خرج من عزلته ، قادته قدماه الى حيث كان لا يريد ، لكنه وعلى الباب سب نفسه وعاد ، الى هذيانه وأحلامه السوداء .

ان والده يحاول أن ينقرب اليه ؛ يأخذه معه الى أضرحة الأئمة والى قم ، ولايزال يردد على مسامعه طوال الطريق محفوظاته من النصائح التى كان كمال يضيق بها ويعطيها آذنا بها وقر ، كان الشوق الى فرشته هو الذى يفرى داخله ، لكنه أكثر من مرة ذهب وعاد دون أن يدق الباب ، يلتقى بمحمود صدفة فيأخذه معه الى حجرته فى ذلك المنزل الحقير الذى لا يتميز بشيء الا أن محمودا جمع ذخيرة من ألفاظ السباب التى سوف تعينه فى وضع « قاموس الشتائم العامية » الذى لا محالة واضعه كتذكار لهذه الأيام ، أن محمودا سعيد بالمتاعب التى يعانيها وان فكر والده فى أن يقدم له المساعدة فلن يقبلها ، ان هذه العلاقة بين الآباء والأبناء ليست الا من قبيل العلاقات التجارية ، عملية استثمار لا أكثر ولا أقل وهو لن يقبل أبدا أن يكون مجالا لاستثمار أحد ، ان كل ما كتب عن العلاقة بين الآباء والأبناء فى الأدب القديم لا يساوى شروى نقير ، ثم تأتى أم محمود لزيارته فلا يملك كمال الا الانصراف .

فى النهاية ذهب كمال الى منزل منوچهر ، فعلم أن فرشته خارج المنزل مع بهرام فأحس أن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهله ، لكنه ما لبث أن ضاق من أحاديث منوچهر عن محاولاته فى اكتشاف صاحبة الخطاب الذى كان السبب فى كسر ساقه فانصرف ، ان منوچهر أخبره عن جاذبيته التى انتشرت فى أوساط البنات والدعوات التى تنهال عليه منذ تلك الليلة التى غنى فيها ، لكن كمال يضيق

من ذلك ، هـذه صفة جديدة ، صفة المعلم كانت بالفعل أفضـل من صفة المغنى ، لكن لا يهم ، وبعد أيام قليلة يعود كمـال ، لم يعد يستطيع ، كانت فرشته وحدها فى المنزل ، لقيته فى غرفة نومها ، لكنها أخذت تشكو له من عذابها فى حب « بهرام » والعذاب الذى لقيته فى تلك الأيام التى غابها فى شيراز ، تطلب منه أن يأتى اليها فى الصباح الباكر للقائه فى المطـار ، انه الوحيد من بين كل معارفهـا الجدير بالثقـة .

يمضى كمال ، يرح الخفاء ، أمضى صباحا وظهرا كثيبين فى سبيل ليل أشـد طولا وكآبة وحزنا ، رأى فى نفسه نوعا من الاستسلام ، لكنه كان لايزال حزينـا ، ورغم ذلك ذهب اليها فى الفجر فعلم أن بهرام عاد ليلا وانصرف على أن يعود عصرا .

***

انتهى عذاب كمال وغرامه اذن الى لا شىء ، كان كل ما يجعله يتقبل المجتمع الجديد بكل ما لم يكن يرضيه فيه هو فرشـته وحبه لها ، كانت هـذه الصـدمة بعد أن عرفنا ما عرفناه من سـمات شخصية كمال كفيلة بأن تلقى به خارج هذا المجتمع تماما ، أحداث أقل من ذلك كثيرا كانت تثير فى نفس كمال صراعا مرا ، أما فى هذه المرة فقد انعدم الصراع أو كاد ، أتكون الأسباب قد تقطعت بينه وبين مجتمعه القديم تماما بحيث لم يعد يطيقه وأن كراهيته لهـذا المجتمع الجديد كانت كراهية قشرية ؟ الواقع أن سـلوك كمال فى الجزء التالى من الرواية لا يقبل التفسير ، أكان قد يئس من نفسـه تماما فأراد تدميرها ؟ لنتابع اذن أحداث هـذا الجزء من الرواية لعله يلقى بعض الضوء على اجابة هذه الأسئلة .

لقد ذهب كمال الى منزل منوچهر فى ذلك اليوم ، لم يعـلم لمـاذا دعته فرشـته ، الا أنه علم فيما بعد أن السبب فى الدعـوة

ألا تظل احدى المدعوات وحيدة وان كان قد ظن فى البداية أنه دعى لاقناعه بالتدريس لسوسن ، ثم يتردد كمـال على منزل منوچهر « لم يعد منزل فرشته » وكأن شيئا لم يحدث ، فلا صراع ولا تساؤل وتتقرب اليه الفتاة « سوسن » لكنه ضائق بها « انها تشبه بهرام وكأنهما أخوان » طريقتها فى مط الحروف والأصـوات عند الحديث تثيره ، زينتها متكلفة ولكنهـا ليست ممجوجة ، انهـا ليست مثل فرشته تتسلل بخفة ونعومة لكنها تقتحمه اقتحاما ، وكان كمـال ضائعا أو لعله كان يريد الانتقام من بهرام « ألم يكن الانطبـاع الأول أنها تشبه بهرام ؟ » وبلغ كمـال قمة ضياعه عندما لمح بهرام يقبل فرشته وراء الأشجار ، وكانت سوسن ملتصقة به فقبلها ، ولكى يدارى ضعفه واضطرابه غنى لها ، غنى لها كما لم يغن لفرشـته يوم ميلادها ، وبعدها كان فى منزلها .

وأسرة سوسن تقدم فى الرواية ما يمكن أن ينتهى اليه العـالم الجديد من انحطاط ناشىء عن فهم خاطىء للتقدم ، أم شابة وزوج كثير الغيـاب وعشيق للأم يتردد على المنزل فى حضـور الفتـاة المراهقة التى تكرهه وتكره نفسها وتكره كل من يحاول التقرب منها وتنتقم منه عن طريق اذلاله جنسيا ، أترى ، هل شـد كمال الى هذا المجتمع الجديد أنه يضاعف كراهيته له ؟ ان سوسن هى فرشته كما كان يتمناها كمال ، انها تعترف له أنها أعجبت به منذ أول مرة رأته ، لتكن صادقة أو كاذبة ، فهذا شىء لا يهمـه ، انه يعرف ماذا تريد منه ويعرف هو أيضا ماذا يريد منها ، لا عقد هناك اذن ولا صراع ، فقط ليتها تتحدث معه كثيرا عن الدروس ولا تتحدث عن الغنـاء الذى تهواه لكنها تدفعه ، تثير فى نفسه ما لم تكن فرشته تثيره قط ، وكمال مع كل ذلك يحـاول أن يقاوم ، يقوم من مكانه فجـأة قائلا : لست معلم بيوت ولست مغنيا لا أدرى لمـاذا جئت الى هنا ... وداعا ، لكن سوسن كانت تعرف كيف تسكته فأسكتته .

في اليوم التالي بينما كان يرتدي ملابسه ليذهب الى الدكان ارتفع اللغط في الفناء ، ماذا جاء بعمه في هـذه السـاعة ؟ ليكن ما جاء به ما جاء به ، لم يعد يهمه أحد ، لكن الأمر هـذه المرة لم يكن خاصا بكمال ، كان خاصا بجماعة المؤمنين ، ان بعض الدكاكين قد انتزعت ملكيتها لبناء دار سينما مكانها ، ان والده ثائر ، كيف يكون هـذا ؟ وبجوار مسجد ، وفي هـذا الحي الذي يسـكنه المؤمنون ؟ « لا تزال الجماعات الدينيـة المتطرفـة في ايران تعتبر السينما حراما ، ولا توجد دار سينما واحدة في المدينة الدينية قم » ، ان عمه يوصي والده بأن يهدأ ، فان الأمر سـوف يتم أراد أو لم يرد ، واذا أصر على المقاومة فسوف يسجن ، ويفكر كمال : ترى لو لم تنتزع ملكية بعض الدكاكين ، أكان والده يثور هـذه الثورة ان الأمر لا يتعلق بالدين كما يقول محمود ، انه الاقتصـاد . ويخرج كمال : الحي بأجمعه ثائر ، غدا تهدم المساجد لبناء دور الدعارة ، ويسمع في الأتوبيس همسا ، بالأمس وزعت منشورات سرية في الحي، منشورات سرية ؟ منذ كم من السنوات لم يسمع النـاس هـذه النغمة ؟ ويضع رجل ما في يده ورقة مطوية ثم ينزل من الأتوبيس ، لكنه ما ان يفتح الورقة حتى حل محل خوفه رغبة ملحة في الضحك ، أهذا الذي يسمونه منشورا سريا ؟ طهران غارقة في الكفر والضـلال وسوف ينزل عليها بلاء من السماء يحرق الأخضر واليابس وينبغي ان تحذر أمة محمد من هـذا الضـلال ، ثم اكتب هـذا المنشور مائة مرة ووزعه والا نزل بك أو بأسرتك بلاء ، ما هـذا ؟ مائة مرة ؟ لا عشرة ولا عشرين ، ينبغي على الانسـان اذن أن يكون عاطـلا وبلا عمـل .

في المساء كان في منزل سوسن ، ان الموضـوع الذي يدور حوله الجدل هو أن والد سوسن حدث مدير النادي « وهو بالمناسبة عشيق الهانم » بأن يقدم كمال كصـوت جديد في حفل النادي ،

هذا ذنب كمال ، لو أنه احتج منذ البداية على اعتبـاره مطربا لمـا تمادوا فى الأمر الى هـذا الحد ، ان كمال يرفض أولا بلين ثم بغلظة ولا مجيب ، كانت سوسن واثقة فى النهاية بأنه سـوف يستجيب ، انها تستمع الى احتجاجاته وهى تبتسم ، تمده وتمنيه الأمـانى ، تجعله أشـد ما يكون قربا من النبع ثم ترده ظمآن دون أن تيئسه ، وكمال يتذكر المـآسى التى قصها عليه ذلك الرجل الذى علمـه الطرب ، لا ، لن يحترف الغناء ، لن يكون البديل عن الحياة التى يحياها هو احتراف الغناء ، فى تلك الأيام بلغ ضيقه من منزل سوسن منتهاه ، انها تتلاعب به ، كيف وصـل الى هـذه الدرجة معها ؟ انها أحيانا تطلب منه أن يغنى وسط مجموعة فاذا بدأ الغنـاء صاحت به أن يصمت ، فيصمت ، وكم أعطته مواعيد فى الظهيرة ، كان يتعلل بعلل واهيـة ويتسرب من الدكان ثم يذهب ويظل منتظرا فى حمارة القيظ ساعات ولا تأتى ، كانت تمنحه بمقدار وتطعمه فى الكثير ليظل أسير هواها ، كانت تفتح أمامه أبواب حياة مفعمة باللذة والمتعـة لكنها ممتزجة بالاحتقار والذلة ، لكنه وفى الليلة المتفق عليها يذهب وقد أسر فى نفسه أمرا .

انه يدخل المنزل لاعنا نفسه ، لينته اذن كل شىء ، ليقل لهم انه ليس الشخص الذى تصـوروه ثم يذهب الى حال سبيله ، انه يمر على حجرة أمها فيجدها متلبسة مع عشيقها بالجرم الفاضح ، ثم يدخـل على سوسن حجرتها ، انها شبه عارية ، تتصنع الخـوف وتأمره أن يخرج من الحجرة ، ويخبرهـا أنه لن يأتى الى الحفـل فتبتسم ، لكنه يغلظ فى القول وترى أن الأمر جد لا مزاح فيه هـذه المرة فتغلظ هى الأخرى : أتظن أنك مطرب ، اذا لم تكن مطربا فلماذا تغنى هنا وهنـاك ، ولمـاذا أسمح لك بالمجىء هنـا يا بن بائـع الجلود ، لا تريد أن تكون مطربا ؟ ماذا اذن تريد أن تكون قارىء روضة بخمسة تومانات ؟ اذهب ، اذهب ، من الأفضـل أن تشتغل

كاتبا فى دكان أبيك وتبيع الجلود ويصفعها كمال فتتحداه ، ويضربها ، ويشتبكان معا . لكن رغبة أخرى تثور فى نفس كمال ، رغبة أراد أن يرد بها على كل الذل الذى أصابه فى هذا المجتمع ، بدأ مغتصبا ، لكنها بعد قليل شدته اليها ، وكان له برضاها ما أراد .

***

فى الأيام التالية قبع فى منزله خائفا ، تكسرت كل سفنه وهو فى عرض البحر ، لا هو قريب من هذا الشاطىء ولا ذاك ، عما قليل سيعلم أبوه ويربطه الى شجرة ويجلده ، لكن والده مع ذلك يحسن معاملته ويستميله ، لابد أنه يدبر له أمرا ، كان يحاول مداراة خوفه بالقراءة ، وكان يذهب الى الدكان كعادته ، وبدأ يفتح عينيه على أشياء كثيرة ، منذ سنوات حينما كانت المظاهرات تملأ شوارع طهران كان والده يقول انها ألاعيب الانجليز ، أما محاولة الاغتيال التى حدثت فى السنة الماضية وما تبعها من اعتقالات فقد فتحت عينيه على أشياء كثيرة « لم أدر أى محاولة يقصد من المحاولات الاغتيال العديدة التى حدثت فى ايران فى الثلاثين سنة الأخيرة » كان يسمع التلاميذ يتحدثون فى السياسة وقانون المطبوعات والمادة السادسة من لائحة الانتخابات ومباحثات أزمة النفط كأشياء لا معانى لها ، لكنه لم يكن يفهم مصطلحاتها فتركها « لعل الكاتب رمى كمال المسكين بعدم الفهم حتى لا يتورط هو نفسه أكثر من ذلك ، وقد كتب فى هذا الموضوع ستة أسطر فقط بينما وصف لقاء كمال الجنسى مع سوسن فى ست صفحات ، وعلى كل حال فهو يشكر لأننا علمنا أن أحداث الرواية تدور فى أوائل الخمسينيات حين كانت الأزمة المعروفة بأزمة مصدق فى قمتها » .

نعود الى كمال الذى أراد أن يقطع كل صلة بينه وبين العالم الجديد ، لكن العالم الجديد لم يتركه فى حاله ، انه يفاجأ ذات يوم

بمنوچهر يدخل عليه حجرته ، يحدثه عن رحلته الأخيرة الى القرية ، ويطلب منه الذهاب معه الى منزله ، فاذا رفض كمـال أخبره أن فرشته غاضبة منه ، ماذا قـال عنها لسوسن ، فاذا أبدى كمـال عدم اهتمام لكل هـذه الموضوعات وسخر من منوچهر قائلا : لمـاذا آتى ألم ينه السيد المعلم مهمته أخبره منوچهر أنهما فى العام التالى لن يكونا زميلين ، لقد اشترى والده منزلا فى شميران وبعد أسبوع أو أقل سيرحلون من المنزل القديم ، ألم يعد يريد المجىء بعد هـذا كـله ؟

ويعود كمال الى المنزل لكنه يحس بنفور عجيب ، لمـاذا جاء ؟ هل جاء ليحس بالغربة ويتحمل ما يكره ؟ لا ، ليسمها زيـارة توديع الذكريات لقد فهم فى الطريق أن منوچهر لم يعلم شيئا عما حـدث بينه وبين سوسن ، أكان من الممكن أن يمر مثل ما فعل دون مساءلة ؟ يا له من عالم عجيب ، ها هو يسير مع فرشته فى الحديقـة وكأن شيئا لم يكن ، هجرها بهرام الى سوسن ، خطوة واحـدة ويتم التبادل ، أتراها تريد منه أن يختار لها معشوقا ؟ ألم يثبت حسـن اختياره فى هدية عيد ميلادها ؟ أم تراها تريد أن تطلعه على قصـة حبها الجديد ، يا له من عالم ، فقد انبهاره تماما منذ تلك الليلة التى اقتحمه فيها عن طريق سوسن ، ما هـذه الخزعبلات التى تقصـها فرشته والتى نقلتها لها سوسن ؟ أحقيقة تحدث بكل هـذا السوء عن فرشته ؟ ربما ، لكن الحبل الذى انفصم بين كمال وفرشته يوشك أن يتصـل ، انها تلتصق به وتهمس فى أذنه : كم تغيرت يا كمـال ، انتى أحس أنك كمال جديد ، ثم رجته أن يغنى فغنى ، ورجتـه أن يعود فى الصباح ليقضى معهم أسـبوعا فى القرية فخرج بعد أن وعد بالمجىء .

ما لمنزله يضغط عليه هكذا ؟ ألم يكن قد حاول استرجاع الود

المفقود بينه وبين هـذا المنزل ؟ حتى أمه لم تعد تفهمه ، باتت تظن أنه قد أصبح متعاليا عليها وقد تشاجرا بلا سبب ، ماذا يستطيع أن يفعل ؟ انه يقبع فى حجرته لكنه يسمع من حديث بين والديه ما يدبر له ، اتفق والده مع « حاج أصغر الدباغ » أن يقوم له كمـال بأعمال الحسابات ، ومن الغد عليه أن يذهب اليه ، لا ، ليس هـذا كل شيء تضيف والدته أن الحـاج أصغر يريد كمال من أجل شيء آخـر ، ألم يرسل اليه قطعة من القماش هدية بعد عودته من مكة قائلا انها «لعريسنا » ؟ لكن لو يصبر عليه أبوه حتى ينهى دراسـته الثانوية ، هـكذا ترجو الوالدة ، لكن الأب مصمم ، ما فائـدة الدراسـة وما فائدة هذه العلوم التى تبعد عن الدين ، وحتى اذا انتهى من دراسته الثانوية هل يمكن أن تواتيه هـذه الفرصـة التى تواتيه الآن ؟ ثم انه لن يفلح فى دروسـه ، لقد رآه بنفسه يركب عربة مع جماعة من الشبان الفاسدين والفتيات السافرات ، وأخبره أخوه أنه يدرس لبنات الأعيان والأشراف فى بيوتهم ، من كان يظن أن كمـال فى النهاية سوف يتكشف عن هـذا الصائع الضائع ؟ وبالأمس ذهب الى حجرته ووجدها ممتلئة بكتب العشق والغرام من أين عرف والده كل هـذا ؟ لابد أن أخواتـه تصنتن عليـه يوم أن كان منوچهر فى زيارته ، ان كمال يحس بيأس مطبق ، يريد أن يخرجه من المدرسـة ليعمل عند الحـاج الدباغ ويستفيد هو من ذلك ، يتحدث عنه كمـا يتحدث عن أحد حمره ، صبر كثيرا كان يقول انه عـام ويمر ، عمل له طوال الصيف فى حساباته ، كل ذلك فى سبيل أن يتركه يقضى العام الباقى فى المدرسة ، والآن يريد ذلك ، الى متى « واخفض لهما جناح الذل » ؟ لن يخفض لهما جنـاح الذل بعد الآن ، لقد تعب ومل وضاق وقرف ، ينبغى أن يذهب من هـذا المكان بأسرع ما يمكنه .

ليلة طويلة قضاها كمال ، ليلة راجع فيها كل حساباته الشخصية، كل ما حوله ومن حوله لم يعد يساوى شيئا ، من يكون أبوه حتى

يتحدث عنه بهذا الأسلوب وحتى يحترمه الناس كل هـذا الاحترام ، ليس أكثر من متهوس مذهبى لا قيمة له . والمدرسـة ؟ لا يفهم لمـاذا يدرس ، أمه وخـاله يريدانه مهندسا أو طبيبا وعمـه يريده عالمـا دينيا أو واعظا ، وأبوه يريده أن ينتهى بأسرع ما يمكن ثم لا يكلفه بعدها مليما ، الحياة بالنسبة لوالده كفتا ميزان : واحدة فيها المـال والأخرى فيها الدين ، ليلة طويلة مثل كل حياته ، لا يدرى أى صباح سوف يتلوها ، تترى عليه الأحلام السوداء ، ويفيق قرب الفجر على والده يملأ الجو ضجيجا وعجيجا استعدادا لصلاة الفجر .

ارتدى ملابسه ، وعقد رباط عنقه ، نظر الى نفسه فى المرآة أكثر من مرة وتذكر كلمـات فرشته الأخيرة ، تغيرت تماما يا كمال ، وتردد قليلا ، وكان لايزال فى تردده وتفكيره عندما صفعه صـوت والده : الى أين يذهب جناب السيد بهذا المنظر ؟ كان قد أخبر والدته ، وها هى تخبر والده بصـوت مرتعش ، حسنا ان كان يريد أن يذهب فليأخذ أخاه الأصغر معه ، ماذا ؟ ! عبد الله المصاب باسهال دائم ؟ لا هذه مجرد حجة ، لو قلت سوف آخذه ستتعلل بشىء آخر ، اذن اذهب الى الدكان ، لكن ألم يقض الصيف فى الدكان ؟ لا يا عزيزى الى الدكان الجديد ، ويرد كمـال بسخرية : « أجل أصير كاتبـا عند الحاج الدباغ ثم اتزوج ابنته القبيحة وبعدها أصير كبير الدباغين ، ثم أمضى معها تحت اللحـاف وأنتج المزيـد من القائلين لا اله الا الله ، تباعا ، ثم أجلس القرفصـاء وآكل حساء الشعرية والزبادى بالخيار وأتجشأ ، أضـع على كتفى عباءة من وبر الجمل وأقرأ حلية المتقين وحديقة المسلمين ، وأصرخ : يا حمير مهما أقول قولوا على عينى ، افعلوا هـذا ولا تفعلوا ذاك ، هذا حلال وهـذا حرام ، فى هـذا ثواب وفى هذا معصية ، أمسك المسبحة وأسبح وأسبح وأسبح .. الى متى لا أملك الحق ... دعونى ... لست عبدا اشتريتموه ، كل الحياة معكم ذلة واختناق ولعنات ومصائب ، اتركونى ، سترون كيف

أمضي ولن تملكوا شيئا لي » رأى والده يقترب منه كما يقترب جاره من كلبه بالسوط ، رأى يد والده ترتفع وتنخفض ، كانت عيناه مغمضتين تحت الضربات ، كان يسمع صوت الضرب في أعماق رأسه ، وأحس بوخز مؤلم في كل وجهه ؛ كأن الرجل العجوز يضرب كلبه . وأحس بحرارة الدمع فوق وجنتيه •

نظر الى السماء ، كان الجو مظلما ، عندما أغلق الباب خلفه لم يعد يملك شيئا ، صارت كل الأحلام والرؤى مثل دخان بعيد ، كعائد من جنازة أعز الأحباء ، عندما كان يغمض عينيه كان يحس أن كل هذه الأحداث غامضة ومبهمة ، عندما أنهضوه وجذبوه من فوق جسد والده الممدد تحته ، كانت هناك أصوات ترجوه وتلتمس منه وكانت صرخات مفزعة ووجوه عابسة فزعة مندهشة ، وأصوات لاعنة ، وعندما وقف كانت الأشباح لاتزال تحيط به ، كانت تحدق كأنها تنظر من خلال ضباب غليظ ، كان أبوه ينظر اليه ، بعينين مستلئتين بالسب واللعن •

كان الليل الطويل لايزال ينوء بكلكله على الكون ، سار طويلا في الشوارع الخالية ، وجلس مشعث الشعر ممزق الملابس ، أغمض عينيه ورأى كمال الصغير يترنم بمرثية من مراثي آل البيت ويتلاعب بحقيبته السوداء الكبيرة ، ثم رأى كمال جالسا في حجرة مع جمع من الأطفال وقد وقف طفل على كرسي وأخذ يعظ ، كانت هناك جماعة من الأطفال الصغار ، وعلى باب المنزل بيرق صغير كتب عليه « هيئة فدائي » ••• أين ذلك البيرق ؟ أين يجب البحث عنه ؟ أين ذلك البيرق الصغير الأسود الذي هبت الريح وأخذته معها وأسرعوا خلفه حتى وجدوه ؟ أين ذلك البيرق ؟ أين ينبغي أن يبحث عنه ؟ أين ذهب الفدائيون ؟ هبت الرياح وحملت معها البيرق والفدائيين ، هبت الرياح وحملت معها كمالا الصغير •

آكان كمـــال لا يدرى حقا أين يبحث عن البيرق ؟ ترى الى أين يمضى كل ضحايا صراع الطبقــات ، ألم يعد يفهم بعد أولئــك الذين ينسون أن الانسان له طاقة يقف عندها أن من تغلق فى وجهه أبواب طبقته ولا يملك طبقة أخرى يعلم مباشرة الى أين يتجه ؟ ألم يأن الأوان أن يعلم أولئك الذين يحاربون البيرق الأسود فى دول العــالم الثالث أنهم أول من يمهد له الأرض وأنهم بهــذا التناسى المضحك المبــكى للانسان يلقون به فى أحضان البيرق الأحمر وهم لا يدرون ؟

مضى كمال فى طريقه ، كان الفجر فى سبيله الى الظهور ، وجــد من نافذة محمود نورا خافتا يطل ــ لم يكن أمامه من نور سواه ــ وتنفس نسيم الفجر بعمق ، ونظر الى ظله الممتد بعرض الحارة ، ودق على النافذة بقلب خافق ، وفتحت النافذة ، وأطل منها رأس ، وأخذت عين وسنانة تبحث فى ضوء الفجر الخافت .

وقال : أخى ، أنــا كمال ، جئت اليك .

وارتفع صوت محمود :

***

مرحبــا يا أخى :

لا أظن أن الرواية فى حاجة الى تعليق ، فهى فى غاية الوضوح ، يكاد كل سطر فيها ينطق بما يريد الكاتب ولا أظن أن ما يريده ببعيد .

٧ ــ نون والقلم

لجلال آل احمد

جلال آل احمد كاتب ايرانى معاصر ، ولد فى عسرينات هـذا القرن فى بيت دين ، وانضم فى شبابه الى حزب توده ، لكنه انصرف عنه فى أوائل الخمسينات بعد افتضاحه فى ازمة مصـدق ، وانشغل فترة من الوقت فى جمع التراث الشعبى الايرانى ، وبعدها أدرك أن الدين هو البنية التحتية للشعب الايرانى ، وحج الى بيت الله الحرام ، ثم أصـدر كتابه « خسى در ميقات : قشة فى الميقات » ، ووقف أمام تيـار التغريب الذى كان سائدا فى ايران فى كتابه الذى صـدر فى أوائـل الستينات وصودر مرات من قبل السلطة الملكية « غرب زدكى : معاناة التغريب ». ومن أهم اعماله القصصـية مجموعاتـه : « من الآلام التى نفـاسى : از رنج كه ميبريم » و « امرأة فوق العدد : زن زيادى » و « سيرة خـلايا النحل : سر كندو ها » . ومن أهم رواياتـه « ناظر المدرسة : مدير مدرسة » و « نون والقلم » . توفى آل أحمد وفـاه مشكوكا فى امرها وفجائيه فى كوخ له على بحر الخزر سنة ١٩٦٧ .

***

كان فى نيتى أن أختم هـذا العرض لتطور الرواية الفارسـية

المعاصرة بالرواية التى عرضتها آنفا رواية « طول الليل » على أنهـا مواجهة بين القديم والجديد ، وبالفعل ختمت الكتاب وقدمته للنشر، لولا أن عوامل معينة حالت دون نشره ، وبينما هو قابع فى طابور الانتظار ينتظر فرصــته اذا بالأحداث تنفجر فى ايران ، فتصير أنباء ايران على كل لسان ، ويقدم الشعب الايرانى ملحمـة سوف تثير الكثير من التساؤلات لعدة أجيال قادمة . وكان من حسنات هــذه الصحوة الشعبية اعــادة نشر كثير من الكتب والأعمال الأدبيــة المصادرة ، وضمن احدى رسائل الكتب التى وصلت الى من ايران عــام الثورة ، لفت نظرى عنوان هــذه الروايــة « نون والقلم » أما الكاتب فكنت قرأت له قبلا روايته الشهيرة « ناظر المدرســة » كما قرأت كتابه الذى جر عليــه الوبــال وربما الاغتيــال « معاناة التغرب » ... قلت بينى وبين نفسى : لاشك أن كتابا يحمل هــذا العنوان يخفى بين دفتيه عملا دينيا أو رواية دينية ، فضـــلا عن أن الأعمــال المصــادرة والتى يفرج عنها بعد طول سجن تشــد اليها الانتباه ، ان لم يكن لقيمتها الفنيــة ، فعلى الأقل لاكتشاف السبب الذى من أجله حكم عليها بالسجن والمصــادرة ، ومن هنا انصرفت الى قراءة الرواية ، ومن الصفحات الأولى لها شدتنى فلم أجد منها فكاكا ، وبعد الانتهاء من قراءتها قلت بينى وبين نفسى : هذه التجربة الفنية العظيمة بموضوعها الغريب جديرة حقا بأن تقدم كاملة للقارىء العربى ، أما والوقت لا يسمح ، وقــد لا يسمح أيضــا جو النشر ، فلأقدمها فى هذا الكتاب .

من الصفحات الأولى للكتاب يحس القارىء أنه بازاء عمل غريب بالفعل ، غريب فى ميدانه وغريب فى فنيته ، أما الميدان فقد كان جديرا حقا بالمصــادرة فى عهد الشاه ، فهو يتناول ثورة دينية من الثورات التى يحفل بها تاريخ ايران على مر العصور ، وفيها يمتزج الدين بالبنية الاجتماعية بكل جوانبها السياسية والاقتصادية ، بحيث أننا كلــا

تقدمنا بضع صفحات فى الرواية اكتشفنا أن الثورة الدينية ما هى الا غطاء لجوانب الثورة الحقيقية ، وما هى الا اطـار يقدم الكاتب من خلاله عوامل التفاعل فى مجتمع تعد الصبغة الدينية هى البنيـة التحتية له ، وبالرغم من أن الرواية تقدم ثورة دينية فى حقبة من تاريخ ايران « القرن الحـادى عشر الهجرى والسابع عشر الميلادى » وان لم يصرح الكاتب بالخلفية الزمنية لروايته ، الا أن النماذج البشرية التى يقدمها تتجاوز الزمان والمكان ، فكأن جلال آل أحمد أراد أن يقدم نظرة استشرافية لثورة شعبية ذات اطـار دينى وذلك قبل أن تنفجر الثورة الأخيرة بسبع عشرة سـنة بل قبل أن تقوم ثورة قم الأولى « سنة ١٩٦٣ » ، فالطبعة الأولى للرواية صدرت سنة ١٩٦١ • أى فى الارهاصات الأولى للحركة الخمينية ، ومن هنـا كانت خطورة الرواية ومن هنا صودرت ، وأغلب الظن أن الرواية لن تجد الترحيب فى ظل العهد الجديد ، فالثورة الدينية التى تصورها تنتهى الى الفشل، وتنتهى بهرب الثوار بليل ، وكلها اسقاطات لا أظن أن العهد الجديد فى ايران سوف يتقبلها •

قلت ان الرواية تاريخية ، لكنها أيضا رواية تاريخية مستقبلية تأخذ من التاريخ سـندا لكى تستشرف المستقبل استشرافة نفاذة ، وهى سمة غالبة فى الروايات التاريخية ، ومع ذلك لا أميل الى اطـلاق الحكم على الرواية كرواية تاريخية ، فالأحداث التاريخيـة هنا مجرد خلفية وأداة لبيان أفكار شديدة المعاصرة ، ولتجلية مجتمع فى حـالة غليان دائم ، فالرواية ايرانية حتى النخـاع ، تقدم بنيـة المجتمع الايرانى لا فى فترة تاريخية معينة كما قد يتبادر الى الذهن ، بل فى صورة كلية شاملة لا تتقيد بالزمان أو التاريخ ، وقد تقدم تفسيرات كثيرة لأسـئلة لاتزال تثير كثيرا من ظـلال الغموض حـول الثورة الايرانية الأخيرة •

والى جوار كل هذا قدم الكاتب روايته فى شكل ايرانى وصياغة

ايرانيــة ، فهى تتكون من مقدمة لا علاقة لها فى الواقع بموضــوع الرواية بل تنبع من الأدب الشعبى الفارسى ، ثم يدخل فى موضــوع الرواية الرئيسى فيقدمه فى سبعة فصــول يســمى كل فصــل منها مجلسا وهى تسمية ايرانية للفصل مأخوذة من كتب الروايات والسير التى تكتب حول آل البيت ، ويختم الرواية بخاتمة يربطها بالمقدمــة الأولى وبموضوع الرواية ، وعلى طول الرواية لا تغيب شخصــية الراوى عنا ، بل ينتقل من حادثة الى حادثة ومن موضوع الى موضوع ويربط بين الأحداث ويعلق عليها ، كل ذلك فى لغة فارسية خالصــة حافــلة بالكنايات والاستعارات والايماءات تتقدم كثيرا على لغــة « هدايت » فى هذا المجــال ، فكأن الكاتب أراد أن تكون روايته « ايرانية » شكلا وموضوعا ولغة ، وهذا هو ما توصل اليه بالفعل .

***

فى اطار شعبى يقدم جلال آل احمد روايته بالأسطورة الشهيرة فى كل الآداب الشرقية والتى تقدم نظرة سياســية نفاذة فحواها أن السلطة السياسية فى الشرق أمر يجرى مجرى الصــدف والاتفاقات وخبط عشواء ، وقد يكون من يظفر بهذه السلطة هو آخر من يصلح لها بالفعل ، وأنه هو نفسه قد يكون ضائقا بها زاهدا فيها .. فنحن أمام راع أقرع ، حياته محصــورة بين قطيعه والجبال والمراعى التى يرعى فيها هــذا القطيع ، وذات يوم يسمع ضجة قادمة من ناحيــة أسوار المدينة ، ويهرع ليستطلع الخبر فــاذا بصقر يطير ويحط على رأسه ، واذا بالناس يحملونه على الفور الى كرسى الوزارة وذلك بالطبع بعد استبدال ملابس الوزارة بالأســمال التى كان يرتديها . فمــاذا فعــل ؟ .

خبــأ ملابسه القديمــة فى مكان ما وأخــذ يعودها كل يــوم متحسرا على أيامه الخوالى ، وكان هــذا بالطبع سببا فى طرده من الوزارة وعودته مسرعا الى قطيعه فى الجبل وحياته الأولى .

هذه المقدمة الساخرة الحادة لا تلبث ان تسلمنا الى الفصل الأول من الرواية ، فاذا بنا فى احدى المدن التى لا تتميز بشىء عن غيرها من المدن « فهى تحتوى على وزير وملا ومنجم وشرطة وعسس وشاعر وجلاد » ، ومن بين هذا الجمع يقدم لنا الكاتب بطلى الرواية، اثنين من كتاب العرائض المحترفين الذين يكتبون العرائض والشكاوى للأميين من أهل هــذه المدينة وما كان أكثرهم ، أما الكاتب الأول فيسمى ميرزا أسد الله ، والثانى ميرزا عبد الزكى ، وقد نشآ معــا وتربيا معا وكان وضــع كل منهما لا يسمح له بأن يتنافســا معا ، فميرزا أسد الله ســعيد فى حياته العائلية رزقه الله بطفلين همــا قرة عينيه ، وميرزا عبد الزكى على صلة بالجهات العليا ولا يجلس الى منضدة على باب الجامع الكبير كما يفعل ميرزا أســد الله بل يتمتع بمكتب يزاول فيه مهنته ، الا أن أهم ما ينغص عليه حياته هو حرمانه من الذرية مما يسبب له « نكدا » مستمرا من زوجته ، وفيما عدا ذلك فهما يشتركان معا فى كتــابة صكوك المعاملات والصفقات لتجــار السوق والخطابات المرسلة من الأميين الى ذويهم والواجبات المدرسية لأولاد الأعيــان ، والتعدى أحيانا على مهــام رجال الدين وكتابــة وصايا كبار التجار أو عقود البيع لهم ، لكن هذه الأمور لم تعد ميسرة لهما وذلك لأن عينى « ميزان الشريعة » مفتى المدينة مفتوحتان تماما ، ولا ينسى ميرزا أســد الله ما حدث له عندما تجرأ وكتب وصية أحد التجار ، وضيع على ديوان الشرع نصيبه المفروض فى هذه الأحوال .. وبالطبع كان أغلب معاش هذين الكاتبين من كتابة عرائض الشكاوى لمن يقع عليهم الظلم فى هــذه المدينة ، ومن هنا كانا يعرفان الوجهــة التى يجب أن توجه اليها كل شكوى لتصيب هدفها ، ومن هنا أيضا كانا على صلة بطرفى النقيض فى المدينــة : القمة الحاكمة والأغلبيــة المحكومة المقهورة ، وكان أحدهما وهو ميرزا عبد الزكى متزوجا من امرأة ذات حسب تمت بصلة قرابة الى « خانلر خان » الذى كان مرشحا

لمنصب « ملك الشعراء » أى شاعر البلاط ، وكانت هـذه المصاهرة تدفع ميزان الشريعة الى اشراكه ككاتب لعقود الزواج فى بيوت علية القوم ، وأهـم من كل ذلك أن ميرزا عبد الزكى كان يحمـل اللقب السحرى فى ايران أى لقب « سـيد » الذى يدل على أنه من نسـل آل البيت ، ومن ثم كان معروفا بأنه رجل مبارك مقبول الدعاء ، ومن هنا وسع دائرة أعماله لتشمل كتابة الأدعية والأحجبة وبالطبع لم يكن ليرد احدى نساء الأشراف ان طلبت منه عمـلا من أعمـال السـحر والشعوذة ، وللشباب المتأدبين كان ميرزا عبد الزكى يجمع الأشـعار التى تصلح للالقـاء فى الأفـراح والمـآتم والمـآدب أو عند عودة الحجاج ، وكان بارعا حقا فى العثور على أبيات من الشـعر « تقتل الأئمـة كلهم فى بيتين أو تمدحهم فى بيتين » ... وهـكذا احتفظ جلال آل أحمد بسمة تقليدية من سمات الرواية الفارسية وهى تقديم الأشخاص فى بدايتها ، الا أن اختياره لشخصيتين ذواتى صلة بالمجتمع قمته وقاعدته سببا فى القاء الضوء على المجتمع بشكل عام ، وبالرغم من أن التركيز فى هذا الفصـل كان على الشخصيتين الرئيسيتين الا أن القارىء استطاع أن يظفر بفكرة عامة عن المجتمع وعن بعض الشخصيات الأخرى المؤثرة فى هـذا المجتمع وعن بعض القيم التى تحكم هـذا المجتمع ، وبالرغم من أن الشخصيتين الرئيسيتين متشابهتان بشـكل عام ، الا أننا سوف نكتشف فيما بعد حين نمضى فى قراءة الروايـة أن التشابه ليس هو السمة التى تجمع بين هاتين الشخصيتين ، بل هو تشابه ظاهرى يخفى وراءه تناقضـا فكريا شديدا لالقاء معه .

***

فى المجلس الثانى نزداد معرفة بشخصية ميرزا أسد الله عن طريق مناقشة بينه وبين طفله ، هذه المناقشة تبين كثيرا من آراء ميرزا أسد الله حول الفقر والغنى والطبقية فهو يحاول بشتى الطرق أن يفهم الطفل الذى يتعجب من الفرق بين مستواه فى « الكتاب » ومستوى الآخرين

أن الأمر كله يتعلق بالوراثة وأن الفقير فقير لأنه يولد من آباء فقراء والغني غني لأنه يولد من آباء أغنياء فكل شخص يرث مهنة أبيه ومن ثم يرث مستواه ، وحينما يسأل الطفل : وأى ميراث سوف يتركه له يجيب · ان الميراث الذى تركه له والده والذى سيتركه بدوره له هو هذه الحروف الصماء والتى تحتوى على كل « الكلام » ، سواء ذلك الذى نزل على الأنبياء أو كتبه الفلاسفة أو نظمه الشعراء ، وحتى اسم الله الأعظم الذى يدعى الدراويش أنهم توصلوا اليه مكون من هذه الحروف ، وهذا الكلام من الممكن أن يكون أداة للشيطان، لكن ليس على الانسان أن يجعل منه أداة للشيطان ، فاذا انصرف الطفل الى حال سبيله ، انصرف ميرزا أسد الله الى محل رفيقه ميرزا عبد الزكى ، ودار بينهما حديث نلتقى خلاله لأول مرة بالخلفية التى تدور فيها الرواية وهى ثورة الدراويش التى استقطبت الناس الذين يبحثون عن المعجزات ، ثم يدور الحديث عن حادثة أخرى سنعلم فيما بعد أنها غير منفصلة عن الحادثة الرئيسية أى ثورة الدراويش وهى وفاة الحاج « ممرضا » (نطق ايرانى لمحمد رضا) فجأة ثم اتفاق الورثة على وقف ثلث التركة ، وأن ميرزا عبد الزكى هو المدعو الى الذهاب لحصر الأملاك واعداد المستندات وما الى ذلك ، وبينما كانا يناقشان هذا الأمر ، يحضر قروى لكتابة شكوى ، فقد جاء الى المدينة لبيع « جبنه » فصودر بغله فى السخرة ، ومن خلال حديثه نلم ببعض أطراف جو الفوضى الذى تعيشه المدينة والرشوة والفساد المتفشيين فيها ، فاذا انصرف القروى بعد أن تعلم درسا عما ينبغى آن يقوم به فى المدينة لكى تقضى مصالحه ، عاد بطلانا الى الموضوع الرئيسى وهو موضوع وقف ثلث تركة الحاج « ممرضا » ، وأن ميزان الشريعة نفسة هو ناظر الوقف ، ثم ينتقل ميرزا عبد الزكى الى أوضاعه العائلية؛ ان زوجته مصممة على الطلاق ، وتفسد له معدته بما تضعه فى طعامه من أعمال الشعوذة حتى صار طعامه كله من السوق وبالأمس أنذرته انه

ان لم يذهب الى طبيب البلاط ويجد علاجا لعقمه فسوف تترك له المنزل ويقترح عليه ميرزا أسد الله بأن يعرض نفسه على طبيب آخر هو خال ميرزا أسد الله نفسه ، وأن يشغل زوجته بشيء ، كأن تشترك مع زوجة ميرزا أســد الله فى نسج السجاجيد فى منزل ميرزا عبد الزكى •

***

فــاذا بدأ المجلس الثــالث انتقل بنا المؤلف الى منزل كل من أسد الله وعبد الزكى حيث تقنع زوجة الأول وزوجة الثانى بأن يبدآ فعلا فى مشروع نسج السجاد ، وكان الصديقان فى منزل ميرزا آسد الله حيث يحضر خاله الطبيب لفحص ميرزا عبد الزكى ، وبعد أن يسخر من أعمال السحر والشعوذة التى يقوم بها يقوم بفحصه ثم يسر الى ميرزا أســد الله بأنه لا فائدة ترجى من شــفاء صديقه وانه لا يعرف سببا لمــا يعانيه ومن ثم لا يعرف علاجــا ، ويدرى ميرزا عبد الزكى بحاله فينهار ، ولكى يحول ميرزا أسد الله دفة الحديث ينتقل الى حادثة حاج ممرضا ووفاته ، ويلقى الطبيب الشيخ الذى يدخل كل البيوت الضوء على هــذه الحادثة التى تثير الشــكوك والريب ، ان الرجل فيما يعلم لم يمت بالأجــل الالهى بل مات بالأجــل المعلق ، لقد مات مسموما ، وهو نفسه (كطبيب) يعلم نوع السم الذى دس له ، وأن من دس له السم ليسوا أولاده كما يشاع ••• ولا يزيد ، وينصرف الرجلان : ينصرف ميرزا عبد الزكى الى محله ، لكن ميرزا أســد الله الذى يهتم كثيرا بالأحــداث العارضة وبماذا يمكن أن يكون وراءها يمضى الى منزل حاجى ممرضا يتشمم الأخبار ، ويفاجأ بأن البيت مغلق وعليه حارســان يسخران منه ثم يهددانه فينصرف ويعرج على دكان فحام من أصدقائه ، وببراعة ينتقل من الحديث حول أسعار الفحم الى الحديث عن القضية التى تشغله أى قضية حاجى ممرضا ، واذا بالفحام يلقى ضــوءا آخر على الحادثة ، لقد كان الرجل بالفعل على علاقــة بالدراويش وكان يتردد على تكيتهم ويتعامل معهم ، ويمضى الى عيادة

خاله لينقل اليه هـذه الأنباء فيضيف خاله بأن حاجى ممرضـا ليس هو الوحيد الذى قتل بهذه الطريقة بل هناك تجار آخرون فى المدينة قتلوا بنفس الطريقة ، وأن المدينة تنتظر أحداثا جساما ، ومن الخير له آن يغادر المدينة لمدة أسبوعين ، ولا ضرر فى أن يذهب مع ميرزا عبد الزكى لحصر أملاك ممرضا وتنفيذ الوصية .

***

بعد أن تشابكت أمامنا الأحداث وازدادت غموضا ، يشفق علينا المؤلف ويعود بنا فى المجلس الرابع الى الخلفية التاريخية للرواية ، ويقدم اعتذارا لاضطراره الى الحديث عن هـذه الموضوعات لأنهـا كانت تجرى فى الوقت الذى كان يعيش فيه بطلانا ، وكأنه يريد بهذا أن يوهمنا بأنه يقدم حياة البطلين من خـلال الأحداث وليس العكس كما هو واضح بالفعل ... قبل أربعين سنة من الوقت الذى تجرى فيه أحداث الرواية ظهر عدد من الدراويش بمذهب جديد يدور حول أن النقطة « التى توضع على الحرف » هى محور الكون ، ثم حطوا التكاليف عن الناس ، وذهبوا الى أن التقرب الى الله يكون عن طريق التقرب الى خلق الله ، وأن حل مشاكل الانسان لب العبادة ، وبدلا من الاستفتاح « باسم الله » كانوا يقولون « أستعين بنفسى » وبدلا من « لا اله الا الله » كانوا يقولون « لا اله الا المركب المبين » ، وكان شعارهم الطبرزين « الفأس ذات الحدين » يرسمونها وشـما على ظهور أكفهم ، وعند ظهور المذهب كانت الحرب محتدمة بين الشيعة والسنة « الصفويين والعثمانيين » ، وكانت ايران التى تشيعت حديثا تعمل المذابح فى أهل السنة من أبنائها ، كما امتلأت الطرق بضحايا الحروب ومشوهيها يتكففونَ الناس ، وانتشرت المجاعـات وسـاد القحط ، وفى مثـل هـــذه الظروف كان لابد وأن ينجح الدراويش ، وسرعان ما نسجوا أساطيرهم بعد وفاة امامهم « ميرزا كوتشك جفردان » ، فقالوا انه لم يمت بل غاب وسوف يعود فيملأ

الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وزاد من نفوذهم أن اعتبرت تكاياهم حرما آمنا يلاذ به كل هارب من الجندية ثم كونوا بمدار الزمن أنصارا من بعض أعيـان المدينة الذين دانوا لهم بالطاعة التامة ... وعندما كانت أحداث هذه الرواية تدور ، كان رئيس الدراويش هو « تراب تركش دوز » الذى استطاع بكراماته كما يروج العامة أن يظفر برأس قائد أهـل السـنة ، والذى أصبحت تكاياه ملجـأ لكل صـاحب مشكلة أو فار من العدالة ، وعندما كثر أتباعه جعل كل تكيـة من تكاياه مركزا لحرفة من الحرف ، وبالرغم من أنه كان فى الأصـل نساجا لكنانات السهام كما يدل اسمه الا أنه كان دائم الاقامة فى تكية خراطى السـلاح ... الى هذا الحد ولم يكن هناك خطر على الحكومة القائمة ، فبين الآن والآخر كان اذا جاوز أحد الحد دس له السم أو سملت عيناه أو طلى جسده بالشمع وأضرمت فيه النار ، لكن القضـية بدأت تتجه اتجاها آخر حينما أشيع أن تراب تركش دوز يجد جدا شديدا فى صنع المدافع ، وتحققت الاشاعة عندما اندس « خانلر خان » فى تكية الدراويش وتحقق بالفعل من أن تراب صنع ثلاثة مدافع ... يا للمصيبة ، ان هـذا السلاح لم يصل ايران بعد ، ومعظم الهزائم التى تمنى بها ايران من أهل السنة تعود الى أن واحدا من كل عشرة من الجنـود الايرانيين يحمـل بندقيـة ناهيـك عن المدفع ... اذن : لم يعد هناك بد من اخبار السلطان .

فى مشهد من أهم مشاهد الرواية يصور المؤلف بسخرية شديدة المجلس السلطانى ، وكيف تم اخبار السلطان بالخطر المحدق بعرشه ، وكيف اجتمع الوزراء ورجال البلاط للتباحث بشأن كيفية اعـلام « الباب العالى » ، وكيف أن كل المحاولات باءت بالفشل ، فالقصيدة التى نظمها خانلر خان وأومأ فيها الى الأمر لم يفهم منها السـلطان شيئا ، وتوسلوا بجاريته المفضلة ، لكنها رفضت أن تفسد « ليلتها » التى ستأتى بعد انتظار ثلاث وثلاثين ليلة بمثل هـذه الأنباء ...

وفى الصباح يكون « قبلة العالم » نائما ولا يمكن للأسد نفسه أن يوقظه ... ومر شهر استطاع تراب تركش دوز خلاله أن يصنع ثلاثة مدافع أخرى ، واجتمع رجال البلاط : صاحب الديوان ومقرب الديوان خانلر خان ورئيس المنجمين الذى كان قد خلف والده حديثا ويريد فرصة لاثبات اخلاصه ، وبدأ التحرك المضاد فسجلت أسماء سبعة من تجار السوق بينهم حاجى ممرضا ، ودس لهم السم جميعا ، وأمر « ميزان الشريعة » بمصادرة أموالهم ، كما أمر رئيس الشرطة بمصادرة بعض البغال والخيل لصالح الحكومة ، كما أرسلوا الى التكايا من يشيع أن عودة ميرزا كوتشك جفردان قد باتت وشيكة ، وعندما تمت هـذه الأمور ، وفى نفس الوقت الذى تحرك فيه بطلانا الى أملاك حاجى ممرضا ، عقد المجلس السلطانى بحضور الأشراف ورجال الدولة .

تقدم خانلر خان وألقى قصيدته وأشار فيها الى تعدى الدراويش ، ووضع فيها كلمة « المدفع » أكثر من مرة ، وانطلقت صيحات الاستحسان ، لكن « ملك الملوك » لم يحرك ساكنا ، ثم تقدم المنجم بأسلوبه المعقد الملآن بالمحسنات فحذر « الملك » من النحس المحدق بالمملكة ، وهنا أحس السلطان أن فى الأمر شيئا ، وهنا تقدم الوزير الأعظم وبعد المقدمات التقليدية حذر السلطان من الأيام القادمة وطلب منه أن يقدم موعد « مشتاه » حتى اذا حدث هجوم كانت الضحية غيره ، وثار الملك ، انه لم يفهم الا أنهم يريدون الخلاص منه ، ووسط الفحش « الهمايونى » وبذاءة اللسان السلطانية يستدعى السياف فلا يجد الوزير الأعظم بدا من اخباره الأمر برمته ، ويقدم الحل : ان المشتى قريب من الحدود ، ومن هناك يمكن انفاذ الرسل الى « الأعداء » للتباحث معهم فى أمر الصلح ، وفى أثناء ذلك تكون الحاشية قد تمكنت من سجن بعضهم وقتل

بعضهم ونفى بعضهم وتموت الفتنــة ، ويوافق الســلطان معبرا عن موافقته بسيل من الشتائم المقذعة ينهال بها على وزيره الاعظم •

***

فى المجلس الخامس يعود بنا المؤلف الى الكاتبين فى رحلتهمــا الى أملاك حاجى ممرضا فى صحبة نائب الشرطة مع عدد من الحرس ، وخلال الرحلة تطــالع الخراب العام فى قرى البلاد ، كأن قحطا قضى على النــاس أو كأنهم فروا من وباء ، وكأن المحاصــيل المكومة فى الحقول كومات صغيرة من التراب تخلفت عن لعب أطفال •• ويدخل الموكب قرية ممرضا فلا يجد أحدا فى الانتظار ، حتى القرويون الذين كانوا يعملون فى مشارف القرية تركوا أعمالهم وهرعوا الى القريــة يختبئون خلف جــدران منازلهم ، وبينما نائب الشرطــة يلقى بــكل ما يعلمه من فحش على الفلاحين الجهلة الأشرار ، وعندما وصلت القافلة الى ميدان القرية كان الابن الأكبر للحاج فى انتظارهم بصحبة العمدة، أراد ميرزا أســد الله أن يتحدث مع ابن الحــاج الذى كان زميله فى الكتاب لكنه يتحاشاه ، وفى خفية من الباقين يدس فى يده ورقــة فحواها « ان عمل رفيقك معلوم فما شأنك أنت ؟ » وفى خلوة يلتقى الرفيقان القديمان ، ويقص ميرزا أسد الله عليه كل ما سمعه عن وفاة أبيه ، انه لم يأت الى القرية الا لعقد محــاولة الصلح بين الاخوة المتشاحنين كيلا يصيد « ميزان الشريعة » فى المــاء العكر ، لكن حسن آقــا ابن الحــاج يبين أن القضية معكوسة تماما ، لقد قتل الوالد ، وهدد الورثة جميعا : ان لم يتنازلوا طواعية عن كل أملاكهم فسوف يتركون فى السجن حتى يتعفنوا ، سوف تقسم التركة : ثلث لميزان الشريعة وثلث للصدر الأعظم والثلث الباقى مناصفة بين نائب الشرطة والكاتبين ، ان ميرزا أسد الله لم يكن يفهم كل هــذه الأبعاد، انه لم يغادر المدينة الا لأن جو الفتنة فيها يبيض ويفرخ ، ويعترف

حسن أن والده والتجار الستة الآخرين المسمومين كانوا مستودع أسرار « الشخص الواحد » أى رئيس الدراويش ، ويطلب ميرزا أسد الله من « حسن » أن يقاتل دون ماله فان مات مات شهيدا ، الا أن حسن لا يعترف بهذا الحديث ، ان من يموت دون ايمانه هو الذى يموت شهيدا ، ان ضاع المال فان « الشخص الواحد تراب محلة الحق » باق ، لقد امتنع الوالد من دفع الخمس لميزان الشريعة فكان ما كان ، ويعد ميرزا أسد الله حسنا بأنه سوف يتصرف بوحى من ايمانه القديم ، ان استطاع أن يقنع رفيقه فبها ونعمت ، وان لم يستطع فسوف يتصرف وحده ، وليس معنى ذلك أنه يعتقد اعتقاد صديقه القديم أو والده ، ويحذره حسن ، انه ان تصرف تصرفا يغضب ميزان الشريعة فسوف يزج بنفسه فى المشاكل وهو رب عائلة ، ولكن أسد الله الذى سوف يتكشف رويدا رويدا عن ثائر من طراز خاص يجيب : لايمكن أن تكون الزوجة ويكون الأبناء عذرا للانسان عن كل ذنوبه ، وبناء على هذا المنطق فان الجلادين لو بثوا همومهم فسوف يخيل اليك أنهم انما يزاولون الحج الأكبر من أجل زوجاتهم وأبنائهم ، غافلين عن أنهم ان كانوا يعولون أولادهم بهذا العمل فكأنما يربون من كل ولد من أولادهم قاتلا مجرما لأنه يسقى جرعة من دم الناس مع كل لقمة يطعمها ... هذه هى اللقمة الحرام حقيقة .

ويخلو ميرزا أسد الله بعدها الى زميله ، فيسر اليه بأصل المهمة التى جاءا من أجلها ، لقد جاءا لسرقة أموال الناس ، لكن ميرزا عبد الزكى يحتد عليه ويبدى ضيقه به وبمثالياته ، ثم يخبره بأنه لم يكن يعلم أن له نصيبا فى التركة ، لكن ميرزا أسد الله يحرجه: اذا عرض عليه عقد بما أخبره به هل يوقع أم لا ؟ ان علم أن ميزان الشريعة قد خدعه وأنه اتفق معه على شىء واتفق مع نائب الشرطة على شىء آخر هل يوقع أم لا ؟ لكن ميرزا عبد الزكى متردد : ان

لم يوقع فسوف يقع فى عداء مع ميزان الشريعة لا يعرف أحد مداه ولا يطيقه ، ثم ما الفرق بالنسبة لهؤلاء القرويين أن يكون المالك ورثة الحاج أم غيرهم ؟ لا فرق ... لكن ميرزا أسد الله يصر أن فى الأمر ظلما ومن واجبهما ألا يشتركا فى هذا الظلم ، ثم ان منطق ميرزا عبد الزكى قد يكون مبررا لكل أنواع الظلم ، اذا كان كل انسان سوف يقول : ان لم أقم بهذا العمل فسوف يقوم به آخرون فلماذا أمتنع أنا ماذا يكون الحال ؟ ان هذا المنطق يرضى الحرص لكنه لا يرضى العقل والضمير .. وتنتهى المناقشة بين الكاتبين . أرأيت كيف قام المؤلف بهذا الحوار الممتع ببيان التناقض الذى سوف يزداد بين الشخصيتين الرئيسيتين وكنا نظن آنفا أنهما متشابهان فى كل شىء ؟ وسوف نعلم مع تطور أحداث الرواية أنهما طرفا نقيض دون أن نرى فى هذا التناقض نبوا أو افتعالا .. ان الكاتب يقدم نموذجين موجودين فى كل زمان وكل مكان وتحت ظل كل دولة وفى اطار كل سياسة : ذلك الذى يكون ثائرا عن ايمان ومنطق لكنه يعيش الثورة دون أن يجعل منها خبزا يؤكل وخطبا تلقى ، وذلك الذى تجرفه الثورة فيبدو من أشد الناس ثورية وهو لا يزيد عن كونه نهاز فرص ، وهكذا فعندما ينعقد المجلس ، يكون ميرزا عبد الزكى أكثر حماسا فى الدفاع عن حقوق ورثة الحاج ، ويحطم ميرزا أسد الله خاتمه ، وينتهى المجلس بالقبض على الكاتبين وترحيلهما الى خارج القرية ، وقبل الخروج من القرية يهاجم القرويون الشرطة ويطلقون سراحيهما ... وينتهى هذا الفصل بأن يتنازل حسن آقا عن كل أملاكه للزراع .

***

فى المجلس السادس ينتقل بنا المؤلف الى المدينة ، السلطان غادر قصره بليل مع كل وزرائه وخدمه وحشمه والمحظيات من حريمه ، والاشاعات تملأ المدينة بأن الدراويش سوف يدخلونها ويحدثون

مذبحة ، والجو العام ينبىء بذلك ، فالقصر الملكى مغلق ، والطرق تخلو من الشرطة ، أما الحركة ففى تكايا الدراويش . ولم تكد الشمس ترتفع حتى خرج الدراويش من تكاياهم ومن خلفهم الناس يستولون على المخافر التى كانت خالية تقريبا من الحرس ، ثم مخازن السلاح ومن بعدها بوابات المدينة ، وأشعلت النار فى سوق المدينة ، وسرعان ما شاع الخبر بأن جواسيس الحكومة هم الذين أشعلوا النار لاحداث مجاعة ، وكان الرد هو نهب مخازن مؤن الحكومة ، وحرك الخوف من القحط الناس فانطلقوا خارج منازلهم وفتحوا سجن الحكومة وأطلقوا من فيه ، وقبيل الظهر انطلق المنادون فى المدينة معلنين أن « تراب تركش دوز » يسيطر على المدينة وأن حرية العقيدة مكفولة للجميع ، لكن على كل من يمتلك بندقية أو هاون نحاسى أن يحولهما الى تكية خراطى السلاح والا فسوف يكون للدراويش الحق فى الهجوم على البيوت ومصادرة هذين النوعين ... ثم هدأت الأمور كما ثارت فجأة .

وفى تكية خراطى السلاح حيث يقيم « تراب تركش دوز » ، كان هناك لقاء مع رسول من قبل ميزان الشريعة وخانلر خان ، انهما يريدان الاجتماع بتراب لكنهما فى البداية يريدان أمانا مكتوبا ، ويجيب تراب بأن لهما الأمان بشرط أن يكف ميزان الشريعة عن لعبة التكفير التى بدأ يقوم بها ، ويرد خانلر خان خمسة آلاف دينار ذهبى كان قد أخذها هبات عن شعره الى الخزانة ، وأن يسلم القصر الملكى ، فتراب يعلم ما هو موجود فى القصر ، ونفاجأ بأن جلاد البلاط كان من أتباعه وكان ينقل اليه كل ما كان يحدث فى القصر ، والقصر لا يعنى عند تراب الا مخزن البارود الموجود فيه ، أما ميزان الشريعة وخانلر خان فقد بقيا لاشعال الفتن وعرقلة الأمور حتى ينجح الملك فى مفاوضة الأعداء ويتنازل لهم عن عدد من مدن الحدود فى مقابل عدد من المدافع يقمع بها حركة الدراويش ، أما خطة الدراويش

المضـادة فمبنية على أن المباحثات بين السلطان والأعداء سـوف تستغرق على الأقل مدة شهر ، فاذا استطاع الدراويش صناعة مدفع كل يوم وجمع أكبر عدد من البنادق فسوف يكسبون الجولة .

يكلف حسن بالاشراف على مؤن المدينة ، كما يكلف أيضـا بمحاولة ضم « بطلينا » الى معية الدراويش ، ويفكر تراب فى الدخول هو الآخر فى مفاوضات مع الجيران ، ويلتقى الشخص الواحد مع ميزان الشريعة وخاطر خان ، ويحذرهما ، لقد منحهما الأمان ، لكنه لا يستطيع الوقوف أمام الناس ان أرادوا شيئا ، لكن ميزان الشريعة جاء يسلم مفتاح القصر الذى يحتوى على حريم الملك وهو لا يريد أن يتحمل مسؤوليتهن « فى هـذه الأيام التى يبحث كل واحد فيها عن مصلحتـه » ، ومع ذلك يقبل خاطر خان الاشراف على جنـاح الحريم ، وانتقل الدراويش الى القصر ، أما التكايا فقـد خصصت لمباشرة حقوق الناس .

فى اليوم التالى ألغيت بعض الضرائب التى كانت تثقل كواهل الناس . وخفضت أسـعار بعض السلع الضرورية ، وبدأت المدافع تعرض فى الطرق وعليها مناد يعلن الناس مزايا العوض الذى يتلقونه فى مقابل هاوناتهم النحاسية ، أما الناس الذين لم يروا من الدراويش ما كانوا يخشونه من قتل أو ضرب أو سجن فقد انصرفوا الى أعمالهم وأصبحوا أقل قلقا وأكثر بشرا ... هكذا استطاع المؤلف خـلال بضع صفحات أن يتحدث عن قيام ثورة بكافة مستوياتها ، وبتركيز معجز صـور انتقال السلطة ومواقف الناس ، بل والتغير الذى حدث فى شوارع المدينة ، وذلك دون أن ينفرط منه الخيط ولا غرو فوراءه ماض فى الثورات يمكنه من أن يقوم بكل ذلك بهذه الأستاذية .

لكن الشيء الذى بدأ يؤرق الناس هو حمل هاوناتهم النحاسية من بيوتهم « فالهون كان يأخذ معه البركة من البيت » ، وبالرغم من

الأوامر المشددة بعدم استخدام القوة مع الناس ، اضطر الدراويش الى كسر الأبواب ودخول البيوت وحمل الأهوان قسرا ، ومن ثم فان كاتبنا ميرزا أسد الله أخذ يستقبل زبائن من نوع جديد ، كلها تشكو من الاستيلاء على الأهوان ، وها هي امرأة تسخر أمامه من اسم الشخص الواحد ، ورجل آخر يبدى عدم اقتناعه بأن الأمر تافه، فالأمر قد يبدو تافها ، لكن الظلم يبدأ دائما من الأمور التافهة ، انه لا يقبل أبدا أن يوضع البارود فى الهاون الذى كانت امرأته تدق فيه اللحم ، كما أنه لا يقبل أن يتسبب هونه فى سفك دم أحد وهو لا يقبل الايذاء ، وثالث يحتج بأن هونه وقف وأثرى فهو غير قابل للمصادرة ... أرأيت كيف أنه من الصعب على أى نظام جديد أن يرضى الناس ؟ لقد عصمت الحكومة الجديدة دماءهم وأموالهم ، ولم تتعرض لهم بأذى ما قل أو كثر اللهم الا فيما يختص بهذا الموضوع التافه ، لكن أسد الله يكتب العرائض ، ثم يأتى اليه « حسن » طالبا بأن يخلو اليه والى رفيقه معا .

***

. نحن الآن فى موقف من أهم مواقف الرواية ، حيث يعرض حسن على الكاتبين التعاون مع الحكومة الجديدة ، ونواجه موقفا قد يبدو من النظرة السطحية غريبا لكنه واقعى كأشد ما تكون الواقعية ، ان الناظر نظرة سطحية الى أخلاق ميرزا أسد الله والى وضع ميرزا عبد الزكى لابد وأن يتوقع أن ميرزا أسد الله سوف يقبل وأن ميرزا عبد الزكى سوف يعتذر وذلك على الأقل لصلته بالنظام القديم ، لكن العكس هو الذى يحدث ، فان من تقوم شخصيته على أخلاقيات ومبادىء يكون من الصعب عليه أن يتغير ، أما الذى ينظر الى « الوضع » فسرعان ما يستبدل ولاءا بولاء ووضعا بوضع ، ان ديوان القضاء معروض على ميرزا أسد الله ، بينما ديوان المؤن والسلاح معروض على ميرزا عبد الزكى ، وميرزا عبد الزكى قد قبل

لكنه ينتظر جواب ميرزا أسد الله ، ويعتذر ميرزا أسد الله : ان هذا الوضع فوق طاقته ، لقد خلق لكتابة العرائض فحسب ، لكن ميرزا عبد الزكى يحـاول اقناعه : ان هذا العمل مناسب له تماما فلمـاذا يحط من قدر نفسه ؟ فيرد ميرزا أسد الله : ان أسـاس كل عمل هو الايمان فلابد أن يؤمن أولا بما يؤمن به الدراويش لكى يستطيع أن يعمل معهم ، ويحرك ميرزا عبد الزكى « وهو آكثر حماسا من حسن أحد مؤسسى حركة الدراويش » وترا آخر فى نفس ميرزا أسد الله فيقول له لامزا : لعلك خائف ويجيبه أسد الله : اننى فى مكانى ولست فى حاجة الى أن أدق رأسى كل يوم فى باب أو فى جدار وأقوم بحيلة ما ، ويرد ميرزا عبد الزكى : اننى رجل مغامرة .. لكن ما حـدث فى القرية يؤلم رأسك آكثر ، ويتدخل حسن فى الحديث ، فيدافع عن ثورته دفـاع المستميت ، انها ثورة للدفاع عن الناس ، آما الأهوان فانه حتى مصير عالم القدس معلق بأصوات المدافـع ، ويرد ميرزا أسد الله : ان الحكومة كانت هى الأخرى تملأ أفواهها بمثل هـذه الكلمات ثم ان الأمر لم يستقر بعد ، فمن الذى يدرى ماذا سيحدث غدا ؟ لنفرض أن الدراويش سيطروا على مدينـة أو مدينتين فمـاذا سيحدث بعدها ؟ ثم انهم يدعونه الى أمر لا وضوح فيه بالنسـبة له « ان الانسـان المؤمن فقط هو الذى يمشى بعين مغمضـة » ، آما ميرزا عبد الزكى فيحاول الاقنـاع بطريقة آخرى ... ان الأمر بالنسبة له « حركة ، تغيير ، تنوع » ويحـاول حسن أن يدق على نقطة أخرى : ان المبادىء وضعت أصـلا من أجل الانسـان ... ومبدؤهم يهتم بالانسان ولو على حساب المبادىء والأصـول وعندما يستقر الانسان سوف تعود المبادىء والأصول ، لكن ميرزا أسد الله يرد : ان المبادىء الحقيقيـة لا تغيب ثم تعود ، انه يعرف معتقداته القديمة تماما ، أما هـذا المعتقد الجديد فسوف يكون تكئة جديدة للتكفير وسفك الدماء وتصفية الحسابات ، وهـذا يناقض المبادىء

التى يؤمن بها ، لقد انقضى الزمان الذى كانت فيه المذاهب والأديان عاملا أساسيا فى التطور انه لا يدرى أى عمل يمكن أن يقوم به فى هذا المجـال ، فلا هو زعيم ولا هو امام ولا هو قد آتى بمذهب جديد .. أما هم فهم لا يفعلون شـيئا الا أنهم يجهزون لمذبحـة جديدة ، ويذكره عبد الزكى بما حدث فى القرية على أيدى شخصين فقط ، لكن المدينة غير القرية والوطن كله غيرهما ، ويحـاول حسن أن يقنعه بأن الحق لا محالة منتصر ، وأنه لابد من الدفاع عن شرف الانسان ، ويضيف ميرزا عبد الزكى : من الذى يمكن أن يعيش ليرى بلاطا يخلو من كل هيلمانه ، فيطلب منه أسد الله ألا يكون عاطفيا ، فالأمر فى نظره لا يختلف كثيرا ، حكومة ذهبت وحكومة جاءت مع كل ما يلزم للحكومة من جلد وسجن ومصـادرة ونفى ، منذ آلاف السنين والناس ينتظرون حكومة عادلة وعاقلة ، لكن العادل والعاقل لا يحكمان ، الحكم صنعة من لا رؤوس لهم ، صنعة الأراذل ، فى حين أن الدنيا يمكن أن تسير بدون حكومة ، جرب فى المجتمـع ، المشكلة التى تحل وديا تحل وان وصلت الى الحكومة فقل على الدنيا العفاء ، ويقول عبد الزكى : ان هـذا هو منطق الذين لم يصلوا قط الى الحكم ، فيقول ميرزا أسد الله : وما هو منطق الحكم الا القتل ثم القتل ثم القتل ، ان الحكم لا يحتـاج من الانسان الا القدرة على الطفو وعلى معرفة اتجـاه التيار ثم يتعلم أن يغمض عينيه من البداية وبعدها تصير عادة وحتى عين الضمير بعدها لا تريد أن ترى شيئا ، ويضرب حسن الأمثلة من التاريخ عن العقلاء والمفكرين الذين شاركوا الطغاة الحكم من أمثال أرسطو ونظـام الملك ونصير الدين الطوسى ، ويجيب ميرزا أسد الله : انهم كفروا بمؤلفاتهم عن هـذا الخطـأ ، ثم : من قـال ان الحق كان معهم « ان الحق فى كـلام الشهداء ومن هنا فأنا أنظر الى التاريخ من خـلال الشـهداء من خـلال المسيح وعلى والحـلاج والسهروردى » ، اذن فهو ينتظـر

بالمعصوم « الامام الغائب » ، ويجيب : ان كل انسـان يبحث عن شيء ما ، ثم ان الذى ينتظر امام الزمـان لا يعترف بالحـكومات الدنيوية ، وكيف يكون الأمر كذلك وهو يقول ان الأديان لم نعد تستطيع أن تغير شيئا فى حين تفقد الشـهادة كل مفهومها خارج نطاق الأديان فينكر ميرزا أسد الله أن الشـهادة لا توجد خارج نطـاق الأديان ، ويتدخـل ميرزا عبد الزكى : انه لا يؤمن أيضـا بمذهب الدراويش ، لكن اذا كانت الأمور قد ساءت ولم يعد هناك أمل فى الاصلاح فمن حق أى انسان أن يأمل فى أى طريق جديد ، بينمـا يستمر ميرزا أسد الله فى جدله : ان أكثر ما يؤرقه هو الفكر ، الفكر الذى أخرج آدم من الجنة ، وهو الأمانة التى عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها ، ويتدخـل حسن « المؤمن المتحمس فى مقابل أسد الله المثالى الحالم وعبد الزكى الانتهازى » قائلا : الى متى يغرق الانسان فى التفكير فى ما حل بآدم وسواه بينما لا يفكر فى الانسان الذى يعيش على الأرض ، ان المفـكر الحقيقى هو الذى يعيش عصره يقاوم الظلم ولا يستسلم له ، ثم من أين يدرى أن تراب محلة الحق ليس هو امام الزمان ؟ ويجيب ميرزا أسد الله : لست ممن ينتظرون امام الزمان ، ان كل انسان هو امام زمانه ، عليه أن يقوم فى عصره بما يقوم به امام الزمان ، ويجيب حسن : لا ، انك تنتظر امام الزمان ، وفى نفس الوقت فأنت تكره الوضـع الموجود فما الذى يعطلك ثم يتدخل ميرزا عبد الزكى : على الأقل لكى تحـافظ على شرفك ... ويتغير موقف أسد الله بعد هـذا النقاش الطويل الذى اختصرته بقدر الامكان .. على الأقل ليخرج عن هـذه السلبية التى لايمكن أن تكون المقابل للنعم التى أنعم الله بها عليه .. لكنه مع ذلك لن يستطيع أن يعالج أبدا داء من أدواء الأيام .

***

فى الفصـل السابع اذن تكتمل عناصر الصراع : الثورة بكل

ما فيها من اندفاع وقوة وفى نفس الوقت لا تعتمد على قاعدة شعبية ، وجانب السلطة الغائب عن مسرح الصراع ماديا لكنه أكثر نشاطا وأكثر حضورا وفعالية ، وها هما بطلانا ، كل منهما منهمك فى عمله الجديد بمساعدة عدد من الدراويش بعد تدريبهم على العمل ، ولكن ميرزا أسد الله بولايته القضاء أكثر اتصالا بالجماهير التى تظهر كالكورس اليونانى بين الآن والآخر معلقة على حدث من الأحداث ، وماذا عن الجماهير ؟ كان سخطها على الحكومة الجديدة يتطور تطورا سريعا ، فى البداية كانت النساء تشكو من انضمام أزواجهن الى الدراويش تهربا من النفقة ، ثم الشكوى من قذارة المدينة ، لكن هذه المشاكل حلت ، وبينما الناس آمنون الى حكومة الثورة ، اذا بالحكومة تقدم الدليل الأول على فشلها ، فبينما هم يعرضون عددا من المدافع الجديدة ، اذا بخمسة مدافع تنفجر فتطيح بمن يجربونها أشلاء ، وحين ينتشر الخبر فى المدينة وينتقل من فم الى فم يكون عدد المدافع التى انفجرت قد وصل الى الخمسين ، ليس هذا هو المهم ، المهم أن ثقة الناس فى الدراويش قد اهتزت ، وتشهد دكاكين الخبازين وباعة الغذاء ازدحاما لا يحدث الا فى أوقات القحط ، ثم شغب من نسوة الرجال الذين رحلوا مع الملك يريدون تعهدا بعدم ايذاء نساء الحريم السلطانى ، ثم حدث ما هو أخطر فثار طلاب المدارس الدينية بعد أن قطعت جراياتهم بفعل جواسيس الحكومة المندسين ، وهكذا بدأت المدينة تتحرك ، وسرعان ما تحالفت الطبيعة مع الحكومة فاذا بالثلج يسد الطرق ، والقرى تنكص عن مد المدينة بالغذاء الا اذا دفعت نقدا ، وعندما يقل الغذاء يزداد حرص الناس ويزداد شرههم ، كل هذا و « الشخص الواحد » معتكف فى عزلة « أربعينية » ولا يجرؤ أحد على ابلاغه بالأمور التى تسوء يوما بعد يوم ، ثم يقوم المحتكرون باخفاء المؤن فى مخازنهم ، لا فائدة الا أن تتحرك الجماهير بنفسها لنهب المخازن ، وهذا أمر

يعرف الدراويش جيدا كيفيـــة تنفيـــذه ، ولكى تتم عمليـــة ضبط المؤن ، على الدراويش أن يقوموا بعمل احصاء عام ، والناس خائفون يعطون معلومات مضللة ، فالاحصـــاء لا يعقبه الا التجنيد الاجبارى، وهكذا كانت الفجوة تزداد يوما بعد يوم •

وفى نهاية الشهر الخامس من استيلاء الدراويش على السلطة ، اندفع النـــاس الى الشوارع ، وحـــدث ما كان يحدث فى عهد الملك الهارب ، الناس فى جانب ، والدراويش المسلحون فى جانب آخـــر ، وبالرغم من أن المشكلة قد انتهت دون عدد يذكر من الضحايا الا أن الثقة كانت قد انعدمت تماما ، بدأ الدراويش يفرقون المتجمهرين أمام محـــال الأغذية بالقوة ، ثم ودون أن ينتظروا فتوى من ميرزا أسد الله قبض الدراويش ذات صباح على ثلاثة من المحتكرين وشنقوهم أمام محالهم السرية ، وياالهول ما حدث بعدها ، شيعت جنازتهم كأبطـــال وشهداء •• وسرت النار فى الهشيم ، نار ساعد جواسيس الحـــكومة على اشعالها •

كان هذا يحدث بينما كان سفراء أهل السنة يدخلون المدينـــة للتفاوض مع الحكومة الجديدة ، لكن الملك الهارب كان أكثر كرما ، فبينما لم يتعهد تراب الا بعدم التعرض لأهل السنة ، كان الملك قد تنازل عن سبع مدن على الحدود فى مقابل تأجير أربعمائة مدفع لمدة شـــهرين ، وها هو يستعد للزحف على المدينـــة عندما تنكسر حـــدة البرودة ، اذن هـــذا هو الموقف : المؤن تقل ، ومدافع الدراويش غير مأمونة العواقب ، والصرافون أغلقوا محلاتهم وتبخروا ، وعندما تكسر محلاتهم وتوجد خاوية يقبض عليهم ويسجنون ، اذن أصبح للدراويش هم الآخرين قتلى وسجناء ، ولضغط المصروفات حتى ينتهى الشتاء فرضوا عددا من الضرائب وخفضـــوا جرايات طـــلاب العلم ومرضى الجذام الى النصف ، وأطلق جواسيس الحكومة اشاعة بأن الدراويش

سوف يغلقون معسكر المجذومين ويطلقونهم الى الشوارع ، وهـاج الناس وانطلقوا بمشـاعلهم لاحراق دار المجـذومين عليهم ، ويسرع ميرزا أسد الله مع عدد من الدراويش عن طريق آخر ، ويتم انقـاذ المجذومين ، لكن بعد سقوط عدد من القتلى •

***

تنكسر حدة الثلج ، وينصرف الناس الى أمورهم هادئين ، لكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة ، فما ان تسرى نسائم الربيع فى المدينة حتى تسرى معها شائعة بأن جيش الملك على الأبواب وأن الدراويش أنفسهم قد أرسلوا عريضـة التسليم الى الملك ، وتقوم المدينـة قومة واحد ، كل من كان قد وشم على جسده شعار الدراويش أخذ يمحوه، حتى نسـوة الغجر أخذن يمحين من على أجسادهن وشم العقـارب والحيات المرسومة عليها ، وعندما وصل الخبر الى الدراويش أسرعوا الى أسوار المدينة لترميمها ، وها هو خانلر خان يرسل الى عبد الزكى يفاوضـه ، فيم ؟ فى أن الملك جمع لنفسه حريما جديدا ، واذا أراد عدد من أهل الحق أن ينقذوا أنفسهم فعليهم اصطحاب الحريم القديم معهم والهروب الى الهند ، وسوف ييسر لهم ذلك فى سبيل انقاذ الملك من هذا الحريم « غير المرغوب فيه » ، ثم على ميرزا عبد الزكى أن يطلق زوجته ويمضى الى حال سبيله ، ويذهب ميرزا عبد الزكى الى رفيقـه ثم يمضيان الى حسن ويمضون جميعا الى تراب ، لكنه لا يتقبل العرض بالانفعال المطلوب ، ويتحسس أحد المدافع قائلا : لو آننا أهل صفقات لمـا صنعنا هذه المدافع ، مصائرنا معلقة بفوهاتها •

وتتصاعد حدة الأحداث بشكل لا يتوقعه أحد ، فالناس يهاجرون من المدينة ، وتراب تركش دوز يتركهم ، من الأفضـل أن تكون المدينة خالية عند الدفاع عنها « أو الهروب منها بمعنى أصح » ، وبدأ الناس يتجهون الى المساجد « التى لم يمروا بها منذ ستة أشهر » ، وعلى

البعد بدأت نيران معسكر الحكومة تبدو ، وبالرغم من أن الدراويش هاجموه بليل وغنموا بعض الغنائم ، الا أن عمال الحكومة السريين يضربون ضربتهم ويغرقون مخزن البارود الموجود فى القصر ، اذن لم تعد هناك أهمية للمدافع فلم يعد أمام تراب الا الاجتماع بخانلر خان .

بعد ساعة من المشاورة ، جمع رؤساء الدراويش : ليس أمامهم الا قبول عرض خانلر خان ، ليس أمامهم الا الحفاظ على المذهب بالحفاظ على رؤوسه ، هكذا كان يرى الأمر ، بينما كان أحد كبار قواده يرى أن الثورة قد انتهت الى القوادة ، فالحريم المرافق سوف يقدم هدية الى ملك الهند ، ويبلغ ميرزا عبد الزكى بالأمر فيقبل أن يكون مع الفارين ، فماذا عن ميرزا أسد الله ؟ انه لا يقبل الفرار ، انه لم يرتكب جرما ، انه يفضل الاستشهاد ، ما دام لايستطيع المقاومة ولا يمكنه الفرار فليستشهد ، ويرد ميرزا عبد الزكى بعد نقاش طويل: اذن قررت أن تضحى بنفسك فى سبيل لا شىء ؟ لا ... ليس فى سبيل لا شىء بل فى سبيل أن يعيش أولاده مرفوعى الرؤوس ، ويوصى ميرزا عبد الزكى بأن يطلب من زوجته ألا تترك نسج السجاد حتى تستطيع زوجته هو أن تربى أولادها .

فى الليل فر « أهل الحق » من البوابة الشرقية مع مائة وعشرين امرأة من حرم السلطان وخانلر خان الذى قبل أن يكون رهينة حتى يغادروا الحدود ... ودخل السلطان المدينة حيث استقبله الناس والمصاحف فوق رؤوسهم والخبز والملح فى الصوانى ، وبالرغم من أن الدراويش كانوا قد فروا الا أن السلطان لم يرحم أهل المدينة ، عثروا على سبعة من الدراويش قتلوا أمام موكبه ، وأغار جنده على مائة منزل ، وقبضوا على ألف أودعوا السجون ، وتم شنق سبعة أشخاص فى اليوم التالى على باب القصر ، وفعل ميرزا خان دايى

« خال أسد الله » كل ما فى وسعه وخرج عن معظم ما له حتى استطاع أن يضع اسم ميرزا أسد الله فى قائمة المنفيين ، أما زوج ميرزا عبد الزكى فلم تذهب الى حريم خانلر خان ، بل واستطاعت أن تنجى منزل حاجى ممرضا على أساس أنه مصنع للسجاد ، وظلت تصنع السجاد مع زوجة أسد الله ... وذات صباح ذهب خان دايى الى باب السجن بملابس ميرزا أسد الله وانتظره حتى خرج ولبس ملابسه ، وانصرف الى الصحراء .

***

هل تنتهى الرواية عند هذا الحد ؟ لا ... لابد أن يخبرنا الكاتب كيف وصلت القصة اليه ، وهل يهمنا الأمر ، سواء قصها أحد أبناء الراعى الذى صار وزيرا ، أو ابن ميرزا أسد الله الذى وصل الى منصب ملك الشعراء ، أو ابنه الآخر الذى صار صاحب أكبر كتاب فى المدينة ، سواء قصها ميرزا عبد الزكى أو ميرزا أسد الله الذى عاد بعد عشرين سنة من السياحة والسفر ، لا يهم ، ما يهمنا أنها وصلت ، فهل تراها « وصلت » بالفعل ؟

تم الكتاب

المصــادر

النصـوص :

١ ـ افغـاني، « علي محمد » : سوهر آهو خانم . الطبعـة الأولى تهران ١٣٤٠ ش .

٢ ـ جمالزاده « محمد علي » : دار المجانين . تهران ١٩٤٢ م .

٣ ـ جـوبك « صـادق » : تنكسير . تهران ١٣٤٢ ش .

٤ ـ حجـازي « محمـد » : زيبـا . تهران ١٩٣١ .

٥ ـ مسـعود « محمد » : كلبائى كه در جهنم مى رويـد تهران ١٩٤٢ .

٦ ـ مير صادقي « جمال » : درازناى شب . تهران ١٣٤٩ ش.

٧ ـ جـلال آل احمد : « نون والقـلم »: الطبعـة الثالثة . تهران ١٣٥٦ هـ.ش .

المصـادر الفارسـية :

١ ـ امير خيزى (اسـماعيل) : قيام آذربيجان وستارخان . تبريز ١٩٦٠

٢ ـ امير قلى امينى : فرهنكك عوام اصفهان ١٣٥٣ ش .

٣ ـ امير قلى امينى داستانهاى امثال اصفهان ١٣٥١ ش .

٤ ـ انجوى شـيرازى (سيد ابو القاسـم) : تمثيل ومثل . تهران ١٣٥٢ .

٥ ـ براهنى (رضـا) : قصـة نويسى . تهران ١٣٤٨ ش .

٦ ـ برهـام (سيروس) : شوهر آهو خانم در راهنماى كتـابه شمارة ١٠ دورة جهارم ١٣٤٠ ش .

٧ ـ بروبزی (رسـول) : شلوارها وصلة دار الطبعة السادسة .
تهران ١٣٥٣ ش .

٨ ـ دریابنـدی (نجـف) : شـوهر آهو خـانم در سـخن
دوره‌ی ١٢١ .

٩ ـ سـخائی (محمـود) : مصـدة در رسـتاخیزملت .
تهران ١٩٥٢ .

١٠ـ کیمسارف : جنبـه های نوین رمان فارسی معـاصر .
در سخن دوره‌ی ٢٣ .

١١ـ کیانوش (محمود) : بر رسی شعر ونثر فارسی معـاصر .
تهران ١٣٥١ ش .

١٢ـ مسـتوفی (عبد الله) : شرح زندکانی من یا تاریخ دوره‌ی
قاجاریه . تهران ١٩٤٥ .

١٣ـ ندوشن (محمد علی اسلامی) : شوهر آهو خانم در یغما
شماره‌ی ١١ سال ١٣٤٠ ش .

١٤ـ تکو روح (حسن) : داستانهای صادق جوبك در « نکین »
شماره‌ی ٢٦ ، ١١٥٤ ش .

١٥ـ هدایت (صـادق) : بوف کور . تهران ١٣٤٢ ش .

١٦ـ هدایت (صـادق) : سایة روشن . تهران ١٣٤٢ ش .

١٧ـ هدایت (صادق) سه قطره خون . تهران ١٣٤٢ ش .

١٨ـ هدایت (صـادق) سك ولکرد . تهران ١٣٤٢ ش .

المصـادر الأوربيـة :

1. Avery (P.), Development in modern Persian Prose. M.W. 1955.
2. Binder (L.), Iran, Polotical Development in a changing Society Berk. 1962.
3. Kamshad (H.), Modern Persian Prose literature. comb. 1966.
4. Rypka (Y), History of Iranian literature. Ubsala 1959.

الفهـــرس

رقم الايداع ٨٦/٣٣٠٥

الترقيم الدولى ٦ ــ ٠٩٨٨ ــ ٠١ ــ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الرواية ديوان الشعوب . . وفى هذا العرض النقدى لروايات سبعة من أمهات الروايات الفارسية يقدم المؤلف سياحة زمانية ومكانية فى إيران تتسع زماناً لتشمل الثمانين السنةالأخيرة ، ومكاناً لتقدم بيئات متعددة : طهران وكرمانشاه وبوشهر وتنجستان . . عن طريق هذه الروايات سيفهم القارىء كثيراً مما لا يعرفه عن إيران . . بنياتها الدينية والاجتماعية والسياسية ، والصراع الطبقى فيها ، ومشكلات مجتمع يحتوى على الصراع بين القديم والجديد ، وبين من يمثلون القديم ويمثلون الجديد ، كما يقدم الكتاب صورة من فن جديد فى أدب كلاسى مما يتشابه مع أدبنا العربى من مناح عديدة .

٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب